

رشيد رضا

الصحفي، المفسر، الشاعر، اللغوي

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي

الكتاب الثاني

اهـــــــــداء 2004
الهـــيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة



الأمانة العامة

ادارة نشر الثقافة الاسلامية

رشيد رضا

الصحفي، المفسر، الشاعر، اللغوي

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

الكتاب الثاني

من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية

الهيئة العامة

لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٧

تصدير

أحمد الله تبارك وتعالى ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ، وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

وأستفتح بالذى هو خير : (ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير) .

وبعد :

فهذه دراسة لى عن « رشيد رضا : الصحفى ، المفسر ، الشاعر ، اللغوى » . ولقد تحدثت فى دراسة سابقة مستقلة عن « رشيد الأديب الكاتب الإسلامى » ، فأبنت طريقته فى الكتابة ، والموضوعات التى طرقها فى كتابته ، وأثر الجملة القرآنية فى أدبه ، وشرحت مواقفه من الخطابة ، والنقد ، والقصة ، والمقامة ، والرسالة .

ثم تكلمت عن آرائه فى الثقافة والتربية والتعليم ، وآرائه فى الترجمة والأدب الشعبى ، ومقاومة العامية ، وإعزاز الفصحى ، وتأييد الاتجاه الإسلامى فى الأدب ، وموقفه من قضية « القديم والجديد » ... الخ .

وفى هذه الدراسة التى بين أيدينا أبدأ مرحلة أخرى متميزة من البحث والدرس ، فأتكلم فيها عن « مجلة المنار » التى كانت فى عصرها أكبر

مجلة إسلامية فى العالم الإسلامى ، وكانت اتساعا وانفساحا لرسالة « مجلة العروة الوثقى » ، وظلت تصدر خلال أربعين عاما كانت محشودة بالأحداث الجسام والوقائع العظام .

وكانت « المنار » ميدانا يصول فيه قلم رشيد رضا ، وقلم أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده ، وكوكبة من أعلام الإسلام وأعيان العروبة عليهم جميعا رضوان الله تبارك وتعالى .

ولقد أبنت فى دراستى هذه أن مجلة « المنار » كانت أسطع مجلة إسلامية فى عهدها ، وأنها أحدثت نهضة صحفية دينية واسعة ، وأوجدت هزة عميقة فى التفكير الإسلامى كان لها آثار كبيرة وكثيرة ، تستحق المتابعة والدراسة والتحليل فى أكثر من بحث وأكثر من كتاب .

وتحدثت كذلك عن « تفسير المنار » الذى يعد أضخم الآثار لرشيد رضا بعد مجلته « المنار » . وأبنت أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو صاحب الفضل الأول — بعد الله سبحانه — لأنه الذى بدأ ذلك التفسير وسارفيه شوطا طويلا ، رسم به لتلاميذه وخليفته من بعده — السيد رشيد — الطريق ، ليتابع خطوات شيخه فى تفسير القرآن الكريم ، مستندا فى جهوده إلى العقل والنقل ، مع العناية بالأمور الاجتماعية والقضايا الإسلامية ؛ وذكرت طائفة من المآخذ التى أخذتها على « تفسير المنار » أو أخذها غيرى عليه .

ثم تحدثت عن « رشيد رضا والشعر » ، فأبنت أول صلته بالشعر ، وعنايته بالشعر ، واهتمامه بالشعراء ، وقوله الشعر ، وآراؤه فى شعراء

عصره ، مثل : البارودى ، وأحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد توفيق البكرى ، وأحمد الكاشف ، وغيرهم .

وشرحت تأثر رشيد بأستاذه الإمام محمد عبده فى نظرته إلى الشعر ، حيث قال : « الشعر إذا لم تكن ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر » .

وتكلمت عن « رشيد اللغوى » فأوضحت عنايته الملحوظة باللغة العربية ، وإيمانه بأنه لابقاء لأمة دون لغة حية لها ، وكيف كان يربط بين تعلم الإسلام وتعلم العربية — ويقرر أن « الاجتهاد » يستلزم فى شروطه اتقان اللغة العربية ، وأن علينا للغتنا حقا هو أقدس من سائر الحقوق ، يوجب علينا إحياءها ، وهو حق الدين الذى لا يمكن حفظه إلا بها — والدين هو ركن سعادتنا الدنيوية والأخروية ، ويشايع الإمام الشافعى — رضى الله عنه — الذى يفرض على كل مسلم — حتى ولو كان غير عربى — أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده .

وتحدثت عن المساجلات اللغوية الواسعة التى دارت بين رشيد وأعلام عصره ، وعن الجهود الكبيرة التى بذلها لخدمة لغة القرآن المجيد فى مختلف المجالات .

وفى هذا الباب سجلت طائفة من الملاحظات اللغوية التى لاحظتها على رشيد ، وتعرضت لكتابات كتبها أصحابها عن رشيد رضا ، فقدمت هذه الكتابات ، وذكرت مالها وما عليها .

وما أظن أنه يليق أن يقف الحديث عن السيد محمد رشيد رضا صاحب « مجلة المنار » و « تفسير المنار » عند هذا الحد ؛ وإن تنوع الحديث واتسع ، فإن هذا الكاتب الإسلامى الكبير ، يستحق أن تدور حول تراثه الإسلامى والعربى بحوث وبحوث .

وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور أحمد الشرباصى

مجلة المنار

مجلة المنار

رشيد والصحافة :

يذهب بعض الباحثين فى الصحافة إلى أن الصحافة هى « صانعة الأدب المصرى الحديث » ، ويروى أن أهل الآداب الأوربية لايرون بين الصحافة والأدب أكثر من خيط رفيع يوشك أن ينقطع[1] .

ولاشك أن الصحافة قد عاونت على تيسير الأدب وتطويعه ، وتخليصه من أثقال الحلية اللفظية والصنعة البديعية ، وإن تكن قد صرفت الناس عن جزله ورفيعه ، وشغلتهم بأمور السياسة وعوارض الحياة ومما يتصل بهذا أن يقول رشيد : « اعلم أن سبب أغلاط بعض المدققين وواسعى الاطلاع فى العربية من أهل عصرنا هو كثرة قراءتهم للجرائد والكتب التى ألفها أو ترجمها الضعفاء فى النحو والصرف ومتن اللغة ، وكذا علم المعانى والبيان[2] » . وفصل الخطاب فى فضل الصحافة على الأدب ، أو تأثيرها فيه ، يحتاج إلى مجال فسيح ، وحسبنا أن نتفق على الأثر البين للصحافة فى النواحى الأدبية .

ولقد سبقت لبنان وسورية إلى إصدار الصحف ، وحينما نهضت الصحافة فى مصر ، كانت نهضتها على أكتاف أفراد من الشام ، هاجروا إلى مصر بسبب اضطهاد الحكومة العثمانية لهم ، ونحن نرى فى لبنان صحفا تصدر سنة ١٨٧٠ م مثل : الزهرة ، والجنة ، والبشير ، ومجلات

(١) الصحافة والأدب فى مصر ، ص ٢ . ومؤلفه هو الدكتور عبد اللطيف حمزة .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٥٤٩

تصدر فى السنة نفسها مثل : الجنان ، والنحلة ، ثم تكاثرت فيها الصحف والمجلات .

ثم نرى فى مصر صحفاً تصدر سنة ١٨٧٦ م مثل الأهرام ، وسنة ١٨٧٦ م مثل :الوطن ، ومصر ، ثم مجلات تصدر بعد ذلك ، مثل : المقتطف واللطائف ، والحضارة ، والهلال[١] .

ونشأت جريدة « الوقائع المصرية » سنة ١٨٢٨ م . وكان يطلق على الصحيفة عقب ذلك اسم « الوقائع » وأحيانا يطلق عليها اسم « غازته » Gazetta — وهو اسم لصحيفة إيطالية صدرت فى البندقية سنة ١٥٣٦ م ، أو اسم « جرنال » Journal وهى لفظة فرنسية معناها « يومى » ، أو اسم « النشرة » نسبة إلى « النشرة الشهرية » التى أصدرها المرسلون الأميركان سنة ١٨٦٦ م .

ثم شاع استعمال كلمة « صحيفة » للجريدة اليومية ، وكلمة مجلة » للصحف التى تصدر فى فترات معلومة متباعدة ، وقد وضع هذه الكلمة لهذا المعنى إبراهيم اليازجى ، وذلك عندما تولى تحرير « مجلة الطبيب » سنة ١٨٨٤ م[٢] .

ومع شيوع هذا الاستعمال المفرق فى التسمية بين الصحيفة اليومية والمجلة ، ظل كثيرون يعبرون عن كل من الصحيفة والمجلة بكلمة « الصحيفة » ، وقد ظل كثيرون يعبرون عن « المنار » بكلمة « صحيفة » كما ظل كثيرون يعبرون عنها بكلمة « مجلة » .

---

(١) الشيخ إبراهيم الحورانى ، ص ٤٩ — ٥١

(٢) تاريخ الصحافة العربية ، ج ١ ص ٧

ونلاحظ النزعة الصحفية عند السيد محمد رشيد رضا منذ فتوته ، فهو قد كتب فى صدر شبابه مقالا عن فلسفة الأخلاق[١] فى جريدة « طرابلس » التى كان يصدرها أستاذه وشيخه حسين الجسر ، وهو قد فكر فى إصدار صحيفة أو مجلة قبل هجرته إلى مصر سنة ١٨٩٧ م ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك وهو فى لبنان بسبب فقدان الحرية ، وشدة الحكومة العثمانية فى محاربة الفكر والرأى ، بل إنه لم يقبل ما عرضه عليه الأستاذ عبد القادر القبانى صاحب جريدة « ثمرات الفنون » – وهى أقدم الجرائد الإسلامية فى سورية – من توليه رياسة تحريرها ، واحتج فى الرفض بأن الحرية فى بيروت لاتسعه ، لأنه يريد إصلاح الأخلاق والاجتماع والتربية والتعليم ، وتحرير الأمة من سيئات الحكم الاستبدادى ، وبأنه عازم على إنشاء صحيفة إسلامية فى مصر[٢] .

ومن هذا نرى أن رشيدا قد نزع إلى الصحافة بقوة ، وتطلب منها مطلبا كان بعد عسيرًا جدا فى وقته ، لأنه كما رأينا يريد أن يكون صحفيًّا صاحب عقيدة ، وصاحب مبدأ وصاحب دفاع عن الأخلاق ، وصاحب دعوة إلى إصلاح المجتمع ، والنهوض بالتربية والتعليم ، وإذا كان هذا المطلب ما زال عسيرا ، إذا أريد على وجهه الصحيح المرضى لله وللدين فما بالك بعهد رشيد يوم تطلب ذلك ؟ .

---

(١) يبدو أنه المقال الذى نشر بعنوان : «تبصرة وذكرى لقوم يعلمون » انظر المنار المجلد الأول ، ص ٦٩ الطبعة الثانية .

(٢) المنار والأزهر ، ص ١٩٢ .

وإذا كانت الأسباب لم تهيء لرشيد يومئذ إلا العزم على إصدار صحيفة أسبوعية أو شهرية — كما وقع ذلك بالفعل فى مجلة المنار — فإنه كان يفكر منذ وقت مبكر فى إصدار جريدة يومية تسير على الخطة التى يؤمن بها ، ولقد كتب إلى صديقه أمير البيان شكيب أرسلان بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٢٩ م يخبره أنه ذكر للدكتور عبد الحميد بك سعيد الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين أمنية طالما تمناها ، وهى وجود جريدة يومية ، تناط رياسة تحريرها بالأمير شكيب أرسلان ويشترك فى إصدارها شكيب ، ورشيد ، وعبد الحميد سعيد، ويخبره بأن الدكتور عبد الحميد سعيد قد سر بهذه الفكرة ، وقدرها حق قدرها[(١)] .

بل يتغنى رشيد قبل ذلك بنحو ربع قرن بما يتصوره أو يريده من مثل هذه الجريدة اليومية ، وذلك حينما يتحدث عن قيام جماعة من أعضاء مجلس شورى القوانين فى مصر سنة ١٩٠٦ م بمحاولة تحقيق فكرة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى إنشاء جريدة يومية ، وبعد أن يتحدث عما ينبغى لها يقول :

« على أن الفائدة الحقيقية للجريدة موقوفة على حسن اختيار الذين يتولون كتابتها وتحريرها ، فإذا ظفر مجلس إدارتها بالكاتبين المحررين القادرين على الإجادة فى مسائل الاجتماع والأخلاق والاقتصاد والانتقاد والزراعة والتجارة والآداب والشريعة والقوانين، ممن لاتنبسط أيدى أصحاب الجرائد الأخرى إلى استعمال أمثالهم ، تسنى لها أن تكون أرقى من كل

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ١٥٣٢

وهذا الكلام يوحى بتقدير رشيد العالى للصحافة ذات الرسالة المستقيمة ، ويشعرنا بأن الصحافة سلاح ذو حدين ، ويشير من طرف خفى إلى أن هناك من يسىء استعمال هذا السلاح .

ويزيدنا رشيد علما برأيه فى رسالة الصحافة حين نجده وهو يتحدث عن مجلته « المنار » يقول : « وليس للمنار حظ فى السياسة العملية ، وإنما همه أن يكون حرا فيما فرض عليه من الخدمة الملية ، وإذا كان كسائر الصحف قد أمن على حريته واستقلاله من استبداد الدولة ، فقد بقى عليه أن يجاهد مع غيره استبداد الأمة ، فإن فى الأمة أعداء للحرية والاستقلال ، فى العلوم والأفكار والأعمال ، يحبون أن تكون الصحف كما يرون ، لا كما يرى أصحابها ، وأن ينشر فيها ما يعتقدون لا ما يعتقد أصحابها ، وما كتاب الصحف إلا معلمون مرشدون ، وهل يعلم الأستاذ تلاميذه ما يعلمون ، ويربى المرشد مريديه كما يريدون ؟

وقد جرى على هذا كثير من أصحاب الصحف المصرية وما كانوا مصلحين ، ويجرى عليه الآن بعض أصحاب الصحف العثمانية وماهم بمهتدين ، وسيبقى المنار على صراطه ، لايبالى المخالفين[(١)] » .

وهو فى هذه العبارة يقرر طائفة من الأمور الصحفية المهمة ، فهو أولا يشير فى صدر عبارته إلى مانفهم منه أن الصحيفة ينبغى أن يكون لها مجال نشاط أو اختصاص ، ولذلك يصرح بأن المنار سيترك السياسة العملية لينصرف إلى الخدمة الملية ، وهو يطالب بضمان الحرية للصحيفة

---

(١) المنار ، المجلد ١٢ ص ١٤ .

وهذا الكلام يوحى بتقدير رشيد العالى للصحافة ذات الرسالة المستقيمة ، ويشعرنا بأن الصحافة سلاح ذو حدين ، ويشير من طرف خفى إلى أن هناك من يسىء استعمال هذا السلاح .

ويزيدنا رشيد علما برأيه فى رسالة الصحافة حين نجده وهو يتحدث عن مجلته « المنار » يقول : « وليس للمنار حظ فى السياسة العملية ، وإنما همه أن يكون حرا فيما فرض عليه من الخدمة الملية ، وإذا كان كسائر الصحف قد أمن على حريته واستقلاله من استبداد الدولة ، فقد بقى عليه أن يجاهد مع غيره استبداد الأمة ، فإن فى الأمة أعداء للحرية والاستقلال ، فى العلوم والأفكار والأعمال ، يحبون أن تكون الصحف كما يرون ، لا كما يرى أصحابها ، وأن ينشر فيها ما يعتقدون لا ما يعتقد أصحابها ، وما كتاب الصحف إلا معلمون مرشدون ، وهل يعلم الأستاذ تلاميذه ما يعلمون ، ويربى المرشد مريديه كما يريدون ؟

وقد جرى على هذا كثير من أصحاب الصحف المصرية وما كانوا مصلحين ، ويجرى عليه الآن بعض أصحاب الصحف العثمانية وماهم بمهتدين ، وسيبقى المنار على صراطه ، لايبالى المخالفين[1] » .

وهو فى هذه العبارة يقرر طائفة من الأمور الصحفية المهمة ، فهو أولا يشير فى صدر عبارته إلى مانفهم منه أن الصحيفة ينبغى أن يكون لها مجال نشاط أو اختصاص ، ولذلك يصرح بأن المنار سيترك السياسة العملية لينصرف إلى الخدمة الملية ، وهو يطالب بضمان الحرية للصحيفة

(١) المنار ، المجلد ١٢ ص ١٤ .

حتى تستطيع القيام بواجبها ، وهو يرى أن مقاومة الاستبداد وأعداء الحرية والاستقلال من أوجب الأمور على الصحفى ، وهو يطالب باستقلال «شخصية » الصحيفة فلا تكون مائعة ولا ضائعة ، وهو يريد منها أن تأتى بالجديد الطريف المبتكر ، الذى لم يسبق للناس معرفته ، وهو ينعى على صحافة الملق والرياء والمتابعة واسترضاء القراء ، ويعاهد ربه على أن تظل مجلته « المنار » سائرة على صراط الحق لاتخاف فيه لومة لائم .

وليس معنى هذا أن رشيدًا يرى فى الصحافة وسيلة عنف أو تهجم أوشطط ، بل هو يريد لها على عهده أن تكون صاحبة رسالة مثمرة ، ويمكن أن نلحظ هذا إذا أوجزنا ما يطلبه رشيد من الصحافة فى الأمور الآتية :

١ — جعل الدعوة للتربية والتعليم ديدنها.

٢ — الحث على التبرع لنشر التعليم وتأسيس الجمعيات .

٣ — اتخاذ أسلوب حكيم فى نقد الحكومة يرجى نفعه ، ولا يخشى ضرره .

٤ — بث مبادئ الحكم الذاتى فى الأمة ،أى أن تحكم نفسها بنفسها[١] .

• • •

انتفاع رشيد بالصحافة :

ولاشك أن اشتغال رشيد رضا بالصحافة قد أفاده فى أكثر من جهة ، لقد هيأ له أكثر من منبر ليذيع من فوقه آراءه وأفكاره ، وأرغمه على

---

(١) المنار ، المجلد ١٢ ص ٣٣ — ٣٦ .

أن يكتب ويكتب ويواصل الكتابة ليقضى مطالب صحيفته ومطالب صحف أخرى يكتب لها ، مما أثر فى أسلوبه من ناحية التطويع والتقريب.

وقد تكون هذه المواصلة فى الكتابة للصحافة قد جنت بعض الجناية على كتابة رشيد العلمية ، حيث فتحت فيها بابا للأسلوب الصحفى المتعجل ، ولكن هذا لايمنع من تقرير حقيقة واضحة هى أن الصحافة كانت صاحبة الفضل الأكبر فى دفع رشيد إلى الكتابة ، وكانت الحقيبة الكبيرة التى حفظت لنا آثار رشيد وأفكاره ، حتى أن رشيدا ـ فيما ألاحظ ـ كان يتخذ من الصحيفة « مستودعا » يودع فيه ما يخشى عليه الضياع أو النسيان ، أو مالا يستطيع إبلاغه الناس بطريقة أخرى ، وهذا موضوع طويل يحتاج إيضاحه إلى تفصيل .

التمهيد لإصدار المنار :

هاجر رشيد إلى مصر فى نهاية سنة ١٨٩٧ م وبلغها فى ٣ من يناير سنة ١٨٩٨ م ، وسنه فوق الثلاثين ، وفى نيته إصدار مجلة إسلامية ، وقد سبقته شهرة فى ميدان الكتابة ، فأرادت جريدة « الأهرام » أن تضمه عقب هجرته إلى أسرتها ، وعرضت عليه مكافأة سخية ، ولكنه لم يقبل[١] ، واكتفى بأن يكتب لها فيما بعد من حين إلى حين ، لأن شغله الشاغل كان إصدار « المنار » .

ويذكر لنا رشيد أن التمرن القلمى الوحيد الذى أعده للاضطلاع بإنشاء « المنار » هو كتابه الأول الذى ألفه بعنوان : « الحكمة الشرعية

---

(١) رشيد رضا الامام المجاهد ، ص ١٣٤

فى محاكمة القادرية والرفاعية » ، وفيه يتحدث عن التصوف ، والزى فى الإسلام ، وتشبه المسلمين بغيرهم ، ومسألة المهدى المنتظر ، والخطابة فى الإسلام ، ومسألة الكرامات ، وانتقد بعض أعمال الصوفية ، ورد فيه على مارآه خطأ فى كتب الشيخ أبى الهدى الصيادى الذى يتبع الطريقة الرفاعية ويتعصب لها [١]

وهناك من يرى أن مجلة « المنار » كانت تقوم مقام « مجلة العروة الوثقى » ، بل هناك من يرى أن مجلة « المنار » امتازت على « العروة » بطول عهدها ، يقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى عن مجلة المنار : « قامت مقام مجلة العروة الوثقى ، وامتازت عليها بأنها مكثت زمنا طويلا ، فارتفع بها صوت الإصلاح فى هذا الزمن الطويل ، وهو يمتد إلى وفاة السيد رشيد رضا سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥م » [٢] .

ولقد سألت الدكتور طه حسين فى هذا ، فقال لى معارضا : « الشيخ محمد عبده شىء ، والشيخ رشيد شىء آخر ، لأننى رأيت لعروة الوثقى ، وهناك فرق كبير بينها وبين المنار ، والمنار كان ذائعا ، وليس له أكثر من هذا » .

والذى أراه أن مجلة « العروة » الوثقى أدت رسالتها المناسبة لظروفها القاسية ، وكان عمرها عمر الورود ، وكان هدفها الأساسى هو إيقاظ

---

(١) المنار والأزهر ، ص ١٨٩ .

(٢) المجددون فى الإسلام ، ص ٥٤٠ ، وقد جاء فى ص ٤٩٤ أن العروة الوثقى لم يظهر منها سوى عشرة أعداد ، وهذا غير صحيح ، فقد ظهر منها ثمانية عشر عددا ، انظر تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٣٦٠

المسلمين والشرق من السبات الطويل ، ففيها الإثارة والتحميس والحفز والدعوة إلى النهوض والتحرر ، وأما «المنار» ، ففيها إلى جوار ذلك بحوث فى علوم الإسلام ، وفيها تفاصيل سياسية واجتماعية وفكرية كثيرة ، مما يمكن أن أقول معه إن «المنار» قد حققت الكثير من نشر الوعى الإسلامى الذى كانت تتمناه «العروة الوثقى» .

وإذا كان الرأى يختلف فى المقارنة بين العروة والمنار ، فما أظنه يختلف فى أن «المنار» كان «لسان حال» الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى حياته وبعد مماته ، فهو ينشر تفسير الشيخ ، وهو ينشر مقالاته ومقالات عنه ، وينشر أخباره ، وينشر لأصدقائه وتلاميذه ، وهو بعد مماته يعنى بالترجمة الواسعة له ، وصاحب المنار يطبع كتب الأستاذ الإمام منذ عهد مبكر ، ويتأثر به فى آرائه وكتاباته ، بل ويترجم بأسلوبه عن آراء الأستاذ الإمام نفسه .

وها هو ذا الأمير شكيب أرسلان يقول : «وكان المنار منذ ظهوره لسان حال المصلح الأكبر الشيخ محمد عبده ، وكان الأستاذ الإمام بكثرة شواغله المتعددة والمتنوعة لايقدر أن يتولى بنفسه إبراز جميع أفكاره إلى القراء ، فكان السيد رشيد رضا هو الترجمان الأول لأفكاره ، لايسمع منه نغية[1] إلا أودعها مناره ، ببيان أنيق وأسلوب رشيق ،

---

(١) النغية : أول الخبر قبل أن تستثبته ، ونغى – كرمى – تكلم بكلام يفهم ، والمادة تدل على كلام طيب ، يقولون : هو يناغى الصبى ، أى يكلمه بما يسره ، ومنه : كلمته فما نغى بحرف ، وناغت المرأة ولدها كلمته بما يجذله ، (انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، وأساس البلاغة ، والقاموس فى مادة : نغى) .

فكأن السيد رشيد كان متمما للشيخ محمد عبده ، يكمل هذا مافات ذاك ، وكأنهما روح واحدة [(١)] » .

ويذكر الأستاذ أحمد محفوظ أن رشيدًا كان ناشر علم الاستاذ الإمام على الناس «وتكاد تكون المنار مجلة يصدرها محمد عبده نفسه» ، ففيها آراؤه فى السياسة والدين والدنيا » ، ويقرر أن رشيدًا قد أفاد من ذلك ، وراجت المجلة بسببه ، «حتى أصبحت أشهر مجلة إسلامية فى العالم العربى» ، وإن كان رشيد قد كسب أيضا خصوما عديدين ، منهم خصوم للإمام ، وخصوم للإسلام ، وظل رشيد يقارع هؤلاء حتى مات [(٢)] .

ورشيد نفسه يعترف بأثر الأستاذ الإمام العميق وفضله الكبير فى ذلك المجال ، ولذلك يقول فى نهاية المجلد الثالث من المنار ، بعد أن ذكر ماوفقه الله إليه :

« والفضل فى هذا كله لنصير العلم والدين ، وحكيم الإسلام والمسلمين ، مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الذى هو مرشدنا الأول إلى هذا المشرب ، ولا نزال نستقى من ينبوعه ، ونقتبس أنوار لقرآن من مجالس تفسيره [(٣)] » .

ويحدثنا رشيد بأنه زار الأستاذ الإمام عقيب هجرته أكثر من مرة ، ثم فاتحه فى إصداره جريدة إصلاحية ، فراجعه الأستاذ الإمام

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٤٦

(٢) حياة حافظ إبراهيم ، ص ٦٠ و ٦١

(٣) المنار ، المجلد ٣ ص ٨٦٤

فى ذلك ، وذكر له أن هم الجرائد الآن هو أخبار الحكومة وما يقال عن الخديو والإنكليز ، وأن المؤيد والمقطم والأهرام تقوم بذلك ، وشرح لرشيد منهج كل جريدة منها ، ثم قال إن الناس لايلتفتون الآن إلى الموضوعات الأدبية ، أو اللغوية إلا القليل منهم ولا غناء لنيهم ، ولما ذكر له رشيد أنه يريد الاشتغال والتمرن على الكتابة فى المسائل الإصلاحية المفيدة ، أجابه الأستاذ الإمام بقوله : يمكنك أن تكتب هذه المباحث فى كتاب فهو أرجى لقراءة الناس له .

وكأن الأستاذ الإمام كان بهذه المراجعة يستثبت من عزيمة رشيد وقوة إرادته ، بدليل أن الشيخ وافق على إصدار المجلة ، وشرط على رشيد الا تتحزب المنار لحزب من الأحزاب ، وألا تدخل فى مجادلات مع الصحف التى قد تذم المنار وقد تنقدها ، وألا تخضع لهوى أحد من الكبراء ، وذكر أنه إذا وثق من مشرب المجلة فإنه يساعدها بكل جهده .

وساعده الأستاذ الإمام فعلا بالرأى والتوجيه والتأييد والترويج[١] .

ويروى لنا رشيد أنه قرأ على الأستاذ الإمام منهاج المنار ، وكان من بين مقاصده «بيان حقوق الأمة على الإمام ، وحقوق الإمام على الأمة» فاقترح الشيخ حذف هذه العبارة ، لأن « الخوض فى السياسة العثمانية فتنة يخشى ضررها ، ولا يرجى نفعها » ونصحه بألا يخلط السياسة بمقاصده الإصلاحية لئلا تفسدها عليه . ويذكر رشيد

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ١٠٠٠ — ١٠٠٧

أن السياسة لم تتركه كما تركها ، بل آذنته بالحرب فأخذ يكشف ظلماتها لأمته [(١)] .

* * *

صدور المنار :

وصدر العدد الأول من مجلة « المنار » فى ٢٢ من شوال سنة ١٣١٥ هـ — ١٥ من مارس سنة ١٨٩٨ م ، وكانت أسبوعية يتألف كل عدد منها من ثمانى صفحات كبيرة ، على صورة الجريدة اليومية .

واختار رشيد لمجلته اسم « المنار » ووافق عليه الأستاذ الإمام . وقد أخذ رشيد هذا الاسم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن للإسلام صوى ومنارا كمنار الطريق » ، ولذلك وضع رشيد هذا الحديث على طرة المنار فى أول صفحة من كل عدد من أعداده ، وهذا الحديث ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » معزوا إلى الحاكم عن أبى هريرة وعليه علامة الصحة .

ولم يفت رشيدا أن يشرح معنى هذا الحديث ، بمناسبة سؤال ورد إليه من الحكومة فى وضع هذا الحديث فى طرة المنار ، فذكر أن الصوى جمع صُوة — بضم الصاد المهملة — بوزن الكوة ، حجر يكون علامة فى الطريق يهتدى به المارة ، وكذلك فى الصحراء ، والمنار والمنارة موضع النور ، والمنار العلم يوضع بين الشيئين من الحدود ، ولذلك جاء فى الحديث : « لعن الله من غير منار الأرض »

---

(١) المنار ، المجلد ١٢ ، ص ٢٠ و ٣ .

أى أعلامها ، والمنار علم الطريق ، ومعنى أن للإسلام منارا هو أن له علامات وشرائع يعرف بها .

ويقول رشيد : «إننا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلا بأن يكون مبينا لصوى الإسلام ، وناصبا لأعلامه ، وموضعا لنور الحقيقة التى يحتاج إليها فى حياتنا الملية والاجتماعية ، والله الموفق والمعين[1] » .

وحرص رشيد على تأكيد أن هدفه من المنار هو الإصلاح الدينى والاجتماعى للأمة الاسلامية ، وبيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام ، وتفنيد مايعزى إليه من الخرافات ، كما حرص فى الوقت نفسه على أن ينفى عن ذاته أنه أنشأ المنار طلبا لثروة أوجاه ، أو مباهاة أو مباراة ، فيقول : «إننى لم أنشىء المنار ابتغاء ثروة أتأثلها ، ولا رتبة من أمير أتجمل بها ، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهى به الأقران ، وأبارى به أعلياء الشأن ، بل لأنه فرض من الفروض يرجى النفع من إقامته ، وتأثم الأمة كلها بتركه .

فلم أكن أبالى بشىء إلا قول الحق ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فكنت إن أصبت هذا بحسب علمى واجتهادى فسيان رضى الناس أم سخطوا[2] » .

---

(١) رجع رشيد فى تفسير الحديث إلى الجامع الصغير للسيوطى ، ولسان العرب لابن منظور ، أنظر المنار ، المجلد ١٠ ص ٦٦٣ .

(٢) المنار المجلد الأول ، ص ٢ الطبعة الثانية .

ويرى رشيد أن «المنار» نجحت فى بيان الأمراض الاجتماعية التى طرأت على الأمة الإسلامية والشرق كله ، والبحث فى أسبابها وعلاجها ، وأن هذا النجاح تحقق خلال وقت قصير ، إذ «لم يمض على المنار إلا أشهر حتى رن صوته فى الآذان ، ولهجت بمواضيعه الألسن ، وظهر لها أثر فى الجرائد» وأن الآلام التى دفعته إلى الكتابة حركت أمثاله من الكتاب فى المشرق والمغرب ، وحملتهم على الكتابة فى الأخطار التى تتهدد الشرق كله والمسلمين بوجه خاص [1] .

ويأخذ رشيد الحيطة لنفسه ولمجلته ، فينص على أن من غرضها الحث على تربية البنات والبنين ، لا الحط فى الأمراء والسلاطين ، والترغيب فى تحصيل العلوم والفنون ، لا الاعتراض على القضاة والقانون . ويؤكد هذه الحيطة حين يقول إن مجلته «عثمانية المشرب ، حميدية اللهجة ، تحامى عن الدولة العلية بحق ، وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق ، وتتحامى المطاعن الشخصية ، والأماديح الشعرية» .

ولا ينسى رشيد نصيب الأدب واللغة فى مجلته ، بل يقول عنها أنها «تنشر محاسن اللغة العربية ، بالتحلى بفرائدها ، واقتناص أوابدها ، وتقييد شواردها ، على سبيل التدرج فى الاستعمال» ، ويصرح بأنها «تقبل النقد الأدبى» وتقابل عليه بالثناء والشكر [2] .

(١) المنار المجلد الأول ، ص ٩٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ و ١٣ .

وبعد أن كانت «المنار» خلال سنتها الأُولى تصدر فى ثمانى صفحات كبيرة كالجرائد تقريبا ، صارت منذ السنة الثانية تصدر أُسبوعية فى شكل المجلة ، أى فى حجم الكتب ذات القطع الكبير ، ووعد رشيد حينئذ بأَن المجلة ستبحث موضوعات التربية والتعليم ، والآثار العلمية والأَدبية ، والأَفاكيه والملح ، والأَخبار التاريخية .

وفى السنة الثالثة ومابعدها كانت تصدر مرتين فى الشهر : فى غرته ، وفى السادس عشر منه ، وكان يكتب على أولها : «مجلة علمية أدبية تهذيبية ملية أخبارية » .

وبعد سنوات صارت تصدر كل شهر عربى مرة ، وكان رشيد يكتب على أولها : «المنار مجلة شهرية تبحث فى فلسفة الدين وشئون الاجتماع والعمران » ، وكانت ظروف رشيد ، وما تعرض له من مضايقات ومعاكسات ، وما قام به من رحلات سببا فى عدم الارتباط الدائم الدقيق بمواعيد صدور المنار .

وكان رشيد يضع على صدر المنار أيضا قوله تعالى : (فَبَشِّر عِبَادِى الذِين يَسْتَمِعُون القولَ فَيتبِعُون أَحْسَنه أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُم الله وأُولئِكَ هُمُ أُولو الأَلْبَاب » وقوله تعالى :(يُؤتِى الحِكْمَةَ مَن يَشَاء ومن يُؤت الحِكْمَة فَقَد أُوتِيَ خَيْرا كَثِيرا وما يذَّكر إلاَّ أُولُو الأَلْبَاب).

وكانت إدارة المنار أولا فى (سراى) محمود باشا سامى البارودى فى باب الخلق بالقاهرة ، ثم انتقلت إلى شارع زين العابدين ، وفى

سنة ١٩١٩ م اشترى رشيد دارا صحية جميلة فى شارع الإنشاء خلف وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، ونقل إليها إدارة المنار [(١)] .

واختار رشيد عبد الحليم أفندى حلمى مديرا لأشغال المنار منذ أول نشأته ، ثم رأى رشيد أن سلوكه لايعجبه فى تصرفات له ، ففصله من عمله [(٢)] .

وقد طبع رشيد المنار فى السنة الأولى وأوائل السنة الثانية فى مطبعة المؤيد ، عند الشيخ على يوسف ، وبدأت صحبة رشيد للشيخ على السبب هذا سنة ١٣١٦ هـ ، ثم اشترى رشيد مطبعة خاصة للمنار ، صار يطبع فيها المجلة ، وغيرها من كتبه ومطبوعاته [(٣)] .

* * *

موضوعات المنار :

وإذا استعرضنا معظم أجزاء المنار نجدها تسير فى موضوعاتها على النحو التالى :

يبدأ الجزء بتفسير القرآن الكريم ، وهو إما مقتبس من دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، أو سائر على طريقته ، ثم تأتى « فتاوى المنار » ، ثم تأتى بعض المقالات الدينية أو الاجتماعية أو التاريخية أو الأدبية ، أو بعض الخطب المهمة لرشيد أو لغيره أو بعض الوثائق السياسية ، ويأتى « باب المراسلة والمناظرة » بعد ذلك .

---

(١) انظر المنار ، المجلد ٣ ص ٦٩ (سنة ١٩٠٠) والسيد رشيد رضا ، ص ٥٢٧ .

(٢) المنار ، المجلد ٣ ص ٢٣٨ .

(٣) المنار ، المجلد ١٦ ص ٩٥١ .

أو باب بعنوان «آثار علمية وأدبية» ويأتي باب «تقريظ المطبوعات»، ثم باب «الأخبار والآراء»، ثم باب «تراجم الأعيان».

ورشيد يكتب أغلب ما في المنار، والعددان الأول والثاني — على سبيل المثال — كتب جميع موادهما رشيد، ماعدا الأخبار، وفي العدد الثالث نجد مقالة للشيخ محمد عبده منقولة عن «العروة الوثقى».

ورشيد لا يوقع مقالاته في المنار باسمه، اللهم إلا افتتاحية المجلد الجديد، وهو يقرر أن كل ما يكتب في المنار دون إمضاء فهو له، ويذكر أن بعضهم كان يذيع أن الأستاذ الإمام هو الذي يكتب أكثر ما في المنار، ولم يرجع عن هذا الظن إلا بعد وفاة الأستاذ الإمام [1].

وكأني برشيد كان يغضب لهذا الظن من جهة، ويفرح به من جهة أخرى، كان يغضب لأنه سوء ظن بقدرته في الكتابة، وكان يفرح لأن هذا فيه معنى التسليم بأن مستوى كتابة رشيد يشبه مستوى كتابة الأستاذ الإمام، ولعل رشيدا أراد أن يلقي على هذا المعنى ضوءا حين نص على أن من كان يذيع ذلك، قد رجع عنه بعد وفاة الأستاذ الإمام، أي بعد أن رأى رشيدا مازال يكتب على المستوى السابق، وقد توفى الأستاذ الإمام، فليس بمعقول أن يكون هو الكاتب لهذ وقد مات!.

وإذا كان رشيد يكتب أكثر ما في «المنار» فليس معنى هذا أن المجلة كانت وقفا على قلمه، بل شارك في الكتابة في «المنار»

---

(١) المنار، المجلد ١٩ ص ٣٠٠.

أعلام الأدباء والشعراء والعلماء ، أمثال : أحمد الاسكندرى ، وحفنى ناصف ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وحافظ إبراهيم ، وعبد المحسن الكاظمى ؛ ومحمد روحى الخالدى ، وعبد القادر المغربى ، ومحمد المهدى ، وحسين وصفى رضا ، وشكيب أرسلان ، وعبد الحميد الزهراوى ، وملك حفنى ناصف (باحثة البادية) ، ومحمد الخضر حسين ، ورفيق العظم ، ومحمد توفيق صدقى ، وعبد الكريم سليمان ، وغيرهم . . .

* * *

ومن الموضوعات التى عنيت المنار بالكلام عنها أكثر من مرة ، موضوع إصلاح الأزهر الشريف ، وتجديد العلم به ، وهداية الدين فيه ، وبيان ما يحتاج إليه الأزهر الشريف فى هذا العصر من العلوم والفنون التى نهض بها الأستاذ الإمام قولا وفعلا ، وأيده فيها رشيد كتابة وحجة ، مع تبرم بعض العلماء بالدعوة إلى هذا الإصلاح ، ولا يتحرج رشيد من التصريح بأن « المنار » كانت متهمة منذ السنة الأولى بأنها تجرىء الجماهير على الطعن فى العلماء الرسميين[1] .

وكتاب رشيد « المنار والأزهر » يعطينا صورة من عنف الخصومة التى كانت بين رشيد وطائفة من علماء الأزهر الشريف ، وقد ظهر هذا الكتاب فى العام الذى توفى فيه رشيد ، ومعنى هذا ان تلك الخصومة قد استمرت إلى آخر حياته .

ومن النواحى التى تذكر لمجلة « المنار » بالتقدير أنها لم تقتصر على البحوث الدينية ، بل نشرت كثيرا من البحوث عن السنن

(١) المنار والأزهر ، ص ٢٠١ و ٢٤٣ .

الكونية ، وعن المسائل الصحية والطبية ، وأكثرها بقلم الدكتور محمد توفيق صدقي الذى كان مدرسا فى مدرسة دار الدعوة والإرشاد ، وكان يلقى هذه البحوث محاضرات فيها[١] .

كذلك مما يذكر للمنار بالتقدير أنها حفظت للناحية الأدبية حقها فى صفحاتها ، فهى تتسع للشعر ، وللنص الأدبى ، وللبحث اللغوى ، وللأثر الفنى البليغ ، وللقصة المأثورة الطريفة ، وقد انتقد بعض القراء ذكر « الأدبيات » فى المنار زاعما أنها مجلة دينية ، لا ينبغى التعرض فيها لغير مسائل الدين ، ولم يستحسن رشيد هذا النقد ، بل رده ، وقال إن الجواب على هذا مكتوب على غلاف المجلة منذ وجدت ، وهو : « مجلة علمية أدبية تهذيبية ملية إخبارية »[٢] .

وما أظن أن هذا هو كل الجواب الذى يستطيع رشيد أن يرد به على مثل هذا الاعتراض ، لأنه يستطيع أن يبين مكانة « الأدبيات » ووثيق علاقتها بالدين ، ولكن لعله أراد أن يرد على المنتقد من أقرب طريق بما يناسب مستوى انتقاده ، وهو قد بنى نقده على أن المجلة « دينية » فقط ، فقال له رشيد : إنها ليست « دينية » فقط ، بل هى « أدبية » كذلك .

ولكن لوحظ على الأسلوب الذى يعبر به رشيد فى « المنار » أنه كان فى بادئ الأمر يتضمن كثيرا من الألفاظ الغريبة والاصطلاحات

(١) انظر على سبيل المثال ، المجلد الثامن عشر من المنار ، ص ١٣٣ و ١٩٢ و ٢٧٣ و ٣٥٣ و ٤٤٣ ، ٥١٣ ، ٥٩٣ ، ٦٧٣ و ٧٦٣ .

(٢) المنار ، المجلد ٧ ص ٩٥٨ .

العلمية ، وقد ظهر هذا بوضوح فى الأعداد الأولى من المنار ، وأشار بعض الأدباء والفضلاء على رشيد بأن يقلل من الغريب ، وأن يختار السهولة فى الأسلوب ، ليتسنى لكل الطبقات أن تفهم مايكتب .

ونفهم من كلام رشيد أنه قد استجاب لتلك الإشارة ، ثم يقول : « ولذلك نرى أن الأعداد الأولى من المنار أرق فى الغالب أسلوبا ، وأكثر غريبا »[1] .

وليس هناك مايدعونا إلى تكذيب رشيد فى أنه استجاب فعلا لتلك الإشارة ، ولكن المؤكد أن أسلوب رشيد فى المنار أخذ يسهل ويتضح بتوالى سنوات المنار ، لأن الجو الصحفى دفع رشيدا دفعا إلى ذلك ، بل إن تعود رشيد التعبير الصحفى « بطول المدة » التى قضاها فى الصحافة والكتابة لها ، قد نال بعض الشئ من جزالة أسلوبه فى البحث الدينى والعلمى ، بل وفى تفسيره للقرآن الكريم حين انفرد بهذا التفسير .

وقد يعود رشيد من حين إلى حين إلى إيراد مفردات غريبة واصطلاحات دقيقة فى كتابته ، وكأنه بهذه المعاودة يقوم « بتمرين عضلاته التعبيرية » ، أو هو يتعمد ذلك تعمدا ، ويتكلفه تكلفا ، كى لايظن ظان أنه قد صار بكتابته ذات الصبغة الصحفية الميسرة بعيدا عن عمق العلماء وجزالة البلغاء .

* * *

ومن الروح الصحفية الطيبة عند رشيد أنه لم يجعل مجلته دائرة مغلقة على قلمه وأقلام أصدقائه ، بل فتح فيها نافذة النقل عن المجلات

(١) المنار المجلد الأول ، ص ٩٥٥ .

فهو ينقل مايستحسن من مختلف الصحف والمجلات ، وكان ينقل عن الصحف العربية والشرقية والأوربية ، وكان ينقل — على سبيل المثال — عن مجلة « المقتطف [1] » وعن صحيفة « المؤيد [2] » .

وكما نقل المنار عن غيره، نقل غيره عنه ، نقل عنه « المؤيد [3] » ونقلت عنه جريدة « الأفكار [4] » وغيرهما .

ومن حسنات رشيد فى مجال الصحافة أنه يرعى أمانة النقل فيذكر المصدر الذى يأخذ منه إذا نقل عنه ، وقد لاحظ أكثر من مرة أن هناك مَنْ ينقل عن « المنار » ، ولايعزو إليها ، وذكر رشيد أن هذا لايوافق حقوق الصحافة والعلم « وأهمها عزو القول إلى قائله ، وإضافة الرأى إلى صاحبه » [5] .

وقد غاظ رشيد أن السيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، ونقيب الأشراف فى مصر ، والشاعر الناثر ، قد طبع كتابا سماه « التعليم والإرشاد » ، ونقل فيه فصولا من المنار دون عزو إليها ، وهذه الفصول هى : أسرار الزكاة — أسرار الصوم — مضار تربية الأولاد بالقسوة . . . إلخ .

---

(١) انظر المنار ، المجلد ٣ ص ٢٠٠ و ٢٣٠ .

(٢) انظر المنار ، المجلد ٣ ص ٢٤٥ .

(٣) انظر المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٥) فى المجلد الثالث من المنار ص ٣٨١ إشارة إلى نقل مؤلف من المنار صفحات كثيرة دون عزو ، وفى ص ٤٠٨ إشارة إلى نقل جريدة الرياض الهندية عن المنار دون عزو .

وعلق رشيد على ذلك بقوله :. « فكيف جاز لرجال الصوفية أن ينتحلوا السرقة والتدليس فى كتاب الإرشاد الذى وضع لهداية أهل الطريق التابعين لهم [١] » .

* * *

على أن رشيدا كان يتوسع أحيانا فى النقل دون موجب ، فإذا كان من المقبول أن ينقل مقالة عن مجلة أو صحيفة لمناسبة داعية أو ضرورة قائمة ، فإنه لم تكن هناك ضرورة لكى ينشر رشيد فى مجلته كثيرا من الأبواب والفصول الموجودة فى كتب كبيرة مشهورة ، فهو مثلا ينقل عشر صفحات كاملة من كتاب « مدارج السالكين » لابن القيم ، وينقل مايقرب من أربعين صفحة من كتاب « الاعتصام » للشاطبى ، [٢] كما نقل صفحات كثيرة من كتابى « دلائل الإعجاز » [٣] و « أسرار البلاغة » للجرجانى .

ونزيد هذه الملاحظة قوة أن هذه الكتب وغيرها ، مما نقل منها رشيد صفحات كثيرة فى المنار ، هى كتب قد تولى رشيد طبعها ونشرها

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ٣٩٧ .

(٢) انظر المجلد ١٧ من المنار ، ص ٩٠٣ — ٩١٢ و — ص ٩١٣ — ٩٥٠ .

(٣) انظر المجلد ٦ ص ٣٤١ — ٣٤٧ و ص ٣٨١ — ٣٨٩ و ص ٤١٨ — ٤٢١ و ص ٤٧١ — ٤٧٥ .

ويبدو أن رشيدا كان ينتفع بما تجمعه وتطبعه مطبعته من «ملازم[1]» هذه الكتب ، فيعيد نشره فى « المنار » قبل تفريق حروفه ، وبذلك يكسب رشيد الإعلان عن الكتاب ، وتوفير جانب من جهد التحرير ، وتوفيرَ جانب من نفقات الطبع .

إن بعض أجزاء « المنار » كان يبدو بسبب ذلك كأنه مجموعة من « الملازم » المأخوذة عن مجموعة من الكتب ، ومن غير العسير أن توزع هذه الملازم لتستقل كل منها مع تصرف ميسور .

ليس هذا هضما لقيمة هذه الأبواب والفصول ، فالحق أن أغلبها من عيون الأدب والعلم والفكر الدينى ، ولكن الصحافة فن يلاحظ توافر التمازج والتماوج والارتباط العام بين المواد .

وعذر رشيد فى هذا التصرف أنه كان داعية وصاحب فكرة ، أكثر مما كان صحفيا يعنيه جذب القراء بوسائل الصحافة المغرية .

ومن شواهد عناية رشيد بالمادة التى تنشر فى المنار ، دون قوة العناية بالشكل الجذاب ، أو المظهر البراق أنه كان فى بيروت ، وكتب إلى أخيه حسين وصى رضا المشرف حينئذ على إصدار المنار ، رسالة بتاريخ ٢٩ من شعبان سنة ١٣٢٦ هـ يقول له : « إذا نقص المنار فلا يضر إصداره فى ٩ ملازم ، ونعوض الملزمة الناقصة فى جزء آخر ، كما تفعل المجلات الأوربية أحيانا » .

---

(١) الملازم : جمع ملزمة ، وهى تطلق عرفا عند أهل الطباعة على كل ست عشرة صفحة من الكتاب أو المجلة .

فهو هنا قد ارتكن إلى مانقله عن تصرف المجلات الأوربية أحيانا ، وأشار على أخيه بتأجيل ملزمة إلى عدد تال ، وحينما يصدر هذا العدد التالى يزيد رشيد هذه الملزمة ، وكأنه يقدم مجلته إلى قرائه على أساس « عدد الملازم » ، لا على أساس مواد وأبواب لابد من تقديمها إلى القراء فى كل عدد .

* * *

المنار والنقد :

من حسنات رشيد فى مجال الصحافة أنه منذ المجلد الأول للمنار لايضيق بالنقد ، بل يطالب به ، وينشره ، ويرد عليه مسلما به ، أو مناقشا له [(١)].

وجرت عادة رشيد فى « المنار » على أن يدعو القراء إلى الانتقاد عليه ، ثم يأتى فى خاتمة كل مجلد من مجلدات المنار فيذكر جملة الانتقادات التى وجهت إليه ، وكذلك الحسنات التى وفق المنار لها ؛ ويذكر الاقتراحات والمقالات المنوية ، وإذا كان لديه شئ من الانتقادات التى لم ينشرها يشير إليها ويعد بنشرها [(٢)].

ونورد فيما يلى نموذجا من انتقاد القراء على مجلة « المنار » ، وتعليقها على هذا الانتقاد . وصاحب هذا النموذج هو الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، الأديب الشاعر العالم ، الذى وُلد فى ٩ من فبراير

---

(١) انظر المنار ، المجلد الأول ، ص ٤٤٧ و ٤٥٥ .

(٢) انظر مجلة المنار ، المجلد الاول ، ص ٩٥٤ والمنار والأزهر ، ص ٢٠٥ . وخواتيم مجلدات المنار .

سنة ١٨٩٢ م . وكان رائدا من رواد الفكر الحر والتجديد فى الشعر العربى ، وزعيم المدرسة الشعرية الحديثة التى خلفها خليل مطران .

وهو صاحب مجلة « أبولو » الشعرية ، ومجلة « أبى » وأصدر طائفة أخرى من المجلات : وله جملة دواوين وقصص شعرية ، ومؤلفات تاريخية وأدبية واجتماعية وعلمية ، وكان قد سافر إلى انجلترا للدراسة الطبية ، وهناك اشترك مع المستشرق مرجليوث فى تكوين « جمعية آداب اللغة العربية بلندن » التى كان من مقاصدها أن تخدم آداب اللغة العربية بجميع الوسائل الممكنة وأن تشجع تعلم العربية الفصحى فى بريطانية ، وأن تنمى الترجمة من العربية وإليها ، وأن تكون واسطة تعارف بين الناطقين بالعربية فى بريطانية ، وبينهم وبين علماء العربية فى جميع أقطارها .

ثم عاد إلى مصر ، ثم ضاق ذرعا بالحياة فيها لكثرة مالاقاه من تطاول أعدائه عليه ، فهاجر إلى أمريكة سنة ١٩٤٦ م ، وظل هناك حتى توفى فى ١٢ من إبريل سنة ١٩٥٥ م [١] .

ولعله يمكن تعليل التفضيل لهذا النموذج بعدة أمور :

أولا : لأنه من قارئ للمنار ، قديم الصلة به ، وهو يطالعه على البعد وهو فى إنجلترة [٢] .

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٥٠ . والمنار ، المجلد ١٩ ص ١٢٣ .

(٢) كتب الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى المنار ، انظر مثلا المجلد ١٦ ص ٤٣٢ والمجلد ١٩ ص ٣١٣ وص ٥٧ .

ثانيا : أن النقد من رجل أديب شاعر ، له بين الأدباء والشعراء مقامه الملحوظ .

ثالثا : أن النقد يتعلق بالمنار : شكلا وموضوعا .

رابعا : أن الدكتور الناقد أثنى على رشيد بالرغم من انتقاده له فى أكثر من أمر .

خامسا : أن صاحب المنار تقبل النقد بصدر رحب ، فنشره وعلق عليه فى تقدير وشكر .

وهذا هو نقد الدكتور أبو شادى والتعليق عليه :

سيدى الأستاذ محرر المنار

اطلعت على دعوتكم إلى نقد المنار ، وعلى فاتحة المجلد التاسع عشر فلم يسعنى إلا تحرير هذا الكتاب لفضيلتكم ، ورائدى الإخلاص ، وتعضيد ما ينفع الناس .

فأما عن نقد المنار فحسبى أن أقول إن المجلة التى كادت تبلغ ربع قرن من حياتها لابد وأن تكون قد جمعت من أسباب الحياة ما فيه الكفاية ، وإن ما ألم بها من العسر المالى الذى يرجع بعضه إلى أزمة الحرب (١) ، ليس غير مجرد مرض عادى ، إذا عولج علاجا ناجعا عادت إلى المجلة نضرتها السابقة .

وعندى أن هذ المرض محصور فى اضطراب إدارة المجلة ، وفى عدم تمشيها مع الزمن بخلاف عادتها فى سالف السنين ، ولبيان ذلك

---

(١) فلنلاحظ أن هذا النقد نشر فى عدد تاريخه ٢٩ من أغسطس سنة ١٩١٦ .

أقول : إن إدارة المجلة على مايظهرلى كثيرة التساهل مع المشتركين ، فإنى لا أتذكر أنى تلقيت أخيرا من حضرة مدير (المنار) طلبا بدفع الاشتراك ، كما هى عادة جميع المجلات الراقية : عربية كانت أو أفرنجية .

وقد كنت أباهى بشدة تدقيقى فى حسابى ، ولكن شواغل الحياة متى تعددت أصابت الإنسان بالنسيان ، وسلبته بعض نظامه مهما يكن يقظا ، فبت لا أدرى بماذا أدين إليكم .

والنفقة التى تنفقونها فى سبيل تذكير كل مشترك مرة فى السنة بموعد تجديد اشتراكه ، لا تساوى شيئا فى جنب الفائدة المادية التى تحصلون عليها ، ولولا أن هذه الطريقة الإدارية ذات نتيجة محسوسة لما استمرت على اتباعها جميع الصحف المعتبرة .

زد على ما تقدم أن المجلة لا ترسل إلىّ « بانتظام » ، وهذا ضار بمصلحتها ، لأنى إذا كنت لا أتردد فى دفع ما تطلبون إلىّ دفعة ، حتى ولو استلمت عددا واحدا فقط منها فى السنة كلها ، معتمدا على جميع بقية الأعداد منكم متى عدت إلى القاهرة ، فلا شك عندى أن كثيرين غيرى يتنصلون من الدفع بهذه الحجة فتكون خسارتكم حينئذ غير قليلة .

هذه نقطة جوهرية يحسن بسيادتكم النظر فيها ، لأن نظام العمل من أقوى الدعائم لنجاحه .

.. مباحث المجلة فى تعريفكم ليست قاصرة[1] على فلسفة الدين ، بل هى تشمل أيضا شئون الاجتماع والعمران ، ولكنكم قلما تطبقون ذلك .

لا أنكر أنكم أحسنتم كثيرا بنشر المقالات الصحية المفيدة التى وضعها الدكتور توفيق صدقى ، كما أن لكم جولات رائعة فى غير مباحث الدين ، ولكنى لا أعرف لكم أبوابا ثابتة فى كل عدد ، سوى باب تفسير القرآن ، بخلاف ما أشاهده فى مثل (المقتطف) أو (رمسيس) أو (الهلال) ، وبخلاف ما أشاهده فى المجلات الدينية المسيحية الراقية التى تصدر بالإنكليزية ، حتى كأن تلك المجلات الدينية تخوض فى كل علم ، وترمى إلى تطبيق العلم على الدين .

ومثل هذا التطبيق فى رأى بعض المفكرين تضليل ، ولكنى لا أرى ذلك إذا كان المطبق مخلصا فى عمله ، لأن رجل الدين متى اعتقد أن العلم هو أحد أركان الدين ، وجب عليه أن يجمع بينهما ، حتى يخلص المعتقدات الدينية من خرافات الجهلاء المدعين ، الذين يتاجرون باسمها ، أو يبنون شهرتهم الكاذبة على حسابها .

وقد لاحظ كثيرون تحاشيكم إيضاح (المنار) بالصور ، حتى رسوم من توفوا من علماء الإسلام ، فعد ذلك دليلا على كره الإسلام للتصوير فى العصر الحاضر أيضا .

وأما عن دار الدعوة والإرشاد التى تقصدون بها تربية أساتذة التهذيب العامة ، ونشر المبادئ الأدبية النافعة ، والقضاء على أباطيل

---

(١) هكذا فى الأصل ، والصواب مقصورة . انظر «أمير البيان شكيب أرسلان» ج ١ ص ٤٥٤

الأولين ، فلا يحاربها رجل بعيد النظر ، حتى ولا من أنكر ذات الخالق ، لأنى إذا قلت إن الطبقة المتعلمة من الأمة قد تجد من تعليمها العالى المبادىء الأدبية الكافية لصيانة أخلاقها ، ولو كانت غير متدينة بدين سماوى فيصعب علىّ جدا أن أتصور جواز هذا الحكم على عامة الناس الذين لا تثمر مبادىء الإلحاد بينهم إلا فوضى أدبية مريعة .

فيجب إذن تعضيد رؤساء الأديان الذين يسيرون بها دائمًا إلى الأمام ، وقصدهم التعليم والتربية ، وإذا عد نفر من الناس أن صلاح العالم هو فى القضاء على الأديان ، فلا أدرى كم بعد مئات من السنين يتحقق هذا الحلم .

فإذ فرضنا أن تحقيقه فى حكم المستطاع – والناس كثيرا ما يختلفون حتى على البديهيات ، وفى خلال كل هذا الزمن يلبث الدين قرين اللغة من مشخصات الأمة ، ومظهرا من مظاهرها – فحرى بكل ذى وطنية صحيحة أن يمعن النظر فى هذه المسألة الحيوية .

هذا وإنى لا أذهب مذهب مكاتبكم الفاضل فى خاتمة المجلد السابق (١) بل لا أشك فى حسن مستقبل الشرق ، ولكل أمة دور من صعود وهبوط . .

---

(١) يشير إلى رسالة تلقاها رشيد من كاتب رمز إلى اسمه بحرف : (م . ن) وفى هذه الرسالة يتألم كاتبها مما أصاب دار الدعوة والإرشاد من ضعف بسبب قلة المال ، وينعى على المسلمين تخاذلهم وإهمالهم نصرة الخير ، وقد نشرها رشيد وعلق عليها . (المنار ، المجلد ١٨ ص ٧٩٣ – ٧٩٧) .

ولا خوف عندى على مثل (المنار) أو (دار الدعوة والإرشاد) ، فلا بد أن يأتى وقت قريب يعطى فيه خليفة الإمام محمد عبد حقه من الإنصاف على ما خدم به الأمم الإسلامية من الإرشاد النافع ، حتى صارت فتاويه مرجع كل مصلح اجتماعى جرىء ، وبات (تفسير المنار) معدودا أعظم تفسير للقرآن الشريف ، لجمعه بين علوم السلف والخلف ، وما تضمنه من خلاصة العلوم الحديثة التى يجب أن تكون هدى المفسر لكتاب يعد قانون الله الذى خلق الكون ودبره .

فما العلوم الطبيعية إلا خلاصة ما وصل إليه العقل الإنسانى فى درس سنن الكائنات بتدقيق وأمانة .

لهذا كانت تفاسير القرآن التى خطها الجاهلون بهذه العلوم أولى بالتلف منها بالصيانة ، فإنها عار للعلم والدين معا .

فاسمح لى إذن يا سيدى الأستاذ أن أهنئكم على استقبال (المنار) لسنة جديدة من سنى حياته المباركة ، راجيا أن تكون فاتحة رقى متواصل له ونجاح ثابت ، ونصرة للفضيلة والآداب .

نادى مستشفى سانت جورج — أحمد زكى أبو شادى

بلندن — طبيب

(المنار) نشرنا رسالتكم برمتها ، وإن كان موضوع باب الانتقاد على المنار خاصا بانتقاد مسائله دون إدارته . ونشكر لكم تهنئتكم وثناءكم وكل ما كتبتموه بمداد الاستقلال والإخلاص .

ولا أنكر ما عرض من الخلل على إدارة المنار ، ولا سيما إهمال التحصيل ، وأذكر من سببه خيانة بعض الوكلاء ، وتركي الإشراف عليها ، وتعدد من تولى أمرها منذ الانقلاب العثماني الذي فتح لي أبواب السفر إلى سورية ثم الآستانة ، ثم الهند ، وعمان ، والعراق ، والاشتغال بمشروع الدعوة والإرشاد ؛ وستعود إلى الانتظام في هذا العام إن شاء الله تعالى .

وأما سبب قلة تنوع موضوعات المنار كتنوع غيره من المجلات فهو أن محرره واحد ، له أعمال كثيرة أخرى ، ومحرروها كثيرون ، ولا يتسع هذا الجزء للخوض معكم في سائر المسائل التي أودعتموها في رسالتكم المفيدة » (١)

* * *

ويلاحظ في النقد السابق جملة أمور :

١ — تحدث الدكتور أبو شادي عن تساهل المنار مع المشتركين فيه ، وتلك علة ظل رشيد يشكو منها مر الشكوى ، ولعل رشيداً رجح نشر هذه الرسالة ليكون فيها نوع من التعريض بالمشتركين الذين لا يسددون قيمة اشتراكهم .

٢ — قرر الدكتور ضمن كلامه أن المنار لا تقتصر في موضوعاتها على البحوث الدينية ، وإن كان قد طالب بالمزيد من العناية بشئون الاجتماع والعمران ، وله الحق في ذلك .

---

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص ١٩٠ — ١٩٢ ، عدد ١٦ من أغسطس سنة ١٩١٦ م .

٣ـ ذكر الدكتور أنه لايعرف فى المنار أبوابا ثابتة سوى باب التفسير ، وهذا غير صحيح ، فهناك أبواب ثابتة ، مثل : فتاوى المنار ، والمراسلة والمناظرة ، وتقريظ المطبوعات ، فهذه أبواب توجد فى أغلب الأجزاء ، ولكن الذى يلاحظ هو عدم التنسيق وضعف الربط بين الأبواب .

٤ ـ أشار الدكتور إلى عدم وجود صور فى المنار ، وهذه ملاحظة شكلية ، لأن العرف جرى على أن المجلة التى تشبه المنار لا تعنى بنشر الصور ، فهناك ماهو أهم منها فى نظر المجلة ، ورشيد لايحرم مثل هذه الصور ـ كما قد يفهم من عبارة الدكتور ـ وقد سبق لرشيد أن تعرض أكثر من مرة لموضوع التصوير فى الإسلام ، وذكر أن الإسلام إنما نهى عن التصوير بصفة تشعر بالتعظيم تعظيما دينيا ، كما هو شأن الوثنيين ومن تبعهم من أهل الكتاب ، وانتقد رشيد العلماء الذين يتركون بدع القبور ، ويشددون فى التصوير واتخاذ الصور ، وإن تكن فيها شائبة التعظيم الدينى .

وقد أبدى رشيد هذا الرأى قبل نقد الدكتور بعشر سنوات [١] . ثم عاد رشيد بعد سنتين تقريبا فذكر أن التصوير المحرم هو تصوير مايعظم أو يعبد [٢] . ثم عاد مرة ثانية بعد أكثر من أربع سنوات فقال : إن التصوير يحرم منه ما كان فيه قصد التعظيم الدينى ، وما كان شعارا دينيا للكفار ، وذهب إلى أن التصوير الشمسى غير محرم مطلقا ،

(١) المنار ، المجلد ٩ ص ١٣٦ عدد ٢٦ مارس (آزار) سنة ١٩٠٦

(٢) المنار ، المجلد ١١ ص ٢٧٨ . عدد ٣٠ مايو (أيار) سنة ١٩٠٨

وقرر أن للتصوير الشمسى وغير الشمسى منافع فى هذا الزمان كثيرة ، فى العلوم كالطب والتشريح والتاريخ الطبيعى ، وفى الصناعات والسياسة والإدارة والحرب ، وفى اللغة ، فإن كثيرا من أسماء النبات والحيوان لاتعرف مسمياتها فى اللغة العربية لعدم تصويرها ، ويرى أن التصوير ركن من أركان الحضارة [1] .

وأعتقد أن رشيدا لو تذكر وهو يعلق على رسالة الدكتور أنه قرر هذا من قبل لأحال الدكتور عليه .

٥ ـ ذكر الدكتور أبو شادى أن السيد محمد رشيد رضا هو خليفة الإمام محمد عبده ، وأنه خدم الأمم الإسلامية بإرشاده النافع وأن فتاويه صارت مرجع كل مصلح اجتماعى جرىء ، وأن تفسيره يعد أعظم تفسير ، لجمعه بين علوم السلف وعلوم الخلف ، وتضمنه خلاصة العلوم الطبيعية التى يجب أن تكون هدى المفسر لكتاب الله تعالى .

وهذا إنصاف جميل من الدكتور وتقدير مشكور .

* * *

ولا شك أن فتح المنار لباب النقد ، وترحيبه به ، ونشره له ، ورده عليه ، مظهر كريم من مظاهر الاعتزاز بحرية الرأى ، وعدم الضيق بمعارضة الفكر ، ويدل على قوة شخصيته ، وثبات مكانته ، وقد ثابر المنار على هذه الخطة .

* * *

---

(١) المنار ، المجلد ١٥ ص ٩٠٤ . عدد ٩ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٢

انتشار المنار :

صدرت مجلة « المنار » وفى المجتمع الإسلامى عطش إلى مزيد من رى الثقافة الإسلامية ، وأصدر هذه المجلة عالم أديب مبين ، وكانت لهذه المجلة صلة معروفة بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بسبب الصلة بين الإمام وصاحب المجلة ، وطرقت هذه المجلة منذ بدايتها موضوعات لها أهميتها ، فساعد هذا وغيره على انتشارها .

ومنذ السنة الأولى لمجلة المنار كان لها مشتركون وقراء فى مصر والشام والهند وسومطرة وغيرها[1] .

ولقد ذكر لنا رشيد فى مقدمة الطبعة الثانية للمجلد الأول من المنار أنه طبع من المجلة فى أول الأمر ألفا وخمسمائة نسخة ، وأرسل أكثرها إلى معارفه فى مصر وسورية ، فأعيد إليه أكثر ما أرسله إلى المصريين ، ثم منعت الحكومة الحميدية ما يرسل إلى السوريين وسائر العثمانيين .

ثم جعل المطبوع ألف نسخة ، وخلال السنوات الثلاث الأول كان المشتركون لايزيدون على ثلث الألف إلا قليلا ، ولكنه صبر ، وفى السنة الخامسة للمنار ـ سنة ١٣٢٠ هـ ـ بدأ رواج المنار واتسع انتشاره ، وأخذ بعض المشتركين يطالبون بما سبق من أعداده ومجموعاته ، فأعاد رشيد طبع المجلد الأول فى سنة ١٣٢٥ هـ ، أى فى السنة العاشرة من عمر المنار ، وتم طبع هذا المجلد سنة ١٣٢٧ هـ ، أى فى السنة الثانية عشرة من عمر المجلة ، وقد جاء تاريخ المقدمة لهذه الطبعة فى ذيلها ، وهو رمضان سنة ١٣٢٧ هـ .

---

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٣١٣

ويصرح رشيد بأن مقالات الأستاذ الإمام : « الإسلام والنصرانية » وغيرها ، كان لها أثر فى انتشار المنار ، حتى إن دخل المجلة زاد على نفقاتها فى سنتها الخامسة[1] .

وفى فاتحة السنة السادسة للمنار يتحدث رشيد عن زيادة المشتركين فيه فيقول : «بلغ المنار بفضل الله وتوفيقه السنة السادسة ، وهذ أول جزء منها ، ولله مزيد الشكر والثناء ، أن أعطانا فوق ما تعلق به الأمل والرجاء ، وزادنا على ما كنا نتوقع من زيادة القراء والمشتركين عددا صالحا يدخل فى عقود المئين ، من غير دعاة ولا مندوبين ، ولا وكلاء مستخدمين ، إلا ترغيب أهل الغيرة الملية ، وتنبيه ذوى الأريحية الإسلامية :

وفى هذه السنة من سنوات المنار أرسل ناظر مدرسة العلوم بعليكره فى الهند رسالة إلى رشيد رضا يقول فيها : إن المنار منتشر فى الهند انتشارا عجيباً ، وإن « مئات » من مقالاته الحكيمة والإسلامية نقلناها فى لغتنا الهندية ، ونشرناها فى جريدتنا الأسبوعية (عليكره السيثيوت كرت) ، ثم تناقلتها الجرائد الإسلامية فقرأها ألوف من قرائنا وقراء سائر الجرائد ، وحازت رضى العلماء والفضلاء فى المدارس والجوامع والمساجد[2] »

وفى ختام السنة السادسة يتحدث رشيد عن نمو المنار ، وزيادة الإقبال عليه ، وأنه يتجدد له فى كل عام مئون من المشتركين ، ويشكر الذين يعاونون ويفون .

---

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص ٣٠٢

(٢) المنار ، المجلد ٦ ص ١٥٩ عدد ١٤ مايو (آيار) سنة ١٩٠٣

ويشير رشيد فى فاتحة السنة المذكورة إلى بعض الأسباب التى عاونت على نمو المنار ومسالمة الناس له ،فيقول : «إن المنار لا ينازع حزبا من الأحزاب فى مشربه ، ولذلك سالمه أصحاب الجرائد السياسية — من وقف نفسه منهم على مدح للأمراء والسلاطين ، ومن وقفها على ذمهم ومن رضى بنفوذ الحكومات الأجنبية فى البلاد التى يسكنها ، ومن سخط عليها .

وسالمه أيضا أصحاب المجلات العلمية والدينية وسالمهم ، إلا من استهواه الغرور فطعن فى أصول الإسلام الاعتدادية أو الأدبية أو العلمية ، فرد المنار طعنه ، وأخرج ضغنه » .

ولكن رشيدا يقرر إلى جوار ذلك أن كثيرين قد ضاقوا ذرعا بمشرب المنار ، لأنه ضد الجمود والتقليد ، فيقول فى فاتحة السنة نفسها : « وجملة القول أن المنار قد جاء بمشرب جديد استعذبه الأقلون ، ومجه الأكثرون : استعذبه من ذاقه فعرفه ، ومجه من جهله فما أنصفه أولئك أسرى التقليد ، ينفرون من كل جديد ، إلا أن يكون بدعة دينية ، ويفرون من كل داع إلا أن يدعو إلى لذة بهيمية » .

وهذا القول من رشيد لا يتعارض مع أن المنار قد انتشر ، لأن الانتشار هنا نسبى ، فإذا كان هناك مئون أو آلاف يطالعون المنار ويعجبون به ، فيهم كثيرون بالنسبة إلى قراء مجلات أخرى ، ولكونهم قليلون جدا بالنسبة إلى آلاف مؤلفة من العرب والمسلمين ، ممن لا يطالعون المنار أو يقدرونه » .

* * *

متاعب المنار :

تعب رشيد في إصدار المنار ماديا ومعنويا ، فهو يجد أمامه أعداء يحاربون فكرة المنار الإصلاحية ، ويضيقون بمشربه التحررى الواعى ، وهو فوق هذا يجد متاعب مادية أغلبها ناشىء من أحوال القراء والمشتركين فى المنار ، ولقد حدثنا رشيد بأنه كان يرسل المجلة إلى المشهورين من القراء فيردونها ، ثم يتفق لهم النظر فيها عند بعض أصحابهم فيطلبونها [١] .

ولكن هذا محتمل ، بل هو فوق هذا شىء يسر ، لأنه يدل على تقدير الناس البصراء للزاد الطيب ، وأما المتعب فهو حال وكلاء المنار المشتركين فيها ، فبعض الوكلاء — كما يذكر رشيد — كانوا يجمعون مبالغ من مال الاشتراك ، ولا يقدمونها إليه ، وقد ذكر مثلين على ذلك ، وطالب بأن يكون وكيل المنار من « أهل الإيمان » [٢] .

ثم يشكو من مطل القراء وعدم وفائهم بقيمة الاشتراك : ويقول : « ويصعب على أحدهم أن يبذل فى السنة جنيها أو نصف جنيه قيمة الاشتراك فى الجريدة أو المجلة التى يعتقد منفعتها ، ويشهد بفائدتها ، فإذا خرج منه شىء لا يخرج إلا نكدا بعد إلحاح فى الطلب ، ومراوغات فى الهرب ، ومنهم من يعتذر بأعذار جديرة بالعظة والاعتبار ، من أغربها معرفة صاحب الجريدة أو ادعاء صحبته .

يقول أحدهم إننى لا أدفع الاشتراك فى هذه الجريدة لأننى عرفت صاحبها ، وصار لى معه صحبة ، فهل يحكم هؤلاء على صاحب الجريدة

---

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٩٥٤

(٢) المنار ، المجلد ٣ ص ٧٠ .

بأن يتخذ نفقا فى الأرض ، فيتوارى به عن الناس لكيلا يعرفوه ، وأن يقابلهم مقابلة سوأى إذا هو رآهم لئلا يصحبوه ، فيكون بذلك جدير بأن يعطى حقه ، ويعان على عمله » .

ويتهكم رشيد فى سخرية لاذعة حين يقول : إن الكبراء لا يدفعون ، لأنهم يرون من حقهم أن يتقرب إليهم بالجريدة مجانا ، وأهل العلم قل منهم من يدفع الاشتراك ، والفقراء ربما يعجزون ، والأصدقاء لا يؤدون ، لأنهم أصدقاء ، فمن ذا الذى يؤديه[1] ؟ ! .

ويفتن رشيد فى تشريح أحوال القراء وتحليل مماطلة المشتركين فى الدفع ، ويصنف هؤلاء أصنافا ، ويجعل لكل صنف خلقا ، فمسلمو روسيا أحسن خلق الله وفاء ، ويليهم أهل جزيرة العرب ، وأسوأهم معاملة مسلمو الهند[2] ، ويليهم أهل الجزائر ، وأهل المغرب الأقصى كالجزائر ، وأهل تونس وسط ، ومصر «أم العجائب» ، وفيها من الماطلين والخائنين والهاضمين الحقوق ، مالا يوجد فى غيرها ، كما أن فيها من الفضلاء وأهل الكرم والوفاء نفرا يعز وجود أمثالهم فى سواها » .

ويقرر أن أحسن الناس وفاء وأطهرهم المهندسون ، وأشد المطل عند أهل البطالة وكتاب الدواوين ، ويكثر المطل فى رجال القضاء وأهل العلم الدينى ، وأما معلمو المدارس فعندهم حرص وضن بالمال .

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٩٢٠ ، عدد ٢٤ فبراير ١٩٠٢

(٢) رشيد لا يقصد تعميم الحكم على أهل البلاد كلهم بطبيعة الحال .

ثم يشير رشيد إلى فريق من الناس يطلبون أن يكونوا وكلاء للمنار أو مكاتبين لها ، وكل همهم هو الحصول على نسخها .

وقد صور رشيد هذه الأحكام فى مقال طريف[1] يدل على ضيقه الشديد بمعاملة كثير من المشتركين له ، وليس معنى هذا أننى أوافق رشيدا على هذه الأحكام ، ولكنى أريد أن أشير إلى طرافة الطريقة التى صور بها أحوال المشتركين ، فتكلم عن كل بلد ، وعن أرباب الوظائف ، وعن العمد ومشايخ البلاد ، وعن الوكلاء والمكاتبين ، وعن المراوغين والمخادعين ، وعن الغشاشين الكذابين ، وعن القادرين المانعين ، والعاجزين المعتذرين . . . . إلخ .

والطريف أيضا هنا أن مجلة « المقتطف » نشرت خلاصة لمقال رشيد عن أحوال المشتركين ، وذكرت أن الفيلسوف سبنسر قام ببحث ظهر له منه أن من يظهرون بخدمة الدين أقل وفاء بالحقوق من غيرهم ، كما ذكرت إحصاء لأصناف المشتركين فى المقتطف والمقطم من جهتى الوفاء والمطل فكانت النتيجة موافقة لنتيجة المنار ، وقالت المقتطف : «وهذه النتيجة تنطبق على نتيجة صاحب المنار » ثم استثنت بعض الحالات التى لاتتفق فيها النتيجتان[2] .

وفى فاتحة السنة السابعة من المنار يعاود رشيد الأنين والشكوى من حال المشتركين ، ويقول فيما يقول : «أرأيت هذا المنار الذى أنشئ لخدمة الأمة والدفاع عن الملة ؛إنه ليطالب الذين ينكرون

---

(١) المنار ، المجلد ٦ ص ٣١٤ — ٣١٧ . عدد ١٢ يولية سنة ١٩٠٣

(٢) المنار ، المجلد ٦ ص ٤٠٠

فائدته ، أو يدعون مضرته ، بأن يبينوا له وجه العذر ليتقيه ووجه النفع لينتحيه.

وإنه لايطالب الذين يقولون إنه نافع ، ولا الذين يقولون إنه أنفع مايكتب للمسلمين في هذا العصر ، بأن يتبرعوا له بمال لتوسيع دائرته ، أو لزيادة مادته ، وإنما يرضى منهم بأداء حقه ، وحقه على جميع قرائه أداء قيمة الاشتراك التي هي قوام العمل وأداته التي لايوجد إلا بها ، وحقه على الخواص منهم الدعوة إليه ، والترغيب فيه »

ثم يشير إلى أن هناك من يملك الألوف وعشرات الألوف من الفدادين والدنانير ، وهو يماطل في دفع قيمة الاشتراك عدة سنين [1] . وفي آخر هذه السنة عاد رشيد إلى الشكوى من عدم وفاء القراء والمشتركين بدفع الاشتراك .

وظل رشيد يعاود الشكوى والتعريض والتلميح ، ثم التصريح أحيانا ، ولكن هذا لم يمنع «المنار» أن تسير وتمضي في طريقها على الرغم من متاعبها ، فقد كان لها ذاكرون وشاكرون ومقدرون وناصرون ، بل كان هناك من يحتفل بمضيها في مراحل عمرها ، فقد أقام إسماعيل بك عاصم المحامي حفلة في داره بالقاهرة لأصحاب المجلات المصرية ومحرريها ، بمناسبة مرور عشر سنوات على صدور المنار ، وكانت هذه الحفلة يوم ٢٢ من شوال سنة ١٣٢٥ هـ — ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٠٧ م .

استجاب لدعوة هذه الحفلة عشرون منهم العربي والفارسي والتركي ، ومنهم المصري والسوري ، ومنهم المسلم والنصراني :القبطي وغير القبطي

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٢

واليهودى ، وألقى إسماعيل بك عاصم خطبة فى التنويه بالمنار وصاحب المنار ، وخطب أيضا الأستاذ يعقوب صروف ، وقال إن المسلمين فى المستقبل سينظرون إلى الشيخ محمد عبده ورشيد رضا نظرة النصارى فى أوربة إلى « لوثر » و « كلفن » .

وخطب سيد محمد صاحب المجلة المدرسية ، وتوفيق عزوز صاحب مجلة « « المفتاح[1] » .

وكذلك كانت روح الأمل لاتفارق رشيدًا على الرغم من هذه المتاعب السابقة ، فنحن نراه فى ختام السنة الحادية عشرة للمنار (وهى سنة ١٩٠٨م) يظهر استبشاره وأمله ، فيقول : « كأن هذه السنة الأولى من العقد الثانى للمجلة ، هى اللؤلؤة الأولى من العقد الأول لها وللملة ، كيف لا وهى سنة حكومة الشورى والدستور ، ومحو آية ليل الظلم بآية العدل والنور ، فيرى القارىء هذا المجلد من المنار طافحا بأخبار الدستور العثمانى ، ومجلس المبعوثان والقانون الأساسى ، وأسباب ما حدث فى الدولة العثمانية من الانقلاب ، وما كان من ضروب الاحتفال ، وذكر سياحة صاحب المنار فى البلاد السورية وبعض ماألقاه فيها من الدروس والخطب الدينية والسياسية ، بعد أن كان ذكر اسم المنار أو صاحب المنار ، يعد من أكبر الأخطار ، حتى كان بعض محبيه يشيرون إليه بلفظ النار » .

* * *

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ٦٨٩ ، ٧١٦

ومضت السنوات والشكوى من حال المشتركين تتردد وتتجدد ، وفى المجلد التاسع عشر كتب رشيد عشر صفحات كاملة من مجلة المنار [١] ، يشكو سوء الحال ، ويثنى على أفراد معدودين : ساعدوا المنار ، أو حسنت صلتهم بها مثل : محمد بن يحيى بن عقيل من سنغافورة وعبد الحميد الزهراوى ، والشيخ أحمد نبهان من سورية والهادى السبعى من تونس ، ومحمد عمر من مصر .

كما يثنى على معاونة الشيخ محمد عبده ومصطفى رياض باشا وحسين باشا عاصم ، ويورد كلمة للشيخ محمد عبده من رسالة كان قد أرسلها وهو قاض فى المنصورة إلى رشيد ، وفيها يقول :

« الناس فى عماية عن النافع ، وفى انكباب على الضار ، فلا تعجب إذا لم يسارعوا بالاشتراك فى المنار ، فإن الرغبة فى المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر بما هو أصلح للآجل ، وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولايزال ذلك الميل فى الأغنياء قليلا ، والفقراءُ لايستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لايضعف الأمل فى نجاح العمل [٢] » .

وعادت السنوات إلى مُضِيِّها متتابعة ، وظلت شكوى رشيد من حال المشتركين متجددة ، ونراه يذكر فى رسالة منه إلى شكيب أرسلان تاريخها ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٣٠ م . أن العسرة قد ضيقت الخناق على الناس ، ثم قال : « وحظنا من هذه العسرة عظيم ، فلا أحد يدفع قيمة الاشتراك فى المنار ، ولا أحد يشترى من كتبه ماله قيمة تذكر ، وأجرة المطبوعات لاتكاد تفى المطبعة ، وإنما ربحنا

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص ٢٩٧ — ٣٠٦

(٢) ذكر رشيد هذه الجملة أيضا فى تاريخ الأستاذ الإمام : ج ١ ص ١٠٢٣

منها ما نطبعه لنفسنا ، وهو لايباع فى هذه الأيام ، وإننى مدين بأكثر من ألف جنيه .

ثم نرى شكيبًا بعد ذلك يقول عن رشيد : «فقد ضاع له عند المشتركين فى المنار أموال لاتحصى »[1] .

ولقد اتسع نطاق الشكوى فى كتابة رشيد حتى يمكن أن يقال إن هذه الشكوى تمثل فصلا كبيرا من فصول أدب رشيد وبيانه .

ويحسن أن نتعرف الأسباب التى دعت إلى أن تكون حالة «المنار» المالية وأحوال المشتركين فيها بهذه الصورة ، ومنها فيما أفهم مايلى :

أولا : عدم خبرة رشيد بالشئون المالية وتنظيمها والسهر عليها .

ثانيا : عدم خبرة الذين استعان بهم من أهله أو معارفه لضبط هذه النواحى المالية فى إدارة المجلة وعلاقاتها بالمشتركين .

ثالثا : انفراد رشيد بإصدار المجلة ، ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهود مجموعة من الأفراد ، لا إلى جهد فرد واحد .

رابعا : كثرة أسفار رشيد ورحلاته جعلته لايواصل الإشراف على المجلة بنفسه ماليا ، وإذا كان قد استطاع وهو فى أسفاره أن يوجه المنار علميا ، ويُصَرِّف شئونها الفكرية والموضوعية عن طريق المراسلات الموصولة ، فإنه لم يستطيع ذلك فى الشئون المالية — أو لم يعن به العناية اللازمة .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص: ٥٦١ و ٥٧٧

خامسا : عدم تذكير القراء بقيمة الاشتراكات فى مواعيد دفعها ، وبالطرق التى تتبعها المجلات المنظمة ، والاكتفاء بكلمات التعريض فى المجلة .

سادسا : ضعف المستوى الخلقى عند كثير من القراء وبعض الوكلاء .

سابعا : عدم فهم الكثيرين من القراء أن المجلة لها اشتراك يجب عليهم دفع قيمته ، حيث كان رشيد يبتدؤهم بإرسال المجلة إليهم ، فيحسبون أنها جاءت على سبيل الإهداء ، مع أن العرف الصحفى حينئذ كان جاريا على أنه إذا أرسلت المجلة ابتداء لشخص فقبلها ولم يردها ، كان معنى هذا أنه قد قبل الاشتراك فيها .

* * *

اضطراب صدور المنار :

من الأمور التى لم توفر لمجلة المنار صفة الاستقرار اضطراب المواعيد المحددة لصدورها ،ومن أمثلة ذلك أن أجزاء السنة الرابعة الاثنى عشر صدرت فى أربعة عشر شهرا ، لأن رشيدا أخر بعضها عامدا كما يقول — ليوافق أول سنة المجلة أول السنة الهجرية الشريفة (١) .

وفى آخر المجلد التاسع ذكر رشيد أن إدارة المجلة قصرت فى إصدارها فى مواعيدها — وهى أوائل الشهور العربية — بسبب انكسار آلة الطبع والتوعك الذى أصاب صاحب المنار .

وجاءت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م فأثرت تأثيرا ظاهرا فى حالة المنار ، كما أثرت فى غيرها ، ونشأ عنها أن راقبت الحكومات

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٩٥٩

جميع المطبوعات ، وحيل بين المنار ودخول المملكة العثمانية ، وغلا سعر الورق ، ولم يف المشتركون بما عليهم ، ومع ذلك قرر رشيد أن يثابر ، وأن يجعل أجزاء المجلة فى السنة عشرة بدلا من اثنى عشر ،[1] وقرر رشيد حينئذ أن تبقى صفحات كل جزء ثمانين صفحة كما كانت ، ولكنه قال إنه إذا طالت الحرب وزاد الضيق فقد يضطر إلى تقليل عدد الصفحات[2] .

وفى آخر المجلد الثامن عشر وفى (نوفمبر سنة ١٩١٥ م) شكا رشيد من قلة الدخل ، وقلة الورق ، وخشية انقطاع وروده وكثرة النفقات ، ووجوب الشراء بالنقد ، ثم . . . ثم « اللازمة » التى أصبحت كالعلة المزمنة عند المنار ، وهى مماطلة الكثيرين فى دفع ماعليهم .

وفى سنة ١٩١٦ م توقفت المنار بضعة شهور إذ لم يستطع رشيد الحصول على ورق لها ، ولذلك صدر المجلد التاسع عشر من المنار فى أنواع مختلفة من الورق ، وقلت صفحات الجزء فصارت أربعا وستين صفحة بدل ثمانين .

وفى سنة ١٩١٩ م انقطعت المنار عن الصدور ، حتى إن المجلد الحادى والعشرين منها — وهو عشرة أجزاء — صدر خلال ثلاثة وعشرين شهرا ، أى مايقرب من سنتين ، وضاع من عمر المجلة سنة كاملة فى زمن الحرب ، ثم ضاعت سنة أخرى فى عهدى الهدنة والصلح ، كما ضاعت سنة ثالثة بسبب رحلة رشيد الثانية إلى سورية[3] .

---

(١) المنار ، المجلد ١٧ ص ٩٦٠ ، نوفمبر سنة ١٩١٤ .

(٢) المنار ، المجلد ١٨ ص ٣٢ ، فبراير ١٩١٥ .

(٣) المنار ، المجلد ٢١ ص ٥٥٨ .

ولكن هذا كله لم يفت فى عضد وشيد ، بل احتمل وصابر ، وحسبه أنه — وهو فرد — استطاع أن يصدر من هذه المجلة مايزيد عن أربعة وثلاثين مجلدا ، وأغلب هذه المجلدات قد صدر كل منها فى نحو ألف صفحة .

* * *

منافسة المنار :

تألقت مجلة المنار منذ سنواتها الأولى ، وشرقت وغربت ، وصار لها بين المسلمين مكانة وشهرة ، وقد دفع هذا التألق الشيخ عبد العزيز جاويش[1] — عليه رحمة الله — إلى منافسة السيد محمد رشيد رضا فى دنيا الصحافة ، فأنشأ مجلة باسم « الهداية الإسلامية » ، وبدأ إصدارها فى شهر المحرم سنة ١٣٢٨ هـ — فبراير سنة ١٩١٠ م .

وجعل الشيخ جاويش هدف هذه المجلة الإصلاح ومحاربة الآفات والخرفات الفاشية ، وجعل أبوابها على الوجه التالى : «أسرار القرآن — اللغة والأدب — شذور علمية — الحوادث والأجيال — العالم الإسلامى — التربية والتعليم — أسئلة وأجوبتها — الأحاديث الموضوعية — المنبر العام » .

---

(١) ولد الشيخ عبد العزيز جاويش بالاسكندرية فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٨٧٦ وتعلم فى الأزهر الشريف وتخرج فى دار العلوم ، وكان من تلامذة الشيخ محمد عبده ، واشتغل بالتدريس والتربية والصحافة والسياسة ، وتوفى فى ٢٥ من يناير سنة ١٩٢٩ . انظر ترجمته فى مصابيح على الطريق : ص ١٠ — ١٥ . وعبد العزيز جاويش لحسن الشيخة ، والإعلام ج ٤ ص ١٤٠ ومصادر الدراسة الأدبية ج ٢ص ٢٥٠ والمنار ، المجلد ٢٩ ص ٧١٢ وتقويم دار العلوم ص ٢٩٠ .

ونلاحظ الشبه الواضح بين هدف المنار وهدف الهداية ، وبين موضوعات المنار وموضوعات الهداية ، مما يجعلنا نشعر بأن صاحب الهداية تأثر بصاحب المنار أو قلده ، ولا شك أن رشيدا أحس بهذا حينما رأى مجلة الهداية ، ومع ذلك قرظها فى المنار وأعلن عن شعارها وموعد صدورها وقيمة الا شتراك فيها ، وقال : « فنرجو للهداية انتشارا أو شيوعا [١] » .

ومن البعيد أن يكون رشيد قد غفل عن روح المنافسة للمنار فى إصدار الهداية ، ولعله كتم ما بنفسه انتظارا لما يأتى به الغد بدليل أن رشيدا صرح فيما بعد بأنه لم يكن مستريحا إلى عمل الشيخ جاويش ، ولا موافقا له فى خطته ومشربه ، فقد قال عنه حين ترجم له : « لكنه لم يقف قلمه على السياسة وحدها ، بل أنشأ مجلة باسم (الهداية) غرضها الإصلاح الدينى كالمنار ، وكان ينشر تفسيرا عصريا للقرآن الكريم ، ويطرق سائر أبواب الإصلاح الإسلامى المدنى ، وكان الفرق بين خطتى المجلتين أن إحداهما كانت أشد التزاما للنصوص ، والأخرى أشد عناية بالمصلحة [٢] » .

إذن — فالهداية — كما يشير رشيد — كالمنار ، لأن غرضها الإصلاح الدينى ، والهداية تنشر تفسيرا عصريا للقرآن الكريم كالمنار ، والهداية تطرق أبوا ب الإصلا ح الإسلامى المدنى أيضا كالمنار .

وما هى إلا سنوات معدودة حتى صرح رشيد بنقده للشيخ جاويش ولمجلته ، فقد كتب عنه يقول : « وقد عهدنا منه فى

(١) المنار ، المجلد ١٣ ص ١٤٢ . مارس ١٩١٠ .
(٢) المنار ، المجلد ٢٩ ص ٧١٤ .

مجلته رد الأحاديث الصحيحة المتفق عليها ، إذا لم يعجبه معناها » . ثم يقول عن جاويش : « فلا هو من أهل العلم بالحديث رواية ولا دراية ، ولا بغير الحديث من علوم الدين ، ولكن له مشاركة فى الفنون العربية وبعض العلوم العصرية ، فتصدى بذلك للتشبه بالمصلحين الذين يجمعون بين الدين والعقل ، فتجرأ على رد الأحاديث الصحيحة بغير علم ، وقوله هو المردود[1] .

والذى يبدوا أن سبب الخلاف الطارئ بين رشيد وجاويش كان بسبب المنافسة الصحفية بين « المنار » و « الهداية » ، ولكن صدور الهداية لم يستمر طويلا ، فوقفت وبقى الخلاف قائما بين الرجلين ، حيث تقاطعا وتنافرا ، وقاوم الشيخ جاويش مشروع دار الدعوة والإرشاد الذى قام به رشيد ، ثم استطاع الأمير شكيب أرسلان أن يصلح بينهما سنة ١٩٢١[2] .

ولما مات الشيخ جاويش أحسن السيد رشيد رثاءه ، وإن كان قد أشار خلال حديثه إلى ما وقع بينهما من خلاف .

ولقد سألت الدكتور طه حسين عن موضوع المنافسة بين رشيد وجاويش ، فقال لى إنه يفضل كتابة جاويش ، لأنه لم يكن متكلفا ، ولأنه درس فى الأزهر ودار العلوم ، ثم درس فى إنجلترا ، فأفاده ذلك سعة فى الأفق .

وذكر الدكتور أن الكراهية بين رشيد وجاويش كانت شديدة ، وأنه ـ أى الدكتور طه ـ كان ينوب أحيانا عن الشيخ جاويش

(١) المنار ، المجلد ١٧ ص ٦٥٧ . أغسطس ١٩١٤
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٢٦٦ و ٢٦٧

فى الإشراف على تحرير مجلة « الهداية الإسلامية » ، ولما نشر رشيد فى المنار – عبارة ثناء من أحد القراء عليه يقول فيها : إن كلام رشيد كأنه من القرآن ثار جاويش ، وشنع كثيرا على رشيد ، وطلب من الدكتور طه أن يكتب مقالا فى ذلك ، فكتب مقالا هاجم فيه رشيدا بشدة .

والصراع الذى دار بين رشيد وجاويش – سواء أكان منافسة أم اختلافا أم تبادلا للنقد والتهم – يحتاج إلى تفصيل واستعراض واسع لتتبع مناحيه ودواعيه ونتائجه ، كما أن المقارنة التفصيلية بين مجلة « المنار » ومجلة « الهداية » موضوع خصب واسع الجنبات ولكنه يحتاج إلى بحث مستقل ، وقد تهيء الأقدار عودة إلى هذين الموضوعين لتناولهما بتفصيل وتحليل .

* * *

وهناك صراع آخر دار بين السيد رشيد رضا والأستاذ محمد فريد وجدى ، ومن أسبابه المنافسة الصحفية ، فقد كان كل منهما يشتغل بالصحافة ، ويجمعهما جامع آخر هو الكتابة فى الأمور الدينية ، ومع أن الصراع بلغ أشده أحيانا بين الرجلين ، نرى رشيدا يشير إلى حق « الزمالة الصحفية » ، ونفهم من إشارته أن هذه الزمالة تستحق – فيما يرى رشيد – الرفق وتجنب الجدل ، فيتحدث عن مقالات نشرها الأستاذ فريد وجدى ، ويقول إنه : « جاء فيها بأمور تعزى إلى الإسلام وهو لا يعرفها ، وفلسفته فيه لا يرضاها » .

ثم يقول : « وكان خطر لنا أن ننتقد تلك المقالات قياما بفريضة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولكن عرض لنا أمور ثنت عزمنا عن ذلك ، منها الرغبة عن انتقاد فريد أفندى لذاته ، ولأنه صاحب مجلة ، ولا نحب أن يكون بين أصحاب المجلات مثل ما بين أصحاب الجرائد من المناقشات التى ، لايؤمن أن تصير من قبيل المراء والمشاغبة[1] »

ويصعب علينا أن نوافق رشيدا فى رأيه هنا ، فما المانع من انتقاد رشيد لوجدى من جهة ذاته ؟ وما المانع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، دون مراء أو مشاغبة ؟ وماذا يصنع رشيد بقول الله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) .

ومن المنافسات التى دارت مع المنار : المنافسة التى كانت بينه وبين مجلة الأزهر ، وقد أدت تلك المنافسة إلى محاورات ومجادلات بين المجلتين ، وكان أشد العلماء حملة على رشيد فى مجلة الأزهر المرحوم الشيخ يوسف الدجوى ، وكان رشيد لا يتحرج من إثارة هؤلاء العلماء فى بعض الأحيان بما لا ضرورة له ، وإن كان يعتقد ذلك لإيمانه بما يقول .

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ـ ص ٣٧٥ .

ومن المسائل التى دارت حولها هذه المجادلات التوسل والكرامة والشفاعة والتصوف والاجتهاد والتجديد للدين ، وإصلاح الأزهر الشريف ، ورشيد يتحدث أكثر من مرة عن العلماء الذين تبرموا بمجلة المنار ودعوتها إلى إصلاح الأزهر ، ويقول فيمايقول عن هؤلاء العلماء الذين خالفوه أو انتقدوه : « وكان جزاءُ المنار على إرشادهم أن سبوه وشتموه فى أول صحيفة رسمية أنشئت للأزهر[1] ».

وقد تكفل كتاب « المنار والأزهر » الذى ألفه رشيد فى أواخر حياته ببيان رأيه ووجهة نظره فى موقفه من الأزهر والأزهريين منه ، ولكن الحكم فى القضية لا يكمل ببنائه على رأى رشيد وحده ، بل لا بد من استعراض موقف الطرف الآخر ، ولا يأتى الحكم على وجهه إلا فى مقام مستقل ،يتسع لمتابعة القضية من بدايتها حتى نهايتها .

* * *

محاربة المنار :

كان صدور مجلة المنار مظهرا من مظاهر حرية الرأى والبحث فى الإصلاح ، ولذلك حرصت الحكومة العثمانية على وضع العقبات فى طريقها ، فكانت المجلة تراقب فى أول الأمر وتفحص ويؤخر تسليمها[2] ، وكان هذا شيئا محتملا .

---

(١) المنار والأزهر ، ص ٢٠١ .

(٢) المنار المجلد الأول ، ص ٣٨٠ .

ثم أصدر والى بيروت « رشيد بك » أمرا إلى « متصرفية طرابلس » بوجوب جمع العدد الثانى من المنار وإعدامه[١] . ولقد ذكر السيد عبد الرحمن عاصم — ابن عم رشيد — أن الحكومة فى عهد السلطان عبد الحميد كانت ترسل عساكرها من وقت لآخر للبحث عن المنار ، أو رسائل صاحبه ، وتجمع ماتجده فى المنزل من كتب وورق ، وتحمله إلى طرابلس ، ولا تعيد منه شيئا ، والراجح أنها كانت تحرقه ، وقبل أن يتم للمنار نصف سنة منعته الحكومة العثمانية من جميع الولايات[٢] .

ولما تكررت مقاومة الحكومة الحميدية للمنار وإيذاء قرائه ، ومنعت دخوله إلى أقطارها منذ سنته الأولى « بإرادة سلطانية » ، احتال رشيد على إدخاله تلك الأقطار ، بإرساله فى البريد الأجنبى ، ومن بلغه المنار قرأه فى خفاء ، ومن ذاع عنه أنه يقرأ المنار صار عرضة للإيذاء والسجن كما حدث للشيخ محمد كامل الرافعى الذى كان يعجب بالمنار ، ويؤيده ويبث أفكاره[٣] .

ولقد عثرت على خطاب بخط رشيد وجهه إلى رئيس الحكومة العثمانية ، يرجوه فيه أن يسعى لدى السلطان لمنع محاربة المنار فى الشام ، وقد أسبغ رشيد فى هذا الخطاب نعوت التعظيم والتفخيم على « الخليفة المعظم والسلطان الأعظم » ثم يقول :

« رفعنا عريضتنا هذه لأعتابكم نسترحم التوسل لنا لدى خليفتنا

---

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٨٨. والمجلد ١٢ ص ٣.وقد ذكر رشيد أن الوالى فعل ذلك مرضاة للشيخ أبى الهدى الصيادى الذى غضب على رشيد لأنه من حزب جمال الدين الأفغانى .

(٢) السيد رشيد رضا ، ٨٠٦ . والمنار ، المجلد ١٢ ص ٣ .

(٣) المنار ، المجلد ٢١ ، ص ٣٢٥ .

وسلطاننا الرحيم بالعفو عن الجريدة ، وإصدار الإرادة السنية بعدم التعرض لها فى ولايات السلطنة ، ونعاهدكم كما عاهدنا الله على الصدق فى الخدمة ، ونشر مايحسن نشره ، والسكوت عما لايناسب ذكره ، وقبول كل أمر وإشارة من دولتكم ، ومن كل مخلص منبهة على المضى فى موضوع ، أو الإغضاء عنه ، حسب المصالح ، ويكل حال الأمر لمن هو الأمر ، أفندم » .

ومع أن رشيدا قد أظهر فى خطابه الاستسلام الواسع الفضفاض الذى قد يتعارض أو يتناقض مع بعض مايكتبه أو يقوله فى المجالات الظاهرة العامة ، لم تقف محاربة الحكومة الحميدية العثمانية للمنار ، بل أخذت تزداد ؛ حتى يخبرنا رشيد فى سنة ١٩١٣ م أن هذه الحكومة تصادر كل كتاب يدخل المملكة العثمانية إذا وجد عليه أو فيه اسم الشيخ محمد عبده . أو اسم المنار ، أو مطبعة المنار ، دع عنك صاحب المنار ، وتمنع أيضا ذكر هذه الأسماء فى الجرائد ، ثم يقول متحدثا عما صنعته الحكومة من قبل :

« ويعلم قراء المنار فى زمن عبد الحميد ، أنه كان ممنوعا من ممالكه ، وأن والدى مات والعسكر يحيط بداره ، وكان أخى فى السجن ، لأن المنار وجد عنده ، وكانت الحكومة تعاقب كل من تعلم أنه يقرأ المنار ، أو يكاتب صاحبه ، والسبب فى ذلك كله وسوسة جواسيس السوء للسلطان عبد الحميد بأننا نريد إقامة خلافة قرشية عربية فى الحجاز أو غير الحجاز ، وكان من هؤلاء الجواسيس مصطفى باشا كامل [١] » .

(١) المنار ، المجلد ١٦ ص ٦٨٨ . والحديث عن الصراع بين رشيد ومصطفى كامل طويل يضيق به هذا المجال .

ويذكر رشيد فيما يذكر من ألوان محاربة صاحب « المنار » أن الشيخ أبا الهدى الصيادى أغرى بعض أعوانه بأسرة رشيد ، فسرقوا منها فرسا ، وضربوا أخا له ، وحاولوا أخذ مسجد الأسرة منهم ، وأغروا جريدة « طرابلس الشام » بالطعن فى المنار ، فاضطر رشيد أن يكتب مقالا بعنوان « مؤاخذة العلماء[1] » . ولكن لما صار « عبد الغنى باشا العابد » واليا على « طرابلس » بعد خروج بدرى باشا » أتيح المجال لنشر المنار هنا وهناك .

ويظهر أن الشيخ الصيادى ظل واقفا لرشيد بالمرصاد مدة طويلة ، وظل رشيد يضيق بمكائده ودسائسه ، حتى يذكر لنا فيما يذكر ، أن عبد الحليم حلمى مراد كان مديرا لأشغال المنار فى أول سنة لها ، ولكنه كان جاسوسا على رشيد ، وسافر إلى الآستانه فاجتمع بأبى الهدى الصيادى وتآمر معه ضد رشيد ، ثم أخذ عبد الحليم هذا من ممدوح باشا ثمانمائة ليرة عثمانية ، بدعوى أنها ثمن لمطبعة المنار ، مع أن المنار لم تكن له يومئذ مطبعة تساوى ثمانمائة قرش كما يعبر رشيد[2] .

هذا ما كان بالنسبة إلى البلاد العثمانية ، وأما ما كان بالنسبة إلى مصر ، فإن الحكومة فيها انتهزت فرصة سفر رشيد إلى سورية عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان استقلال سورية ، ووجهت إلى أخيه الذى ينوب عنه فى إصدار المنار أمرا بعدم نشر شىء فى السياسة ،

---

(١) نشره فى المنار ، المجلد ٢ ص ٣٩ .

(٢) المنار ، المجلد ١٢ ص ٧ .

حتى ولو نشرته صحيفة أخرى غير المنار، بحجة أن المنار مجلة أدبية[١] » .

وقد عثرت على صورة شكوى بخط رشيد وجهها إلى رئيس الوزارة المصرية محمد توفيق باشا ، فى وسط يوليه سنة ١٩٢٠ يعارض هذا الإجراء ، ونصها كما يلى :

« صاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية الأفخم .

بعد التحية المباركة الطيبة » أعرض :

أن أخى الذى يصدر مجلة المنار بمصر فى أثناء غيبتى فى سورية ، قد كتب إلىّ أن حضرة مدير المطبوعات أخبره أنه مأمور بمنع المنار من نشر كل مايتعلق بالسياسة ، وإن نشر فى غيرها من الصحف ، بعلة أنها مجلة أدبية محضة[٢] .

وهذه العلة غير صحيحة ، فإن المنار لم يكن فى وقت من الأوقات مجلة أدبية فقط ، ولا دينية فقط ، بل أنشئ جريدة سياسية أسبوعية ، ثم صار مجلة عمومية ، صفتها التى تطبع تحت اسمها على غلافها وأوراق مكتوباتها : « تبحث فى فلسفة الدين وشئون الاجتماع والعمران »

ودولتكم أعلم الناس بذلك ، إذ كنتم لحسن الحظ من أفضل قرائها منذ إنشائها ، فلا تظلم فى عهد وزارتكم التوفيقية ، فأرجو إصدار

---

(١) ذكر رشيد أيضاً أن حكومة السودان فى سنة ١٩١٤ صادرت مجلة المنار وأحرقت نسخها بلا إنذار ، وكان ذلك فى غيبة الحاكم العام الإنجليزى ، ولما عاد شكا إليه رشيد وطالبه باسم الحرية الدينية «التى امتاز بالعناية باحترامها» كما يعبر رشيد أن ينصفه ، ثم قال رشيد « ولعله يفعل عن قريب » . المنار ، المجلد ١٧ ص ٨٠٠ سبتمبر ١٩١٤ .

(٢) يقال : فضة محض ومحضة ومحوضة أى خالصة (القاموس) .

أمركم لحضرة مدير المطبوعات برفع هذا الحجر . وكف هذا الظلم عنها ، لازلتم موفقين لإقامة العدل ، وتحقيق الحق ، والسلام عليكم .

١٨ يوليه سنة ١٩٢٠

ويبدو رشيد فى رسالته هذه صحفيا بارعا ، ومحاورا يحسن الطلب والدفاع ، فهو أولا : قد عبر عن منفذ الأمر بقوله : « حضرة مدير المطبوعات » ، وكأن رشيدا قد قدر أن رسالته ستمر على مدير المطبوعات فاحتاط وعبر عنه تعبيرا وقورا لايسوءه .

ونراه ثانيا يقول عن « حضرة المدير » إنه أخبر « أنه مأمور بمنع المنار من نشر كل مايتعلق بالسياسة » وكلمة « مأمور » هنا تعاون أيضا على اكتساب مدير المطبوعات فى صف رشيد ، وفى التعبير أيضا حيطة فى تصوير الخبر .

ونراه ثالثا يأتى بالمقارنة العجيبة حين يذكر منع المنار من نشر أى شئ سياسى ويصله بذكر إباحة ذلك لغير المنار من الصحف .

ونراه رابعا يحسن التعبير عن صفة المجلة ، فهو لم ينف عنها أنها « مجلة أدبية » بل ذكر أنها تجمع بين الأدب والدين والسياسة والاجتماع والعمران ، فهى « مجلة عمومية . » .

ونراه خامسا كأنه « يورط » رئيس الوزراء فى المشكلة حيث يذكره بأنه من أفاضل قراء المنار منذ إنشائه ، فلا يليق أن تظلم المجلة فى عهد من اسمه توفيق ولوزارته من معنى اسمه نصيب .

ونراه سادسا يعود فيذكر « حضرة مدير المطبوعات » ، ويرجو إصدار الأمر برفع هذا الحجر ، ويختم بالدعاء لمن وجه إليه الرجاء.

وهكذا استطاع رشيد الأديب الصحفى اليقظ أن يوجز طلبته فى استيفاء وجلاء .

* * *

ولعل ظن رشيد برئيس الوزراء لم يصادف محله المأمول ، أو لعل رئيس الوزراء حينئذ كان محكوما بقوة أعلى منه ، وهى قوة الاحتلال البريطانى ، لأن القوم لم يكفهم منع المنار أن تنشر شيئا يتعلق بالسياسة ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم لم يوافقوا على عودة رشيد من سورية إلى مصر ، وكان رشيد حينئذ قد أدرك من التطورات السياسية المتعلقة بحرية الوطن العربى ، أن مقامه لن يطول فى سورية ، ولن يستقر إن طال ، فأراد أن يعود إلى مصر ، وإلى أسرته ، وإلى مناره ، وإلى مجال نشاطه ، فحيل بينه وبين ذلك .

والوثائق التاريخية الخطية المطوية تعد هنا شيئا له قيمته وأهميته ، وقد وفقت للعثور على رسالتين خطيتين بقلم رشيد رضا ، أولاهما وجهها إلى الجنرال « كليتن » مستشار الداخلية بمصر ، والأخرى إلى محمد توفيق باشا رئيس الوزارة المصرية ، والرسالتان تدوران حول منع رشيد العودة إلى مصر .

وهذا هو نص الرسالة الأولى :

« جناب المحترم الجنرال كليتن مستشار الداخلية بمصر » .

بعد التحية والاحترام ، أعرض أننى كنت طلبت فى أوائل الشهر الماضى من معتمدكم فى دمشق إذنا بالسفر إلى مصر بواسطة[1] الحكومة العربية المحلية ، فوعد جنابه بأن يكتب إلى مصر بطالب الرخصة بذلك .

وقد راجعته الحكومة فى هذه الأيام ، فأجابها بعدم قبول الطلب ، أى أنكم لاتسمحون لى بالعودة إلى أهلى وولدى ومركز عملى الذى عليه مدار معيشتى ، ولا شك فى أن هذا المنع – أو النفى – حكم قاس غير معهود من السياسة الإنكليزية الحكيمة ، التى جرت عليها فى الأجيال الماضية ، فكانت بها قبلة أحرار الأمم ، وإن كانوا خصوما لها فى سياستها .

ولا أعرف لى ذنبا تعلل به هذه العقوبة الشديدة ، وأنا أرى كثيرين من المجاهدين والمستخفين بالمعارضة لسياستكم لم يعاقبوا بمثلها ، بل لم يعاقبوا مطلقا ، وإنما أنا مسلم عربى ، مخلص لدينى ووطنى ، وحر صريح ، أقول ما أعتقده ، وأكتبه إن لم أمنع منه ، لا أراعى فى ذلك غير الحق .

والدليل على ذلك أن ما أنتقده على قومى وأهل دينى أو وطنى أضعاف ما أنتقده على غيرهم ، فإذا وجد فى قولى أو كتابتى مالايرضيكم كما يبلغكم خصومى بحق أو بغير حق ، فإنه يوجد فيه ما لعله من أكبر النفع لكم ، وأعظم الثناء عليكم ، كالمقال الذى نشر أخيراً فى الجزء السابع من المجلد الحادى والعشرين من المنار[2] ، الذى أثبت

---

(١) هكذا فى الأصل ، والصواب أن يقول «بوساطة» انظر أمير البيان شكيب أرسلان ج ١ ص ٤٥٧ .

(٢) انظر المنار ، المجلد ٢١ ص ٣٤١ – ٣٤٤ ، مقال : «عاقبة حرب المدينة الأوروبية» .

فيه أنه يصدق عليكم قول الله تعالى فى القرآن العزيز : « إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

ولو كنت خصماً سياسياً لكم كما تعهدون من خصوم السياسة ، لما كتبت هذه العبارة فيكم ، ولو كنت ممن يخدمونكم بالمكافأة لما رضيت بأقل من مائة ألف جنيه مكافأة عليها ، ولكن لا يوجد أحد يبلغكم عنى مثل هذا ، فأنتم لا تعرفوننى حق المعرفة من كل الوجوه ، وإنما تعرفون أننى مخلص لدينى وقومى ، وأننى لم أتفق معكم فى سياستكم العربية .

وتعرفون أيضاً أن ما اقترحه عليكم فى المسألة العربية إنما كان اجتهادا منى بأن فيه الخير والمصلحة لكم وللعرب ، وأيدته بالحجج التى أظهرت الأيام صدقها ، لا أنه عداء لكم . كيف وهو قريب مما يراه بعض كبراء ساستكم ، كالمستر سكويث وحزبه .

وحججى عليه أوسع من حجج هؤلاء الساسة ، كما فصلته فى تقاريرى إليكم ، ولا سيما التقرير الأخير [1] الذى حملتموه عنى إلى وزيركم الأكبر المستر لويد جورج فى العام الماضى .

فهل يصح أن أعاقب على هذا بالنفى من مصر ، والتفرقة بين أهلى وأولادى ؟ .

وأنا لا أعقل أن يكون سبب هذه العقوبة اعتقادكم أننى خصم لكم تضركم سياسته ، لأن هذا يقتضى أن ترجحوا إقامتى بمصر

---

(١) فى الأصل : «الأخيرة» وهذا من سبق القلم .

تحت سلطتكم ، على إقامتى فى سورية التى يمكننى أن أعمل فيها ما لا يمكننى أن أعمله فى مصر ،

لأن المسألة المصرية أمست غير محتاجة إلى عمل جديد ، يقوم به مثلى والمسألة العربية لا يوجد فى مصر من يشتغل بها كما يوجد هنا ، لذلك أرانى متحيرا فى سبب هذه العقوبة ، ولم يهتد عقلى إلى تعليلها .

أنت تعلم أيها المستشار العاقل الخبير أننى رجل شريف . وحر صريح ، وإننى أؤكد لك ذلك القول بأننى لم أعمل فى هذه البلاد فى هذه المدة التى مكثتها فيها — مضطرا لا مختارا — عملا خفيا يضركم أو يضر حلفاءكم . وأما عملى الظاهر فيعرفه كل أحد ، وهو رياسة المؤتمر السورى التى هى عبارة عن حفظ النظام فيه ، ولم أخطب فيه ولا فى غيره من المجامع والأندية خطبا سياسية ، وقد دعيت إلى ذلك مرارا فأبيت .

نعم إننى كتبت إلى الأمير ابن سعود كتابا نصحت له فيه بأن يتفق مع ملك الحجاز[1] ، وما أظن أنكم تعدون هذا ذنبا لى ، فقد نقلت إلينا التلغرافات عن ساسة عاصمتكم الرغبة فى ذلك ، بل كتب فى بعض جرائدكم — كمجلة الشرق الأدنى — مقال فى وجوب السعى[2] إلى اتفاق جميع أمراء جزيرة العرب ، لأن فيه خدمة الأمن العام ومصالح البشر .

---

(١) ابن سعود هو : عبد العزيز آل سعود ، وملك الحجاز هو الشريف الحسين بن على

(٢) فى الأصل : «فى وجوب فى وجوب السعى» والتكرار جاء سهوا .

هذا وإنى أرجوك رجاء خاصا أن تكتب إلى معتمدكم فى دمشق بالإذن لى فى السفر إلى مصر ، ولك أن تشترط على من ترك الاشتغال بالسياسة فيها ماشئت ، وإذا كان ذنبي عندكم هو الاشتغال بالسياسة فقد كرهتها من تلقاء نفسى ، وصرحت هنالبعض الذين يكثرون مذاكرتى فيها بأننى تركتها وعزمت على صرف ما بقى من حياتى فى العلم والتأليف والإصلاح الدينى وتربية أولادى ، وأنت تعلم أننى أصدق إذا قلت ، وأفى إذا وعدت ، وتقبل فائق احترامى .

٢٥ يوليوسنة ١٩٢٠

وألاحظ فى هذا النص الأدبى التاريخى السياسى ما يلى :

١ – بدأ أسلوب المصانعة من رشيد فى مخاطبة المستشار الإنجليزى حيث وصف السياسة الإنجليزية بأنها « حكيمة » ، وأن انجلترا « قبلة أحرار الأمم » .

٢ – أظهر رشيد مع هذا اعتزازا بالنفس وحرصا على الكرامة حين صارح بأنه مسلم عربى ، مخلص لدينه ووطنه ، وأنه حر صريح .

٣ – اتبع رشيد طريقة المحاورة والمداورة الدالة على ذكاء ودهاء وخلابة فى التعبير ، فهو يذكر أنه قد يقول ما لا يرضى الانجليز ، ثم يصل ذلك بأنه قد يثنى عليهم أعظم الثناء .

٤ – لم أرتض لرشيد رضا أن يقول : إن الإنجليز يصدق عليهم قول الله تعالى : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ * وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) . وهذا تخاذل لم أسترح إليه ، وتأويل بعيد غير حميد .

٥ ـ أراد رشيد أن يبين أنه لا يبتدىء هذا التفسير الآن ، فذكر أنه كتب عنه مقالا فى افتتاحية الجزء السابع من المجلد الحادى والعشرين من مجلة المنار ، وقد رجعت إلى هذا المقال ، وهو بعنوان « عاقبة حرب المدينة الأوربية » وفيه يذهب رشيد ـ مع الأسف مذهبا شططا ، فيثنى على الإنجليز الذين فعلوا بقومه الأفاعيل ، وبعد أن يذكر قوة الإنكليز وتمكنهم من البلاد التى سيطروا عليها من برقة إلى العراق فعمان ، وأن سياستهم أرجح من سياسة غيرهم يقول : « فإن قال قائل : إن كتاب الله قد أثبت أن العاقبة للمتقين ، وقد فسر علماؤنا التقوى بأنها عبارة عن أداء المأمورات وترك المنهيات فهل كان الإنكليز بهذا المعنى ـ هم المتقين ـ ، حتى كانت عاقبة هذه الحرب لهم بنفوذ الكلمة ، وعلو الهمة ، والتصرف فى أرض الله الواسعة ؟ .

نقول : إن قول الله تعالى لا ريب فيه ، وأن كلام العلماء فى تفسير التقوى صحيح ، ولكنه مجمل » .

وبعد أن يقول رشيد هذا يبين أن التقوى لا تقتصر على فعل المأمورات وترك المنهيات الشرعية بل هى أعم من ذلك ، وأن التقوى فى الآية التى استشهد بها تكون فى تصريف شئون الأمم والعمران ، ثم يقول : « والثابت عندنا أن الإنكليز أشد الأقوام عناية باتقاء الخيبة والفشل فى هذه الأمور » ثم يشير إلى أن الألمان أقوى من الإنجليز فى التقوى الحربية ، ولكنه يرى أن الألمان لم يتقوا كالإنجليز اتقاء التنازع الداخلى ، واتقاء سخط الأمم والشعوب عليهم ، وقارن

بين استبداد العثمانيين واستمالة الإنكليز الزعماء والأمراء بضروب الاستمالة ، وبعد أن يضرب أمثلة على ذلك تسوغ تصرفات الإنكليز ، يصفهم بأنهم الشعب « ذو العرق الراسخ فى مكارم الأخلاق ، وبعد الروية وطول الأناة ، وحب العدل والإنصاف » .

وكأن رشيدا أراد أن يخفف من وقع هذا الرأى الناد الشارد فقال :

« فإذا قدر هؤلاء الرجال على مقاومة الأطماع الاستعمارية . ووضعوا لدولتهم سياسة جديدة تتفق مع مصالح مصر والهند والعرب والفرس وسائر الشعوب . ببقائها على مراعاة ما أشرنا إليه من الانقلاب الاجتماعى الأكبر — إذا قدر هؤلاء الفضلاء العقلاء على ما ذكرنا ، وتركوا لهذه الشعوب استقلالها فى إدارة بلادها وسياستها ؛ وحالفوها على أن يكونوا هم المقدمين على جميع أمم المدنية فى مساعدتها العلمية والفنية التى تعزز استقلالها ، وتعمر بلادها ، ورضوا من المكافأة على ذلك بالمنافع الاقتصادية والأدبية التى تكون بالتراضى لا بالقوة الاحتلالية ، فإنهم يؤسسون لشعبهم السكسونى المجيد ، مجدا طريفا إلى مجده التليد ، بحيث يرجى أن يكون خالدا لا يبلى ولا يبيد ، ما لم يرجع عن هذه الطريقة أو يحيد .

وحينئذ تكون له العاقبة الثابتة ، ويسترجع أضعاف ما فقد من ثروته الهالكة ، من غير نفقات كبيرة ، كالنفقات التى لا يزال يتكبدها باحتلال البلاد المغلوبة ، ويكون سببا لإصلاح الكون ، وعمران الأرض .

أكتب هذا بإملاء العقيدة الثابتة ، المؤيدة بالدلائل الاجتماعية الناهضة لا بباعث الأغراض القومية ، أو قصد الإيهامات السياسية ، تاركا تصديقه للزمان ، وتفسيره لحوادث الأيام ، وسنن الله فى الأنام ، لا مبدل لسنته ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لمشيئته » .

وينبغى أن نتذكر أن هذا الكلام نشر فى أول إبريل سنة ١٩٢٠ ، وكان رشيد حينئذ فى سورية ، وأنه طلب العودة إلى مصر فى أوائل شهر يونية من السنة نفسها ، كما ذكر فى أول رسالته ، ويحتمل أن يكون رشيد قد مهد بهذا المقال لتحسين العلاقة بينه وبين المسيطرين على الأمور فى مصر التى يريد العودة إليها ليواصل نشاطه فيها عن طريق مجلة « المنار » وما اتصل بها من رسائل .

٦ ــ لم أسترح كذلك إلى «حديث الأرقام» الذى لجأ إليه رشيد حين تكلم عن تقديره المكافأة التى لو عرضت عليه فى مقابل ثنائه على الإنجليز فى مقاله لما رضى فيها بأقل من مائة ألف جنيه ، وكأنى أشم هنا رائحة مساومة تأتى بعد أوانها .

٧ ــ كأن رشيدًا يريد أن يخطب ود المستشار بصورة أقوى من ذى قبل ، وذلك حين يقول فى خطابه مع المستشار إنه لم يعرفه من كل الوجوه ، ولو عرفه على حقيقته لغير رأيه فيه وموقفه منه .

٨ ــ رد رشيد إلى نفسى بعض راحتها حين صارح المستشار بأنه غير متفق مع الإنجليز فى سياستهم بالنسبة إلى القضية العربية .

٩ ــ نفهم من الرسالة بأن رشيدا لم يقتصر فى اقتراحه بشأن العلاقات بين الإنجليز والعرب على ما ذكره فى الرسالة ، بل هو يصرح بأنه كتب تقارير للمستشار كليتن .

١٠ – تبدو المخادعة الذكية من رشيد للمستشار حين يقول له إن إقامته – أى إقامة رشيد – بمصر تجعله تحت سمع الانجليز وبصرهم بخلاف سورية .

١١ – أكاد أشم رائحة المغالطة حين يذكر رشيد أنه يستطيع أن يعمل فى سورية لخدمة القضية العربية مالا يستطيع أن يعمله فى مصر ؛ إنه فى مصر يجد مجلة ومطبعة ، ووعيا وتحررا ، ومكانة وأنصارا لهم مكانتهم السياسية ، ولا يجد مثل هذا فى سورية .

وليس ببعيد أن يكون رشيد قد أدرك بوادر المصير المحزن الذى ستلقاه سورية على أيدى الفرنسيين ، والاستعمار الفرنسى هو أشد أنواع الاستعمار ، وإن كان الكفر كله أمة واحدة ، والاستعمار بجميع ألوانه مذموم بكل لسان ، ملعون فى كل مقام .

١٢ – عاد رشيد إلى محاولة استدراج المستشار واستمالته ، فوصفه بأنه « عاقل خبير » ، وموقف الرجاء يستدعى مثل هذا .

١٣ – تنصل رشيد من تبعته القومية العامة بعض الشىء حين حاول التهوين من شأن رياسته للمؤتمر السورى ، وحين نفى أنه ألقى خطبا سياسية ، مع أنه أعطى فى مواطن أخرى هذه الرياسة قيمة كبيرة ، كما أعطى رحلته الثانية إلى سورية منزلة عالية .

١٤ – نفهم من الرسالة مدى اطلاع رشيد على السياسة ومتابعته لها ، فهو يشير إلى المجاهدين والمستخفين بالمعارضة للسياسة البريطانية . ويشير إلى سياسة مستر اسكويث وحزبه ، ويكتب تقارير سياسية

منها ما يصلح ــ ولو فى نظره على الأقل ــ أن يقدم إلى رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج ، ويتكلم عن ظروف المسألة المصرية السياسية ، وعن ظروف القضية العربية والخلاف بين ابن سعود وملك الحجاز ، ورأى الساسة الإنجليز فى التوفيق بينهما ..الخ .

١٥ ــ اضطر رشيد أن يرجو المستشار ، وأن يقبل اشتراطه عليه ترك الاشتغال بالسياسة ، ويظهر أن قسوة الظروف والأحداث هى التى جعلت رشيدا يبتدئ بمثل هذا الاقتراح الشديد ، وقد يتصل بهذا أنه يصرح بأنه قد كره السياسة من تلقاء نفسه ، ولكننا لا ندرى إذا كانت هذه الكراهية قد وُجدت بالفعل ، أم أنها مداورة الأيام والأحداث ؟

١٦ ــ يعرض رشيد على المستشار الإنجليزى ما يسمونه « اتفاق الجنتلمان » ، أى اتفاق الرجال الشرفاء للرجال الشرفاء ، فإذا تم الاتفاق بينهم على شئ التزم كل من الطرفين عهده ، ويعبر رشيد عن هذا بقوله : « وأنت تعلم أنى أصدق إذا قلت ، وأوفى إذا وعدت » .

ومهما يكن من أمر فالرسالة صورة من صور أدب رشيد أو بيانه الذى يتجلى فيه وضوح الفكرة ، وسهولة الأسلوب ، وتسلسل الأفكار ، والذكاء فى إبداء الحجة والتماس الغرض .

كما أن لهذه الرسالة صلتها القوية بالناحية الصحفية عند رشيد : ففيها محاورة الصحفى اللوذعى ، ومداورته ودفاعه ، ولطف تأتيه لغرضه ، وهى تتحدث عن رأى سياسى كتب رشيد عنه فى المنار كتابة تثير الفكر ، كما أن لمجلة المنار علاقة بكتابة هذه الرسالة[١] ،

فلولا هذا المنبر القوى الذى يتخذه رشيد فى المنار للجهر بآراء كثيرة سياسية ، لما بدا بهذه الصورة من الخطورة فى نظر الساسة الإنجليز حتى يمنعوه من العودة إلى مصر .

* * *

ومن ذكاء رشيد الذى اكتسبه من الصحافة ، أو شحذته الصحافة : أنه لم يكتف بالرسالة السابقة يوجهها إلى الجنرال الإنجليزى ، بل كتب رسالة أخرى فى الموضوع إلى محمد توفيق باشا رئيس الوزارة المصرية ، يحدثه فيها عن منع مجلة المنار نشر ما كان مباحا لها من أمور السياسة ، ثم ينتقل به إلى موضوع منعه هو من العودة إلى مصر ، وهذا هو نص الرسالة :

« صاحب الدولة محمد توفيق باشا رئيس الوزارة المصرية ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ؛ فقد كنت كتبت إليكم كتابا تكلمت فيه عن مراقبة المطبوعات ، لمنعها مجلة المنار نشرها ماكان مباحا ، كما هو مباح لسائر الصحف .

والآن أشكو إليكم ظلامة لا تعد الظلامة الأولى فى جانبها شيئا ، وهى الحجر على بمنعى من العودة إلى أهلى وولدى ومقر رزقى وعملى (مصر) .وليس هذا من حكومتكم ، بل من السلطة البريطانية المسيطرة عليها .

فقد كنت طلبت فى رمضان [1] الإذن لى بالعودة إلى مصر فلم يقبل ، وعلمت أن المنع من قبل مستشار الداخلية ، وقد كتبت إليه اليوم

---

(١) رمضان سنة ١٣٣٨ هـ .

كتابا أرجوه فيه أن يأذن لى بالعودة إلى أهلى ، على أن يشترط على من ترك الاشتغال بالسياسة ماشاء .

وإنى أرجو من دولتكم أن تبذلوا شيئا من نفوذكم الشخصى المحترم عند هذه السلطة الحكيمة ، بالإذن لى بالعودة إلى أهلى وعملى ، وأن تضمن لها ماشئت على من الأمور السلبية التى تليق بدينى وشرفى .

ولا أجد أولى منك بهذه المنة التى أكل أمر مكافأتك عليها إلى الله تعالى الذى تعلم مايعلم الكثيرون من خدمتى لكتابه ودينه ومن يدين بهما ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

٢٥ يوليو سنة ١٩٢٠

* * *

ألاحظ فى هذه الرسالة مايلى :

١ — ذكّر رشيد رئيس الوزراء المصرية بما سبق أن كتب إليه فيه ، وهو منع الحكومة المنار نشر شىء عن السياسة ، والتذكير يراد به أمران : الأول رجاء الاستجابة ، والآخر التمهيد به لذكر ما يليه ، للتعريض بأن محاربة « المنار » كأنها خطة مرسومة موصولة الحلقات .

٢ — صرح رشيد لرئيس الوزارة المصرية بأن السلطة البريطانية مسيطرة على الحكومة المصرية ، وهذا التصريح وخزة من رشيد ، ولكنه وخزها بلباقة .

٣ — ذكر رشيد أنه قد كتب إلى المستشار يرجوه . ومعنى هذا بلغة الجمهور من الناس أنه قد قام بالواجب نحو سلطة الأسياد فى البلاد .

والعبارة التى استعملها رشيد هنا بارعة فى رجائها واحتيالها لتحقيق غرضها وافية بالأركان والشروط والسنن المطلوبة عرفا عند جمهور الذين يرجون قضاء مصالحهم فى مثل هذا المقام ، ففيها يقول : « وقد كتبت إليه اليوم كتابا أرجوه فيه أن يأذن لى بالعودة إلى أهلى ، على أن يشترط علىّ من ترك الاشتغال بالسياسة ماشاء » .

فرشيد إذن قد كتب إلى المستشار الإنجليزى قبل أن يكتب إلى رئيس الوزارة المصرية ، وهو قد كتب « يرجو » أملا ؛ ولم يكتب ليطلب حقاً . وهو يرجو المستشار أن « يأذن » أى يتفضل بالسماح له بالعودة إلى مصر ، ولكن رشيدًا لم يقل : بالعودة إلى مصر ، بل قال : « بالعودة إلى أهلى » . فكأنه لا يريد حقا جديدً مكتسبا . بل كل الذى يرجوه هو أن « يعود إلى أهله » ، ولحضرة المستشار الحاكم بأمره ، المرجو ، المتفضل بالإذن ، أن يشترط على رشيد ما يشاءُ ، فرشيد « تحت أمره » كما يقول عامة الناس .

٤ — يرجو رشيد من « دولة الباشا الرئيس » أن يبذل شيئاً من نفوذه الشخصى المحترم عند هذه السلطة « الحكيمة » ، وكأنه يريد بهذا أن يؤكد ثناءه على هذه السلطة واحترامه لها ، حتى يبلغ مايريد ، لأنها المستبدة بتصريف الأمور .

٥ ـ ثم سارع رشيد فابتدأ رئيس الوزارة المصرية بأنه يفوضه فى أن يضمن للسلطة الإنجليزية على رشيد ما شاء من الأمور السلبية. وحاول رشيد أن يخفف وقع هذا الاستسلام ، فجعل لهذه الأمور السلبية إطارا ، هو أن تليق بدينه وشرفه .

٦ ـ يلاحظ أن رسالة رشيد إلى رئيس الوزارة المصرية موجزة ، على عكس رسالته إلى المستشار ولعل السبب فى ذلك أنه يفهم أن المستشار هو « سيد الموقف » ومن هنا تكاد تقتصر رسالة رشيد إلى رئيس الوزارة على إخباره بالموقف ، مع رجائه فى بذل شىء من نفوذه الشخصى ، وأما رسالته إلى المستشار ففيها تفصيل للحجج والدلائل على سلامة موقفه .

* * *

وبقيت صفحة مطوية من الموقف ، فإن رشيداً لم يحصل على الإذن بالعودة ، لا من طريق المستشار ، ولا عن طريق رئيس الوزارة المصرية ، فبلغ رشيد مايريد بطريقته الخاصة .

وكيف كان ذلك ؟

فلندع رشيدا يحدثنا بنفسه ؛ لقد كتب بخطه على صورتى الرسالتين تعليقاً يقول فيه : « تعليق : كتبت هذين الكتابين فى ٩ ذى القعدة ، فلم يفيدا شيئاً ، وقد سافرت من دمشق إلى بيروت فى ٨ أو ٩ ذى الحجة سنة ١٣٣٨هـ (٢٣ أغسطس[1]) ، وتمكنت

(١) سنة ١٩٢٠ م .

بمساعدة بعض الأصدقاء فيها من أخذ جواز سفر بإذن رئيس البوليس الفرنسي .

ولكن لم يكتب فى الجواز أننى صاحب المنار ، ولا رئيس المؤتمر السورى ، وقد أرسلت الجواز إلى قنصل إنكلترا فى بيروت فأجازه ، وأذن بالسفر ، فسافرت من بيروت إلى بورسعيد فى ٣٠ أغسطس .

وبعد الوصول إلى القاهرة بأسبوع علم مدير الباسبورط الإنكليزى فلم يصدق حتى طلبنى ورآنى ، وطلب منى الجواز ، وكان يظنه مزورا » .

* * *

وكان هناك نوع آخر من المحاربة لمجلة المنار ، وهى المحاربة باسم الدين ، ومن أمثلة ذلك ما يذكره لنا رشيد من أن حسين رشدى باشا رئيس النظار استدعاه يوم السبت ٢١ جمادى الآخر سنة ١٣٣٢ هـ (مايو ١٩١٤م) ، وأطلعه على مانشرته جريدة « مصر » القبطية من أن رشيدًا يهاجم المسيحية وأهلها .

فرد عليه رشيد بأنه لم يهاجم ، بل بالعكس هو يدافع عن الإسلام ثم ذكر أن جريدة « مصر » دأبت على محاربة « المنار » وصاحبه ، وأنها مغيظة لأن الخديوى زار مدرسة دار الدعوة والإرشاد [1] .

وقبل ذلك بقليل حدثنا رشيد بأن غلاة التعصب من غير المسلمين حاولوا إثارة الوكالة البريطانية والحكومة المصرية بصاحب المنار

---

(١) المنار ، المجلد ١٧ ص ٤٨٠ عدد ٢٤ مايو سنة ١٩١٤ . وانظر عن زيارة الخديوى للمدرسة ص ٤٦١ من المرجع المذكور .

وسجنه ونفيه ، مستغلين فى ذلك الناحية الدينية ، واستعانوا ببعض القسس الأجانب والمصريين ، ونشروا كلاماً ضد صاحب المنار فى الجرائد القبطية ، وكان المدير الأول لذلك يوسف الخازن اللبنانى المحرر فى جريدة « الوطن » القبطية ، وجريدة « دوكير » الفرنسية.

ولكن رشيداً أظهر قلة مبالاة بهم ، وقال فيما قال : « نحن لانبالى بكم »[1].

ولم تكن المحاربة الدينية للمنار بمقصورة على غير المسلمين ، بل شارك فيها بعض المسلمين ، فقد حمى الصراع الجدلى بين رشيد رضا وبعض الشيعة ، حتى صدر فى نقد رشيد وكتبه ومجلته كتاب بعنوان « الشيعة والمنار » ألفه محسن العاملى وأحمد عارف الزين صاحب مجلة « العرفان » وعبد الحسين شرف الدين[2]. ولكن فصل الخطاب فى هذا الموضوع يحتاج إلى استعراض كامل لموقف كل من الطرفين ، وليس ذلك من غرضنا الآن .

* * *

المنار فى سنواته الأخيرة :

كتب رشيد فى رسالة تاريخها ١٤ من رمضان سنة ١٣٤٩هـ - أى قبل وفاته بنحو خمس سنوات - يقول : « ليس للمنار أدنى مساعدة

---

(١) المنار ، المجلد ١٧ ص ٣١٧ ، عدد ٢٧ مارس ١٩١٤

(٣) السنة والشيعة ، ج ٢ ص ٢٦٨

مالية ولا معنوية من طائفة من الطوائف، ولا أهل مذهب من المذاهب، ولا من فرد من الأفراد [1] .

ومع أن هذا الكلام قيل فى موطن الدفاع عن المنار وصاحبه، نحن نفهم منه أن حالة « المنار » سيئة، إذ لا تستطيع مجلة كالمنار، فى مثل هذه الظروف التى كانت فيها، أن تثبت وتستمر دون معونة مالية، أو دون اشتراكات ضخمة كافية، وقد عرفنا أمر الاشتراكات وعرفنا مواقف المشتركين، وليست هناك إعلانات تجارية مربحة، وليست هناك – كما يقول رشيد – أى معونة مالية أو معنوية، فكيف السبيل إلى الاستقرار أو الاستمرار ؟

وتزداد شكوى رشيد بعد ذلك كلما مرت من الزمان مرحلة، حتى نراه يكتب إلى صديقه أمير البيان شكيب أرسلان رسالة تاريخها ١٢ رجب ١٣٥٣هـ – ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٤ م.، أى قبل وفاة رشيد بأقل من سنة، يقول له فيها :

« المنار يغتال معظم السنة فى تحريره وتصحيحه، وإصداره، ومكاتبة المشتركين والمستفتين، وهو منذ عهد الحرب الكبرى لا يأتى بنفقاته، وقد استحل أكثر المشتركين ما عودناهم عليه بسوء إدارتنا من عدهم إياه مجانياً ..

وقد بالغنا منذ اشتدت العسرة فى هذه الأعوام الأخيرة فى استعطافهم بل استجدائهم، بدفع ماتيسر لهم من المستحق عليهم، فلم يرجع أكثرهم

---

(١) السنة والشيعة، ص ١٣٤ . وقد تكرر حديث رشيد عن هذه الناحية فى المنار .

لنا قولا ، ولا اعتذارا ، فعزمت على أن أعلن فى آخر هذا المجلد —وهو ٣٤ — طلب إجازة سنة من القراء لأجل التفسير المختصر [١] » .

وفى مارس سنة ١٩٣٥م — أى قبل وفاة رشيد بنحو أربعة أشهر — كتب إلى شكيب يقول : « إننى الآن فى حشكة [٢] من شواغل آخر سنة المنار للمجلد ٣٤ ، والشروع فى المجلد الخامس والثلاثين ، ولهذا اضطررت لتأخير الموعد ، فدخل المحرم وأنا لم أتم الجزء التاسع من المجلد الذى كان يجب أن يتم العاشر منه فى ذى الحجة .

ولذلك أسباب كادت تحملنى على تعطيل إصدار المنار فى هذا العام ثم صعب علىّ هذا ، وإن كان تسعة أعشار المشتركين ما عادوا يدفعون لنا شيئاً والعشر العاشر أكثره مماطل [٣] » .

وتم المجلد الرابع والثلاثون بعد اللتيا والتى ، ثم صدر من المجلد الخامس والثلاثين جزءان ، وصدر آخرهما دون أن يكمل يوم ٢٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٤هـ ، ووزعت نسخه بعد وفاة رشيد عليه رحمة الله [٤] .

ومما يحتاج إلى المراجعة هنا قول الأستاذ يوسف أسعد داغر عن رشيد : « وأنشأ المنار عام ١٨٩٨م . وواصل ظهورها أربعين سنة [٥] » .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٧٥١

(٢) الحشك : النزع الشديد .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٧٩

(٤) المرجع السابق ، ص ٩ و رشيد رضا الإمام المجاهد ، ص ١٥٢

(٥) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٣٩٧

لأنه إن أراد بالسنوات عدد مجلداتها فهو غير صحيح ، لأن مجلدات المنار أربعة وثلاثون إلى جوارها جزآن من الخامس والثلاثين ، وإن أراد بالسنوات السنوات الزمنية فهذا غير صحيح أيضًا ، لأن معنى هذا أن يكون رشيد قد بقى فى الدنيا بعد وفاته قرابة ثلاث سنوات ، والكاتب يذكر أنه أنشأ المجلة سنة ١٨٩٨م ، فلو أضفنا إلى هذا التاريخ أربعين سنة ؛ لكان معنى هذا أن رشيدا توفى سنة ١٩٣٨ م . مع أنه توفى سنة ١٩٣٥ .

ولقد علمت من الأستاذ عبد السميع البطل تلميذ رشيد رضا أن الذين حضروا مأتم رشيد كانوا يتساءلون : هل يمكن الاستمرار فى إصدار المنار ؟

وقد سئل الشيخ محمد مصطفى المراغى عن ذلك — وقد حضر ، للتعزية فى رشيد بعد وفاته بأيام — فقال : نحن لانجد محررين لمجلة الأزهر ، فكيف بالمنار ؟

ولما سئل الشيخ عبد المجيد سليم عن إصدار المنار قال : يجب الاستمرار فى إصدار المنار .

وقال الشيخ حسين والى حينما سئل عن رأيه : إن استطعتم أن تظفروا بفرد أو جماعة تتمتع بما كان يتمتع به السيد رشيد رضا من العلم والإصلاح والصبر ، وثقة العالم الإسلامى ، والبذل فى سبيل الله ، يمكنكم أن تصدروا المنار . . . .

ومضت سنوات ، وفى سنة ١٩٤٠م . صدر من مجلة « المنار » ، ستة أعداد فقط كانت تتمة للمجلد الخامس والثلاثين ، ثم وقفت

المجلة مرة أخرى بقرار من حكومة حسين سرى باشا سنة ١٩٤٦م . بمناسبة الحرب[1] .

وفى سنة ١٩٤٧م . صدرت مجلة « الشهاب » وجاء فى أول عدد منها المنهج الذى ستسير عليه ويتلخص فى عرض الأحكام الإسلامية عرضاً مبسطاً ، وتقديم الإسلام كنظام اجتماعى ، والدفاع عن عقيدة الإيمان بالله ، والانتصار للروح الإنسانى ؛ ثم يبين المحرر بعد ذلك مدى التأثر فى هذا بمجلة « المنار » فيقول :

« ولقد سبقت مجلة المنار ، التى كان يصدرها الأستاذ الكبير السيد محمد رشيد رضا — رحمه الله — فى هذا المضمار سبقاً بعيداً ، وأسست مدرسة فكرية إسلامية ، تقوم على هذا الإصلاح الإسلامى الجليل ، لازالت آثارها باقية فى نفوس النخبة المستنيرة من رجال الإسلام إلى الآن ، ونافحت عن حقائق هذا الدين ومقاصده أقوى دفاع ، ووقفت للملحدين والإباحيين والجامدين بالمرصاد . مما جعل لها أجمل الأثر فى خدمة الإسلام لهذا العصر ، فى مصر وغيرها من الأقطار » .

ثم أشار إلى مجلة « الشهاب » الجزائرية ، وقيامها بقسط كبير من هذا الجهاد ، ثم رجا أن تقفو « الشهاب » ، المصرية الناشئة أثرهما ، وتجدد شبابهما ، وتعيد فى الناس سيرتهما .

---

(١) مجلة الشهاب ، عدد ١٤ نوفمبر ١٩٤٧ ص ١٠٢ .

ولكن هذا الرجاء لم يصاحبه التحقيق . إذ لم يصدر من هذه المجلة الأخيرة إلا بضعة أعداد ، ثم خلا الجو من المنار ، ومن مجلة تخلفها أو تسير على طريقتها .

وقد يكون من المفيد القيام ببحث مقارن بين مجلة المنار وغيرها من المجلات الإسلامية التي واكبتها في مصر وخارجها ، والمجلات التي ظهرت بعدها وحاولت السير على طريقتها أو انفردت بطريقة أخرى .

ولكني أرى أن مجلة « المنار » كانت أسطع مجلة إسلامية في عهدها ، وأنها أحدثت نهضة صحفية دينية واسعة ، وأوجدت هزة في التفكير الديني كان لها آثار كبيرة وكثيرة ، ولم يخلف هذه المجلة من يسير سيرها ، ويصبر صبرها ، وقد توالت المحاولات لتقليد المنار ومتابعته ، ولكن هذه المحاولات — برغم ما بذل أهلوها من جهود — كانت مبتسرة أو قاصرة ، وأكاد أحس تشابها بين مجلة المنار ومجلة الأزهر خلال المدة التي تولى تحريرها المرحوم محمد فريد وجدى ، حيث كان يكتب في كل عدد منها جملة مقالات . ويتناول موضوعات شبيهة بالموضوعات التي كان يتناولها رشيد ، ولكن هذا التشابه تصاحبه فروق من جهات .

* * *

شهادات رجال للمنار :

هناك كثيرون من الأعلام شهدوا لمجلة المنار ، وأثنوا عليها ، وقدروا جهودها ، نذكر منهم محمد عبده ، ومصطفى رياض باشا ،

وإبراهيم فؤاد المناسترلى ، وعلى يوسف ، وداود بركات ، ومحمود سامى البارودى ، وسعد زغلول ، ومحمد محمود الشنقيطى ، وعمر لطفى [١] .

ومنهم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ أحمد إبراهيم [٢] . ولقد أثنى أمير البيان شكيب أرسلان أكثر من مرة على مجلة « المنار » وله أبيات فى الثناء عليها جاءت خلال رثائه للسيد محمد رشيد رضا ، وفيها يقول :

له المنار الذى كانت تنار به	سفائن القوم فى لج التجاريب
مقلة من أصول الشرع أشرعة	تمشى مع العقل تسيار الأعاجيب
كان المنار لحزب الحق منتصرا	يهديهم بشعاع غير محجوب
غدت به ملة الإسلام حجتها	شهباء فى حازب منها ومحزوب
جميع أجزائه تأتى على نسق	مثل اطراد العوالى بالأنابيب
فيه الفتاوى التى يرضى الجميع	بها فلاترى حاجة فى نفس يعقوب
تجرى بآذان يصغى لقارئها	لحن الدمريجى فى سمع المطاريب
ما بالمنار ضياء غير مقتبس	وليس فيه هلال غير مرقوب [٣]

ويقول الأستاذ ظافر القاسمى مشيرا إلى المنار : « محمد رشيد رضا كان بحق الإمام الأول الذى خلف أكبر دائرة معارف إسلامية ،

---

(١) المنار ، المجلد ٢٥ ص ٤٧١ .

(٢) المنار والأزهر ، ص ٢٥٧ .

(٣) ديوان الأمير شكيب أرسلان — والسيد رشيد رضا ص ٢٨٤ .

لم يترك فيها بحثاً من بحوث العقل والنقل والدين ، إلا وساقه بكثير من التجرد والإنصاف والعمق والفهم [١] » .

* * *

ولقد حدثنى الشيخ نديم الجسر فقال : إنه لم يستطع أحد أن يؤدى عن طريق النشر ما أداه السيد محمد رشيد رضا ، وكان هذا أمرا عظيما فى الذب عن الدين ، والدفاع عنه فى العالم كله : ولم تكن هناك مجلة فى العالم الإسلامى كله تقوم بالواجب الذى كانت تقوم به مجلة المنار فى خدمة الدين والدفاع عنه .

ولما سألت الشيخ عن أعظم أعمال رشيد قال : « إنى أكبر السيد رشيد رضا كل الإكبار ، للمجهود العلمى العظيم الذى بذله فى مجلة « المنار » وأما كتبه الأخرى فلا أراها فى المرتبة العليا التى بلغها رحمه الله فى المنار ، حينما نذر نفسه للدفاع عن الدين ، وقام بهذا العبء فى وقت لم يكن أحد من المسلمين ، يقوم به حق القيام عن طريق الصحافة .

ولما سألته : هل ترون للمنار مدرسة ؟ . أجاب : نعم كان لها مدرسة تتميز بمميزات كثيرة أهمها تنقية الأفكار الإسلامية من البدع والخرافات ، ومن بعض أعمال المتصوفين التى لا تتلاءم مع أحكام الإسلام .

---

(١) جمال الدين القاسمى وعصره ، ص ٤٤٢ .

ولا أكتمكم أن هذا النهج من رشيد مع رجال التصوف ـ وإن كان السيد يعتمد فيه على إخلاص عميق لله ولرسوله ـ كان يقع أحياناً فى تشدد عنيف حين يتناول الصوفية إجمالاً بالنقد فى أول حياته ، مع أن الذى يقرأ كتابه « المنار والأزهر » يجد أنه رحمه الله كان على قدم الصوفية ، وذكر لنفسه أمورا تعد فى باب الكرامات ، فنحن حين نشكر له نقده لأعمال الصوفية الخارجة عن نهج السنة ، كنا نريد منه ألا يكون قاسياً فى نقد الجميع » .

ويظهر أن شدة المنار وصاحبه لم تكن متصورة على الصوفية ، بل كانت تتناول أحياناً الناحيتين السياسية والاجتماعية ، ولذلك نرى المؤيد فى ١٩ من المحرم سنة ١٣٢٠هـ يتحدث عن المنار فيقول : « وفى اعتقادنا أنه لو كان أخف أسلوباً فى الوطأة ، وألين جانباً فى المقال ، من حيث لايحيد منة أو يسرة ، عن خطته الحالية ، لا يضيع شيئاً من غرضه الذى يسعى إليه ، لكان (المنار) أضعاف ما هو اليوم انتشاراً ، وأكثر فائدة ، وأعم عائدة » .

* * *

ولم تكن المنار مقروءة للعرب أو المسلمين وحدهم ، بل كانت معلوماتها تصل غيرهم بطرق مختلفة ، والشاعر محمود سامى البارودى كان ـ على سبيل المثال ـ يطالع المنار لرجل إنجليزى[1] ، وكان المسيو بول تريبيه ، والمسيو جاك لاويفر ، يصدران مجلة بالفرنسية

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٥ .

فى القاهرة ،وقد كتبا فى العدد الثانى منها فصلا عن مجلة المنار ، وعنايتها بالاجتهاد فى الدين وبالإصلاح الإسلامى ، وبتتبعها ما يناسب مشربها مما ينشر فى أوربة وغيرها من بقاع العالم ، وفى صدر هذا الفصل جاءت هذه العبارة :

« أصدر الشيخ محمد رشيد رضا أول عدد من المنار منذ خمسة عشر عاما ، فلم يمض عليه ردح من الزمن حتى رفع مجلته إلى المكانة الرفيعة التى تشغلها بحق وسط العالم الفكرى الاجتماعى ، والعالم الدينى الإسلامى ، بفضل الأفكار الحرة الإصلاحية التى لم يفتر عن نشرها .

وإذا كان الشيخ رشيد التلميذ المخلص الغيور لرجال الإصلاح مثل الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، فقد أخذ على نفسه أن ينشر أفكار وعقيدة هؤلاء المصلحين العظام ، وأن يدافع عنها بكل غيرة وحمية ، مناضلا بكل حزم وعزم التقليد الضيق والخرافات العديدة ، والمحافظة على القديم المحفوفة بالوساوس ، وكل هذه الأمور التى ساءت عاقبتها فأخرت ترقى الأمم الإسلامية وتسلقها مرقاة التقدم [1] » .

* * *

رشيد والصحف الأخرى :

لم يقتصر رشيد على الكتابة فى المنار ، بل كتب فى صحف ومجلات أخرى : كتب فى « الأهرام » كثيرا من المقالات السياسية والعربية ،

---

(١) المنار ، المجلد ١٦ ص ٦١٩ .

وكتب طائفة من المقالات فى صحيفة (الجريدة) التى صدرت فى ٢٤ من المحرم سنة ١٣٢٥ هـ-١٩ من مارس سنة ١٩٠٧ م . وكان رشيد يأخذ عن كل مقالة يكتبها لها ، ثلاثة جنيهات مكافأة عليها ، وكان يكتب المقالة كما يقول فى ساعة واحدة[1] .

وكان رشيد رضا يعجب بصحيفة « الجريدة » وقال عنها : « الصحيفة المصرية التى اتخذت سلطة الأمة نفسها مذهبا لها تراعيه فى انتقادها على الحكومة هى (الجريدة) التى أسسها جماعة من الوجهاء وأهل الرأى ، تنفيذا لما كان دعاهم إليه الأستاذ الإمام فى آخر حياته ، ويعلم الله أن هذا ما كنت أقترحه عليه منذ بضع سنين حتى إننى كنت قد اخترت له المحررين ، ووضعت له الميزانية ، بعد المذاكرة الطويلة معه فى المذهب السياسى وهو سلطة الأمة ، وفى المنهاج الاجتماعى وجله فى انتقاد الأخلاق والعادات[2] » .

وكتب رشيد رضا فى جريدة طرابلس ، ومجلة ثمرات الفنون . وصحيفة الحضارة وغيرها من صحف الآستانة ، والشام . ومصر وكتب فى جريدة المؤيد كثيرا قبل أن تسوء العلاقات بينه وبين الشيخ على يوسف ، وكان أحيانا يكتب فى المؤيد وغيرها مقالات بغير إمضائه الصريح[3] . وكتب مقالات كثيرة فى مجلة الهلال وغيرها .

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ١٠٤ و ١٩٢ ، والمجلد ٢٨ ص ٨ .
(٢) المنار ، المجلد ١٢ ص ٣٩ .
(٣) المنار والأزهر ، ص ٢٠٢ .

ويبدو لى أن السيد رشيد رضا كان ينوى جمع هذه المقالات تمهيدا لنشرها ، بدليل أننى وجدت أوراقا بخطه فيها قوائم بعناوين المقالات التى نشرها فى كثير من الصحف وتواريخها ، ومن أمثلة ذلك قائمة بعنوان « مقالات صاحب المنار فى المؤيد » ، وفيها مايلى :

١ ـ مقالة افتتاحية عنوانها (سعادة الشعب) الخ . عدد ٢٧٠٩ ـ ٢٣ شوال سنة ١٣١٦ هـ ـ مارس سنة ١٨٩٩ م . وفيها مسألة السودان وفى هذا العدد تقريظ المنار بدخوله فى السنة الثانية ؛ فى المحليات .

٢ ـ مقالة افتتاحية عنوانها (تحرير الكلام فى حالة الإسلام) غرة ذى القعدة ١٣١٦ هـ ـ ١٣ مارس ١٨٩٩ م ـ عدد ٢٧٧٥ .

٣ ـ مقالة فى الصفحة الأولى عنوانها (الإصلاح الإسلامى) عدد ٢٧٧٦ ـ ٢ ذى القعدة ١٣١٦ هـ ـ ١٤ مارس .

٤ ـ افتتاحية عنوانها : (الإصلاح والدولة العلية) عدد ٢٧٢١ ـ ٨ ذى القعدة .

٥ ـ مقالة ثانية : (الإصلاح والدولة العلية) عدد ٢٧٢٢ ـ ٩ ذى القعدة .

٦ ـ مقالة : (أركان الإصلاح فى الدولة) عدد ٢٧٢٦ ـ ١٤ ذى القعدة .

٧ ـ افتتاحية : (الدعوة إلى الأديان) عدد ٢٧٢٩ ـ ١٧ ذى القعدة

٨ ـ افتتاحية بعنوان : (المدارس) عدد ٢٧٣٢ـ٢٢ ذى القعدة .

٩ — افتتاحية بعنوان (المحاكم الراقية) عدد ٢٧٣٥ — ٢٥ ذى القعدة .

١٠ — افتتاحية بعنوان : (المحاكم الراقية) عدد ٢٧٣٩ — غرة ذى الحجة .

١١ — افتتاحية بعنوان (قوة الشعب) عدد ٢٧٤٥ .

١٢ — مقالة عنوانها (الغربى فى الشرق) . عدد ٢٧٤٨ — ١٦ ذى الحجة — ٢٦ ابريل .

١٣ — مقالة عنوانها (الشرف الوهمى) . عدد ٢٧٤٨ — ٢٤ ذى الحجة — ٤ مايو .

١٤ — افتتاحية بعنوان (فائدة الاحتلال) . عدد ٢٧٦٤ — ٦ المحرم سنة ١٣١٧ هـ — ١٦ أبريل سنة ١٨٩٩ م .

١٥ — افتتاحية (ما هو الداء) . عدد ٢٧٧٠ — ١٣ المحرم .

١٦ — مقالة بعنوان (إصلاح المحاكم الشرعية[1]) .

١٧ — مقالة عنوانها (الحياة الأدبية) . عدد ٢٧٩١ — ٩ صفر .

١٨ — مقالة (المدح والذم) . عدد ٢٧٩٥ — ١٣ صفر .

١٩ — مقالة (الوطنية) . عدد ٢٨٠٣ — ٢٣ صفر .

٢٠ — افتتاحية (الإقرار بالفصل) . عدد ٢٨٠٥ — ٢٥ صفر .

٢١ — مقالة (السياسة والسياسيون) . عدد ٢٨٠٧ — ٢٧ صفر . وفيها وعد بمقالة أخرى .

---

(١) لم يضع رشيد هنا تاريخ المقالة .

ثم كتب رشيد فى أسفل القائمة هذه العبارة : « كل هذه فى المجلد الأول من سنة ١٨٩٩ م » .

ومن حق الإنسان أن يعجب لرجل من رجال الدين ، وشيخ معمم ، يأخذ طريقه إلى الصحافة اليومية ، والصحافة الأسبوعية ، والصحافة الشهرية ، فيكتب فى كل هذه الألوان ، ولا يقتصر على الكتابة الدينية ، بل يدلى بدلوه فى الكتابة السياسية ، والكتابة القومية ، والكتابة الاجتماعية .... إلخ .

وإن من حق رشيد على أمته ومحبيه أن يتتبعوا هذه المقالات الكثيرة ويجمعوها ويصنفوها وينشروها .

* * *

اقتراحى بشأن المنار :

لقد كان السيد محمد رشيد رضا — عليه رحمة الله — ينظر إلى مجلة « المنار » كأنها كائن حى يسعى بين الناس ، أو كأنه ولد له يراقب مراحل نموه وتطوره وخطواته فى مسالك الحياة ، ونحن نراه فى آخر المجلد العاشر من المنار يقول : « صدق على المنار ما قلناه فيه منذ ثلاث سنين أنه قد دخل فى سن التمييز [١] » .

وكان يرى أن الله قد أعده لإنشاء المنار بما هيأ له من أسباب ذلك فى نشأته وتربيته وتعليمه وتصوفه ، وكأن المنار خلاصة حياته وجهوده [٢]

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ٩٥٨ .

(٢) المنار والأزهر ، ص ١٩٠٤ .

كما كان يعد « المنار » المستودع الأكبر الذى كان يودعه كل آرائه وأفكاره .

وإنى أقترح ما يلى بشأن هذه المجلة الإسلامية الجليلة :

أولا : جمع فتاوى المنار ، وطبعها على حدة ، فهى بهذا تصير مرجعا جليلا للإفتاء والاستنباء .

ثانيا : جمع ما كتبه رشيد فى المنار ، عن رحلاته إلى الآستانة وسورية والحجاز وأوربة والهند وغيرها ، وطبعه ، ففى كتابته عن هذه الرحلات فوائد أدبية وتاريخية واجتماعية كثيرة .

ثالثا : جمع ما كتبه من التراجم والحديث عن الأعلام والأعيان وطبعه .

رابعا : جمع ما كتبه عن الحسين بن على ملك الحجاز ، وكذلك عن ابنه فيصل بن الحسين ، وطبع ذلك .

خامسا : لرشيد فى المنار فصول كثيرة ومسهبة عن الغزالى تصلح لملء كتاب ضخم ، ولذلك أقترح جمع هذه الفصول وطبعها .

سادسا : جمع ما نشره رشيد من كتابه (الحكمة الشرعية) وطبعه ، ما دمنا لا نجد أصل الكتاب كله .

سابعا : جمع ما كتبه رشيد عن الأدب والأدباء ، والشعر والشعراء وطبعه .

ثامنا : يمكن استخلاص دراسات واسعة عن موضوعات مهمة جدا مما نشر عن هذه الموضوعات فى مجلدات المنار ، مثل : القرآن الكريم

ـ النبي صلى الله عليه وسلم ـ الإسلام وأهله ـ العروبة والعرب ـ اللغة العربية ـ الترك والعثمانية ـ الأمة ـ القومية ـ المسيحية ـ اليهودية ـ التصوف ـ التربية ـ الأزهر الشريف ـ الجمعيات ـ الخطابة ـ المؤلفات والمطبوعات . . . الخ .

ولذلك أدعو من يعنى بمثل هذه الموضوعات إلى تتبع ما كتبه رشيد أو نشره عنها فى مجلة المنار .

تاسعا : أقترح وضع فهرس تفصيلى شامل لجميع مجلدات المنار حتى يتيسر الانتفاع بما فى هذه المجلدات ، وأعتقد أن كل من عنده مجموعة من مجلدات المنار سيحرص كل الحرص على أن يكون عنده هذا الفهرس الشامل .

عاشرا : أقترح أن يعكف أحد الباحثين على كتابة بحث ضخم أو رسالة للدكتوراه عن مجلة « المنار » وأثرها فى الفكر الإسلامى ، وفى المجتمعين العربى والإسلامى ، وفى الأدبين العربى والإسلامى .

* * *

ولابد لى أن أشير فى آخر هذا الفصل إلى أن ما كتبته هنا عن مجلة « المنار » إنما هو قطرة من بحر بالنسبة لما يمكن أن يقال لو كان الهدف هو تناول المجلة وحدها بالبحث والتحليل فى مجال مستقل خاص .

* * *

تفسير المنار

تفسير المنار

الاتجاه إلى التفسير :

لا يعرف فى تاريخ الدنيا كلها كتاب وُضعت عليه من التفاسير ما وضع على القرآن الكريم ، فالمكتبتان العربية والإسلامية تضمان مئات من التفاسير التى تتناول الحديث عن كتاب الله عز وجل من جهات مختلفة وبأساليب متعددة ، وطرق شتى .

ولقد ذكرت من قبل أن مجلة « المنار » هى أضخم آثار السيد رشيد رضا ، ويأتى بعد هذه المجلة « تفسير المنار » الذى صنعه رشيد وشهر به ، وكان موضع العناية والتقدير من كثير[1] ، ولقد ألقى المستشرق الفرنسى « هنرى لاووست » محاضرات استغرقت أربعة أشهر عن « تفسير المنار » فى « جامعة الكوليج دى فرانس » فى باريس خلال العام الدراسى ١٩٥٧–١٩٥٨ م[2] . كما عنى به « جولد زيهر » فى كتابه « مذاهب التفسير الإسلامى » الذى ترجمه المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار ، وعنى به « تشالز آدمز » فى كتابه « الإسلام والتجديد فى مصر » الذى ترجمه الأستاذ عباس محمود وغيرهم . كما كتب الأستاذ عبد الله محمود شحاته « رسالة ماجستير » عن منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، كما تعرضت لهذا

---

(١) يقول الأستاذ يوسف أسعد داغر عن تفسير المنار : «وتفسيره ، هذا هو أعظم آثاره وأنفسها ، ولعله خير تفسير طبع على الإطلاق (مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٣٩٦) .

(٢) جمال الدين القاسمى وعصره ، ص ٤٤٣ .

التفسير فى مواطن من كتابى « قصة التفسير » ، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان « تفسير المنار » أكثر من مرة فى كتابه الذى جمع فيه رسائل رشيد رضا إليه ، وكتب الدكتور إبراهيم أحمد العدوى صفحات عن هذا التفسير فى كتابه عن رشيد رضا . . . إلخ .

ولقد نشر رشيد « تفسير المنار » فصولا ومقالات فى مجلة « المنار » ثم عاد فطبع هذا التفسير فى اثنى عشر جزءا وصل فيها إلى أواخر سورة يوسف ، ويقص علينا رشيد فى فاتحة الجزء الأول المقدمات التى مهدت لاصدار التفسير ، فيذكر لنا أنه كان فى طرابلس الشام ، وفى أثناء طلبه العلم ، مشتغلا بالعبادة ميالا إلى التصوف ، وكان يعظ قومه بالقرآن الكريم ، ثم ظفر بالأعداد التى صدرت من جريدة « العروة الوثقى » فأثرت فيه ، وأعجب بمنهجها القائم على ثلاثة أمور هى : بيان سنن الله تعالى فى الخلق ، وأن الإسلام دين سيادة وسلطان ، وأن المسلمين لا يجوز أن يفرقهم نسب ولا لغة ولا حكومة .

وأعجب رشيد بصاحبى العروة : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وحاول الاتصال بأولهما ، ولكنه لم يلقه ، فحاول الاتصال بثانيهما فتم له ما أراد ، وفى رجب سنة ١٣١٥ هـ ، تهيأت له فرصة الهجرة إلى مصر ، وارتبط بالشيخ محمد عبده ، واقترح عليه — قبل صدور المنار — أن يكتب تفسيرا ، أو يلقى درسا فى التفسير ، ولكن الشيخ تأنى ، ثم أصدر رشيد مجلة المنار للدعوة إلى الإصلاح ، واقترح على الشيخ مرة ثانية أن يفسر القرآن الكريم ، فتأنى الشيخ مرة ثانية ، فاقترح عليه رشيد أن يقرأ درسا فى التفسير فى الجامع

الأزهر الشريف ، وكان هذا الاقتراح فى شعبان سنة ١٣١٥ هـ ، ثم كرر رشيد الاقتراح فى رمضان من السنة نفسها ، ولكن الشيخ عاد إلى تأنيه .

ثم دارت بينهما مناقشة انتهت بإقناع الشيخ بأن يبدأ فى الدرس فبدأه فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ ، بعد أن كان رشيد قد حمل هذه البشرى إلى الناس قبل ذلك بأيام ، عن طريق جريدة « المؤيد » حيث كتب فيها مقالا عن « القرآن » ضمنه هذا البند .

واستمر الشيخ فى تفسيره حتى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ هـ ، حيث بلغ قول الله تعالى : (وللهِ مَافِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطاً) الآية رقم ١٢٥ من سورة النساء[١] ، وعاود رشيد خلال ذلك اقتراحه على الأستاذ الإمام أن يؤلف تفسيرا على الوجه الذى يلقيه ، فإنه مبين لأمراض الأمم الروحية والاجتماعية ومرشد إلى علاجها ، لأن القرآن فيه تبيان كل شىء ، وشارك رشيدا فى هذا الاقتراح كثيرون ممن يحضرون دروس التفسير ، ويقال إن الأستاذ الإمام رد على رشيد بقوله : إن الكلمة المسموعة أقوى تأثيرا من الكلمة المكتوبة[٢] .

وينبغى أن نشير هنا إلى أنه حدث فى سنة ١٨٩٢ م أن كانت تعقد جلسات تفسير فى قصر القبة ، وندب لإلقائها الشيخ أحمد الرفاعى ، فظل أياما يتابع دروسه ، ويقول المؤرخ أحمد شفيق باشا

---

(١) انظر تفسير المنار ، ج ٥ ص ٤٤١ الطبعة الثانية .

(٢) تفسير المنار ، ١ ص ١٠ — ١٦ . والمنار المجلد ٣ ص ٦٧ والمجلد ٨ ص ٨٩٧ وكتاب دروس من القرآن الكريم ، ص ٨

إنه كان كثير الإسهاب فى إيراد أقوال المفسرين وإيراد بعض الآراء والروايات الغريبة ، وفى ذات يوم تحدث عن (إرم ذات العماد) فذكر أنها « مدينة شيدت طوبة من الذهب وأخرى من الفضة ، وأنها معلقة بين السماء والأرض ، ثم توسع فى ذلك ، وعرض إلى علم الفلك بأسلوب يثير الإشفاق والضحك » وقد جاء وأبدله بالشيخ الشربينى [١] .

ومن هنا سنعرف مدى الفرق الشاسع بين طريقة التفسير فى عصر الشيخ محمد عبده — وهو عصر رشيد رضا — والطريقة التى سار عليها تفسير المنار ، فقد كان تفسير المنار يهدف إلى العناية بتجليه هداية القرآن للناس وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير ، والتوجيه والإصلاح ، مع مراعاة مقتضى العصر من سهولة التعبير ، وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها .

طريقة النقل عن الأستاذ الامام :

وقد أخذ رشيد يكتب تفسير الأستاذ الإمام وينشره فى مجلته ابتداء من الجزء السادس من المجلد الثالث من المنار ، (٣٠ إبريل سنة ١٩٠٠ م) ، ونشر أولا مقدمة للتفسير ، وهى ما ألقاه الشيخ وأملاه فى الدرس الأول فى ليلة الخميس غرة المحرم الحرام سنة ١٣١٧ هـ [٢] .

(١) مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ص ٢٨

(٢) المنار ، المجلد ٣ ص ١٣٠

ويقول رشيد فى تصوير طريقته في النقل عن الأُستاذ الإمام :
« كنت في البداية لا أكاد أزيد على خلاصة مايقرر فى الدرس إلا قليلا ، إذ لم يكن فى نيتى تجريا ما يكتب منه فى المنار ، وجعله كتاباً مستقلا ، ثم رأيت من الواجب بسط القول وطبع التفسير على حدته عند سنوح الفرصة ، ففعلت بإجازته رحمه الله تعالى واستحسانه ، فكان المختصر نصف الجزء الأول من سورة البقرة ، عرضته عليه بعد ذلك فقرأه وزاد فيه ما رأى حاجة إلى زيادته ، ومنه إيضاح الكلام في الملائكة ، وأجاز باقى ما كتبناه كما هو فكأنه هو الذى كتبه[1] » .

ولا تفوتنا ملاحظة البراعة التى اتبعها رشيد فى الجزء الأخير من كلامه هذا ، فكأنه أراد أن نفهم أنه أضاف إلى تفسير الأستاذ الإمام ما أضاف ، وأن الأستاذ الإمام طالع ما أضاف فأقره وأجازه ، فكأنه هو الذى كتبه ، فكأن المَعين الذى يمتح منه كل من الرجلين واحد وكأن مستوى الكتابة عند كل منهما يماثل مستوى الآخر ! ! .

ولقد عاد رشيد إلى إخبارنا بأنه كان يلخص مافهمه من الأستاذ الإمام ، ويضيف إليه مايلخصه من الكتب ، ثم يزيد ما يشاء ، فيقول مثلا : إن ما أوردناه أولا في تفسير الفاتحة : من تلخيص لما فهمنا من دروس شيخنا ، ومما قرأناه فى الكتب ، ثم زدنا عليه فى أصله ، وفى هذه الفوائد الزوائد ، فالغرض منه التفقه فى معانى القرآن والاهتداء به[2] » .

(١) المنار ، المجلد ٨ ص ٨٩٩
(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٠١

ثم ذكر رشيد أنه عرض التفسير على الأستاذ الإمام فكان يزيد بعض عباراته ، وقد وضعها رشيد بين قوسين معقوفين هكذا ونبه على ذلك[١] .

وفى مواطن من تفسير المنار نفهم أن رشيدا ينقل عبارة الأستاذ الإمام مع توسع فيها ، ولذلك يقول أحياناً بعد أن يورد كلام الأستاذ الإمام : « اه بتفصيل وإيضاح[٢] » .

وكان رشيد أحياناً ينقل كلام الشيخ محمد عبده ، ويمزجه بكلام غيره من القدماء ، ومن أمثلة ذلك أنه عند تفسيره اسمى (الرحمن الرحيم) ذكر كلام ابن القيم ضمن كلام الشيخ محمد عبده فى هذا التفسير ، وقال : « وبهذا التفسير ضممنا فى التفرقة بين الاسمين ما قاله المحقق ابن القيم إلى ما قاله شيخنا رحمهما الله[٣] » .

وفي بعض الأحيان ينتقل رشيد من كلام الأستاذ الإمام إلى كلامه بقوله : « وأزيد هنا . . . . » أو قوله : « وأزيد فى إيضاح كلام الأستاذ . . .[٤] » .

ومن هنا نرى أن رشيدا لم يتبع طريقة واحدة فى النقل عن الأستاذ الإمام ، بل اضطرب بين جملة طرق ، فهو أحياناً يلخص ، وقد يفصل ويوضح ، وقد يعلق ويوثق ، وقد يزيد ويضيف ، وقد يستدرك ويعقب ، وقد ينقد ويعارض .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ١٢٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٥

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٨ ، ٦٩

وهو قد تنقل بين الطرق كل هذا التنقل دون علامات مميزة واضحة بين كلامه وكلام الأستاذ الإمام وكلام غيرهما ، ومن هنا ضاع بعض المعالم من تفسير الأستاذ الإمام ، وأصبح من العسير تجريده. ولو أن رشيدا حافظ على تمييز كلام الأستاذ الإمام ، لأمكننا أن نستخلص هذا الكلام ، ونجعله تفسيرا مستقلا ، يصور تصويرا كاملا جهد الشيخ محمد عبده ، وطريقته فى التفسير ، ومن وراء ذلك نستطيع أن نقارن بينه وبين من سبقوه من المفسرين ، وبينه وبين السيد رشيد رضا فى التفسير .

على أن ما لايدرك كله لايترك كله ، ومن فضل الله أن الأستاذ الإمام كتب تفسير « جزء عم » بنفسه ، وكتب بيده تفسير سورة العصر بعد أن ألقاه محاضرة أو درسا على علماء مدينة الجزائر ، ووجهائها سنة ١٣٢١ هـ – ١٩٠٣م ، وهو فيما يقرب من ثلاثين صفحة ، وقد نشره رشيد فى كتاب عنوانه : « تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن »[1] .

وكتب الأستاذ الإمام بنفسه تفسير قوله تعالى : فى سورة البقرة « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . . . » الآية ، وقد كتبها فى سبع وعشرين صفحة[2] .

وكذلك كتب الأستاذ الإمام بنفسه كلاماً فى تفسير قوله تعالى : « وإن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِن عِنْدِ اللهِ ، وإن تُصِبْهُم

---

(١) انظر ٨٧ – ١١٤ من المنار ، ج ١

(٢) المنار ، المجلد ٨ ص ٤١ عدد ٢٢ مارس ١٩٠٥ .

سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ من عِنْدِك . . .) الآية ، وقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك [١] » . الآية .

وكتب بنفسه تفسيرا للآيتين الثانية والخمسين والثالثة والخمسين من سورة الحج ، اللتين تبدآن بقوله تعالى : « وماأرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته [٢] ... » .

ولقد تعرضت فى كتابى « قصة التفسير » لرأى الأستاذ الإمام فى المرتبة العليا للتفسير ،وذكرت أنه يرى تمام هذه المرتبة بأمور منها : فهم حقائق الألفاظ القرآنية والمراد منها ، وفهم الأسلوب والتفطن لنكته ومحاسنه ، وعلم أحوال البشر ، والعلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، والعلم بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم [٣] .

ويمكن تركيز الأستاذ الإمام فى التفسير فيما يلى :

١ ـ الاستئناس بما ورد فى الآية من أثر أو سبب نزول .

٢ ـ ما تؤديه الألفاظ من معانيها ، إذ الألفاظ مفاتيح المعانى .

٣ ـ التعمق فى فهم هذه المعانى واستنباط الأسرار منها ، واستخدام العقل فى هذا التعمق .

٤ ـ تفسير القرآن بالقرآن كلما أمكن ذلك .

٥ ـ السورة وحدة متماسكة ، والقرآن وحدة كبرى متماسكة .

* * *

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ١٧٥ . وتفسيرسورة الفاتحة ، ص ١٥٨ ـ ١٦٤

(٢) المنار ، المجلد ٤ ص ٨١ ـ ٩٩ . وتفسير سورة الفاتحة ، ص ١٦٥ ـ ٢٠٢

(٣) قصة التفسير ، ص ١١٢ .

انفراد رشيد بالتفسير :

وحينما أتم رشيد نشر ما نقله عن الأستاذ الإمام من التفسير على الوجه السابق ، أحس — وقد لحق الأستاذ الإمام بربه منذ حين — أن عليه وحده التبعة فى تأليف تفسير مستقل ، فمضى فى ذلك من حيث انتهى الأستاذ الإمام ، مستعيناً بمنهجه وطريقته ، ولم يقتصر على نشره فى المنار ، بل أخذ يطبعه مستقلا فى أجزاء .

وفى عدد ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٢٦ من « المنار » أعلن رشيد أنه سينقطع عن نشر التفسير حتى يرخص ثمن الورق ، ولكنه عاود نشره بعد قليل .

وقد طبع تفسير المنار أول طبعة سنة ١٣٤٦هـ ، وطبع سنة ١٣٦٦هـ طبعة ثانية بعد وفاة رشيد ، وطبع طبعة ثالثة سنة ١٣٦٧هـ ، وأدق الطبعات هى الطبعة الأولى ، وأما الطبعتان الأخيرتان فمملوءتان بالأخطاء المطبعية .

ومن الطريف هنا أن « مولاى محمد إنشاء الله » صاحب جريدة « وطن » الهندية أرسل إلى رشيد سنة ١٩٠٩م يعرض عليه أن يترك جميع الأعمال ، ويعكف على إتمام تفسير المنار ، وهو يرتب لرشيد مساعدة مالية شهرية حتى يتم التفسير[1] ، ولكن رشيدا — كما يذكر لنا — رفض ، لأنه لايقبل على خدمة الدين مالا من أحد ، فأرسل صاحب جريدة « وطن » إلى رشيد قيمة الاشتراك فى مائة نسخة من كل جزء من أجزاء التفسير ، على أن تجلد وتوزع

على المساجد في البلاد العربية ، وترسل إليه عدة نسخ لينشرها فى الهند ويبيعها[١] .

وكأن رشيدا لم يدرك قيمة هذه النصيحة من الرجل الهندى ، إلا بعد أكثر من عشرين عاماً ، حيث أخذ رشيد يفكّر فى العكوف على التفسير وحده ، وكتب فيما كتب إلى صديقه شكيب أرسلان يقول له بتاريخ ٢ من سبتمبر سنة ١٩٣١م : « أكثر شغلى وأعظمه تفسير القرآن »[٢] . ونفع التفسير رشيدا من الناحية المادية حيث صار أروج كتبه باعتراف رشيد نفسه[٣] .

طريقة رشيد فى التفسير :

من الواضح أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان يعتمد كثيرا فى تفسيره القرآن الكريم على العقل والرأى ، مع حدود وقيود بطبيعة الحال ، وقد تبعه فى ذلك الإتجاه السيد محمد رشيد رضا ، بمقتضى أنه تلميذه والمتأثر به والناقل عنه والمتابع له ، وقد كان جهد الشيخ وخليفته ممثلا لحركة تجديدية واضحة المعالم فى التفسير[٤] .

ومهما قيل فى التفسير بالرأى فلا شك أن له فضلا فى إحياء الكثير من المفردات اللغوية ، والشواهد الشعرية ، والقواعد النحوية ، لأن

---

(١) المنار ، المجلد ١٢ ص ٩٥٩
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٦٢٠
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٩٢
(٤) يمكن مراجعة فصل :« حركة التجديد فى التفسير » فى كتاب قصة التفسير « ص ١٥٦ — ١٦٩

المفسر بالرأى يعتمد أول مايعتمد على مفهوم اللفظ فى اللغة ، وهذا يحتاج إلى تتبع لاستعمال اللفظ فى مأثور الشعر والنثر ، ومن وراء هذا الاعتماد رأينا تفسيرًا بأكمله يكاد يكون مقصور على العناية بالناحيتين اللغوية والبلاغية ، وهو تفسير « الكشاف » للزمخشرى الذى يبدو جهده العقلى واضحاً فى تفسيره من وراء عنايته بالبحث اللغوى والتحليل البلاغى[١] .

كما أن التفسير بالرأى يحتاج إلى اجتهاد واستقلال ، ورشيد ينعى على المقلدين من المفسرين بمثل قوله : « لا عذر لأحد فى التقليد المحض[٢] » . ولكن هذا لا يعنى أنه يتنكر لسلفيته ، بل يؤكد هذه السلفية بقوله : « وأقول — أنا مؤلف هذا التفسير — إننى والحمد لله على طريقة السلف ، وهديهم ، عليها أحيا ، وعليها أموت إن شاء الله تعالى[٣] » .

وكأنه قد أحس بأن من الناس من سيقول له : وكيف تؤكد هذه السلفية وأنت فى تفسيرك تستشهد بتأويلات الخلف ، فيجيب رشيد على ذلك بعد أن يشير إلى أنه يدعو إلى عقيدة السلف : « وإنما نورد فى باب التفسير وغيره من المنار بعض تأويلات الخلف للآيات والأخبار ، وما قد يخالف مذهبهم من الآراء العصرية ، وخاصة فى مقام الدفاع عن القرآن والسنة النبوية ، لأن الضرورة ألجأت إليها ، بتوقف إقامة الحجة أو دحض الشبهة عليها .

---

(١) قصة التفسير ، ص ١٠٥

(٢) تفسير المنار ، ج ٣ ص ٨٥ . الطبعة الثالثة

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٥٢ الطبعة الثالثة

فإن المنار ليس خاصا بالمذعنين للكتاب والسنة من المؤمنين ، بل يكتب لهم ولغيرهم من المبتدعين والمنافقين والكافرين ، ومنهم المنكر الجاحد ، والمجادل والمعاند ، ومنهم المشتبه المغرور بشبهته ، والمرتاب المتردد في ريبته ، وحسبنا من الفلح أن نقنع بتأويل الخلف من تعذر إقناعه بتفويض السلف[(١)] » .

على أن اجتهاد رشيد في التفسير ، وأخذه بالرأي وتأويل الخلف وتأثره بالآراء العصرية ، قد عرضه للكثير من النقد والتجريح ، ومن أمثلة ذلك أن رشيدا أنكر المهدى المنتظر في الجزء التاسع من « تفسير المنار » ، وجزم بأن أحاديثه كلها من وضع دعاة الشيعة فهاجمه أحد الشيعه بنقد شديد[(٢)] » .

ومن طريقة رشيد في التفسير أنه يتحدث فى أول السورة عن سبب نزولها ، ويشير إلى التناسب بين السورة وسابقتها ، بلاتكلف ، ثم يورد للسورة خلاصة يضمنها ما أشتملت عليه من العقائد والأحكام وقواعد الدين وأصول التشريع ، ثم يمضى في تفسير الآية طائفة طائفة .

ولعل أوضح مثل لذلك ما فعله رشيد في أول تفسيره صورة البقرة ، فقد ذكر عنها كلمة عامة ، ثم لخص الأحكام المذكورة فيها فكانت فوق العشرين ، ثم ذكر الأصول والقواعد العامة فى السورة ،

---

(١) المنار ، المجلد ٢٠ ص ٤ .

(٢) تفسير المنار ، ج ٩ ص ٤٩٩ — ٥٠٤ والسيد رشيد رضا ص ٥٤٧ . والمهاجم هو الأستاذ مصطفى جواد ، الباحث اللغوى العراقى .

فذكر ثلاثا وثلاثين قاعدة ، ثم قال : « يقول محمد رشيد : هذا مافتح الله به علىّ بتصفح صحائف السورة دون تلاوتها[1] ، ويمكن ... الزيادة عليه بالتأمل فيها وتدبرها ، وإنما وعدنا بتلخيصها بالإجمال دون التفصيل[2] » .

* * *

العناية بالجوانب اللغوية والبلاغية :

يذكر رشيد رضا أن فقه القرآن « يتوقف على تفسيره لمن لم يؤت من ملكة لغته ، وذوق أساليبها ، وروح بلاغتها ، ومن تاريخ الإسلام ، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهدى السلف الصالح ، مايمكنه من فقهه لنفسه » .

فهو يجعل ملكة اللغة ، وذوق الأساليب ، وروح البلاغة ، فى طليعة مايقدر به الإنسان على فقه القرآن لنفسه ، وتفسيره لغيره ، ثم يعود بعد قليل فيذكر أول ما يذكر من وسائل فهم القرآن « فنون العربية التى لابد منها » ، ثم يذكر أيضاً « قواعد النحو والمعانى » ، وإن كان فى الوقت نفسه يعيب على بعض التفاسير أنها تشغل الإنسان عن القرآن « بمباحث الإعراب وقواعد النحو ، ونكت المعانى ومصطلحات البيان » .

---

(١) لم أسترح لهذا التصرف من رشيد ، فإنه يكتب تفسيرا ، فلا بد أن يتلو ويتدبر ولا يتعجل ولا يكتفى بتصفح الصحائف ، ولكن لعله أراد أن يشعرنا بألمعيته وسرعة ملاحظته وحضور بديهته ، ورشيد واضح التقدير لنفسه أحيانا .

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٠٥ — ١٢١ .

ويرى أن من الضرورى الاستعانة في التفسير بما صح عن علماء الصحابة مما يتعلق بالمعانى اللغوية[١] .

وهو يعجب بجودة العبارة وجزالة الأساوب فى التفسير ، ولذلك ينوه بتفسير ابن عطية ، ويصفه بقوله : « لسانه من صميم العرب ، وأسلوبه بديع[٢] » .

وينقل رشيد عن أستاذه محمد عبده أن المرتبة العليا للتفسير لا تتم إلا بأمور أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة في القرآن ، ويحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، لأن هناك ألفاظاً كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك .

ومن أمثلة ذلك لفظ « التأويل » الذى اشتهر بمعنى التفسير ، ولكنه استعمل فى القرآن بمعنى العاقبة فى قوله تعالى : « هل يَنْظُرُون إلا تَأْويلَه يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيله ... » .

وكذلك كلمة « الولى » معناها فى القرآن غالباً هو الناصر الموالى ولكن الناس اصطلحوا بعد ذلك على إطلاق « الولى » على من تظهر على يديه الخوارق ... وهكذا. وكذلك يذكر رشيد من الأمور اللازمة للمفسر علمه بالأساليب والمراد منها[٣] ، وكأن هذا معناه أن يدرس المفسر المفردات ويحدد معانيها ، وهذا يستلزم فقها لغوياً ،

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧ .

(٢) جمال الدين القاسمى وعصره ، ص ٤٤٧ .

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٢ .

ثم يدرس التراكيب والأساليب ، وقد اجتمعت فيها كل كلمة مع صاحبتها ، وهذا يستلزم ذوقاً بلاغياً وحساً أدبيًّا .

ورشيد تبدو عنده في أثناء التفسير الدقة اللغوية ، أو الحاسة اللغوية في فهم المفردات ، والأمثلة على ذلك كثيرة أكتفى ببعضها ؛ فهو مثلا يتعرض لتفسير قول الله تبارك وتعالى عن المنافقين : (يُخَادِعُون الله والذين آمَنُوا وما يَخْدَعُون إلاَّ أنفُسَهم وما يشْعُرون) . فينقل عن أُستاذه أولا قوله : « إن الشعور هو إدراك ما خفى » ، ثم يضيف كلاماً عن مادة الشعر والشعار والشعور ، وينقل عن اللغويين أن : « شعربه » معناه : « علم به وفطن له » ، والفطنة تتعلق بالأمور الدقيقة ، ثم أورد ما قاله بعض المفسرين من « أن الشعور إدراك المشاعر ، أى الحواس الخمس » .

وبعد أن يوفي رشيد حقَّ النقول اللغوية من المعاجم أو كتب المفسرين ، يعقب على ذلك بقوله عن معنى الشعور : « والتحقيق أنه إدراك ما دق من حسى أو عقلى ، فلا تقول : شعرت بحلاوة العسل ،وبصوت الصاعقة ، وبألم كية النار ؛وإنما تقول : أشعر بحرارة ما فى بدنى ، وبملوحة أو مرارة فى هذا الماء — إذا كانت قليلة — وبهينمة وراء الجدار . وما ورد فى القرآن من هذا الحرف يدل على هذا المعنى ، أى إدراك مافيه دقة وخفاء[1] » .

وهذا التحليل يدل على حاسة لغوية عند رشيد ، وعلى إدراك للفروق بين معانى الألفاظ ومواطن استعمالها .

(١) تفسير المنار ج ١ ، ص ١٥١ .

ومن شواهد الفلسفة اللغوية في تفسير رشيد أنه عند تعرضه لتفسير قول الله تعالى : (مَالِكِ يَوْمِ الدين) يذكر أن هناك قراءتين هما « مالك » و « ملك » ، ويذكر عن شيخه محمد عبده أن المالك هو ذو المِلْك – بكسر الميم وسكون اللام – والمَلِك هو ذو المُلْك – بضم الميم وسكون اللام – وأن قراءة « ملك » أبلغ من قراءة « مالك » لأن لفظ « ملك » يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير .

ولكن رشيدًا لا يكتفي بهذا النقل بل يؤيد كلام شيخه ، بفلسفته اللغوية ، فيقول إن قراءة « مَلِك » أبلغ ، لأن معناها : المتصرف في أمور العقلاء المختارين ، بالأمر والنهي والجزاء ، ولذلك يقال : ملك الناس ، ولا يقال : ملك الأشياء .

ولأن معنى (مَالِكِ يَوْمِ الدِّين) قد يستفاد من قوله : (ربِّ العَالَمِين) .

ثم يواصل تحقيقاته اللغوية ، فيذكر أن قراءة الإنسان في الصلاة بقراءة (ملك يوم الدين) تثير من الخشوع مالا تثيره القراءة الأخرى التي يفضلها بعضهم لأنها تزيد حرفاً في النطق ، ويستشهدون بما ورد في الحديث ، من أن للقارىء بكل حرف كذا حسنة .

ولكن فاتهم – كما يذكر رشيد – أن حسنة واحدة تكون أكبر تأثيرا في القلب ، خير من مائة حسنة يكن دونها في التأثير [(١)] .

* * *

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٥٤ .

والشواهد على العناية بالجانب اللغوى فى تفسير رشيد رضا ليست من القلة أو الندرة ، بحيث يطول البحث عنها لتلتقط التقاطاً بل هى كثيرة شائعة فى تفسيره ، حتى تدعوه أحيانًا إلى الاستطراد اللغوى ، ومن أمثلة ذلك أنه يتحدث عن معانى الأسماء الإلهية « الحى – القيوم – الرحمن – الرحيم » ، فيستغرق فى ذلك صفحات فى آخر تفسيره لسورة الفاتحة [١] .

ويلاحظ رشيد أن تعرضه لتفسير كلمتى (الحى والقيوم) لون من الاستطراد ، لأن هاتين الكلمتين ليستا من كلمات سورة الفاتحة فيعتذر عن ذلك بقوله : « وإنما فسرنا الاسمين الكريمين هنا – وذكرهما استطرادى لا يدخل فى تفسير سورة الفاتحة – لأن أكثر القراء لا يفهم معانيهما التى يدل عليها لفظهما بطرق الدلالة الثلاث المطابقة ، والتضمن ، والالتزام [٢] » .

وحينما بلغ رشيد تفسير قول الله تعالى : « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم ... » عاد إلى حديثه اللغوى عن كلمتى (الحى القيوم [٣]) .

ونلاحظ أن المراجع اللغوية التى يرجع إليها رشيد كثيرة ، فهو يرجع إلى المخصص لابن سيده ، وإلى مفردات القرآن للأصفهانى ، وبدائع الفوائد لابن القيم ، ولسان العرب لابن منظور ، والقاموس للفيروز أبادى ، وشرح القاموس للزبيدى [٤] . وغير ذلك .

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٢ – ٧٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤ .
(٣) تفسير المنار ، ج ٣ ص ٢٣ و ٢٤ .
(٤) أنظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٠ و ٤١ و ٧٣ وج ٣ ص ٢٩ .

وإذا كان رشيد يعنى بالبيان الأدبى فى التفسير ، ويعيب التفريط فى تجويد هذا البيان بسبب الانصراف إلى القواعد النحوية حتى يقول عن بعض المفسرين مستهجنا عملهم : « صرفتهم قواعد النحو عن ملاحظة الأسلوب العربى فى مثل هذا[١] » ، فليس معنى هذا أن رشيدا يضيع حق النحو أو تهمله .

ولذلك ينقل رشيد عن أستاذه الإمام قوله : « لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده ، وتخشع لوعيده ، إلا إذا عرف معانيه ، وذاق حلاوة أساليبه ، ولا يأتى هذا إلا بمزاولة الكلام العربى البليغ ، مع النظر فى النحو ، كنحو ابن هشام ، وبعض فنون البلاغة ، كبلاغة عبد القاهر ، وبعد ذلك يكون له ذوق فى فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن[٢] » .

وعند تفسير قول الله تعالى : « فقليلا ما يؤمنون » يقول رشيد :

« ومن مباحث اللفظ فى الآية : أن كثيرا من المفسرين يزعمون أن (ما) زائدة ، وما هى بزائدة وفاقا لابن جرير الطبرى ، وجل القرآن أن يكون فيه كلم زائدة ، وإنما تأتى (ما) لإفادة العموم تارة ولتفخيم الشىء تارة .

ويقول ابن جرير : إنما يؤتى بها فى مثل هذا المقام كمبتدإ جديد يفيد العموم ، كأنه قال : فإيمانا قليلا ذلك الذى يؤمنون به . وأما التى لتفخيم الشىء فكقوله تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ)

---

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٨٥

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٨٢ .

أى : فبسبب رحمة عظيمة خصك الله بها لنت لهم ، على ما لقيت منهم[١] » .

فرشيد إذن لا يهمل النحو ولا يحكم بعدم فائدته ، ولكنه حريص على ألا تشغل القواعد النحوية والبحث فيها من يفسر القرآن ، لأن الأهم من ذلك هو فهم النص القرآنى ، وتفسير هدفه ومغزاه .

* * *

ويعنى رشيد فى « تفسير المنار » بالنواحى البلاغية ، وينص على أن هذا التفسير ينبه إلى عجائب من بلاغة القرآن فى كل جزء لا تجد مثلها فى غيره من التفاسير ، ويذكر ضروب إيجازه ، ومعانى مفرداته ، وتحديد الحقائق فى جمله[٢] .

وما دام رشيد يعنى بالناحية البلاغية فى التفسير ، فلابد من أن يعنى بالحديث الواسع عن إعجاز القرآن الكريم ، وإلى جوار الإشارات المتناثرة إلى هذا الإعجاز القرآنى خلال أجزاء التفسير ، يعقد رشيد فصلا ممتدا لتحقيق وجوه الإعجاز فى القرآن ، فيما يقرب من عشرين صفحة ، فيذكر فيه أن القرآن معجز لجملة أسباب ، هى باختصار وإيجاز :

١ — إعجازه بالأسلوب والنظم ، حيث اشتمل على النظم الغريب والأسلوب العجيب .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٧٩

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٠٣

٢ ـ بلاغته التى تقاصرت عنها همم سائر البلغاء .

٣ ـ اشتماله على الإخبار بالغيب .

٤ ـ سلامته من الاختلاف والتناقض والتعارض .

٥ ـ اشتماله على العلوم الدينية والتشريع .

٦ ـ عجز الزمان عن إبطال شىء منه .

٧ ـ تحقيق القرآن لأشياء كانت مجهولة للبشر ، كالمسائل العلمية التى لم تكن معروفة [١] .

* * *

ورشيد رضا لم يكتف بالحديث عن إعجاز القرآن فى تفسير المنار بل تحدث عنه حديثا مجملا موجزا فى كتابه « عقيدة الإسلام » وقال إن هذا الإجمال فيه من الوجوه ما يمكن شرحه فى سفر أو أسفار .

ولقد تحدث رشيد عن كتابة الرافعى فى « إعجاز القرآن » ، فذكر جهده فى هذه الكتابة ، وقال عنه : « وإذا كان قد انفرد ببيان نكت ودقائق لم تعرف لغيره ، فقد جلى بعض ما سبقه إليه من النكت والوجوه مَنْ قبله ، بعبارة مؤثرة بما ألبسها من حلل الخيال ، حتى تجلت فى أروع مثال ، وثم مباحث مفيدة فى هذا الباب ، تراها فى الفصول الكثيرة من الكتاب » . ولذلك يصدق على صاحبه المثل السائر : « كم ترك الأول للآخر » .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٩٨ — ٢١٥

ولكن رشيدا يدرك عن وعى أن وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم — إذا أُريد لها الإحصاء والاستقصاء بالتفصيل والتحليل — لا تدخل فى نطاق الإمكان لفرد ، ولذلك كتب فى إعجاز القرآن كاتبون ، [ويكتب فيه كاتبون] ،وسيكتب فيه على مر الأيام كاتبون ، ووجوه إعجازه كثيرة يعقل منها كل ذى علم وبصيرة ما يتوجه إليه ذهنه ، مما استعد لإدراكه عقله .

ولذلك يعود رشيد ليقول : « بعد هذا كله نقول إنه بقى لى من وجوه الإعجاز مالم يغص المؤلف بحره ، حتى يستخرج دره » . ويقول : « والتحقيق أن إعجاز القرآن بمعانيه من الهداية والعلم أعظم من إعجازه بفصاحة عبارته وبلاغة أُسلوبه ، وهى التى كانت سبب بقاء الدين فى العرب والعجم ، بعد أن قل من يذوق طعم هذه البلاغة [1] » .

ومما يدلنا على توافر الذوق البلاغى عند رشيد ، وقوة إدراكه للبيان القرآنى والإعجاز الإلٰهى فيه ، واقتداره الملحوظ على تصوير ذلك وتبيانه ، أن أحد دعاة النصرانية المستأجرين فى عصر رشيد ، الذين سخرتهم جمعيات التبشير الإنكليزية والأمريكانية تطاول فأصدر كتيبا خبيثا طعن فيه على القرآن ، وقال إن سورة (الفاتحة) . « فيها حشو وتحصيل حاصل » — تعالى كلام الله عن ذلك علوا كبيرا — وقال ذلك الأثيم إن الأحسن من سورة الفاتحة قول بعضهم :

« الحمد للرحمن ، رب الأكوان ، الملك الديان ، لك العبادة ، وبك المستعان ، اهدنا صراط الإيمان » .

---

(١) المنار ، المجلد ١١ ص ٣٥٢

فانبرى له رشيد رضا ، وكشف عن خبث النية ولؤم الطوية عند ذلك المأجور ، ثم أبان له ما ارتكبه من فضائح فيما صنع من كلام وركز ذلك فى النقط التالية :

١ — إن أول شىء اختصره هذا الجاهل المتعصب ، وجعل ذكره مطعنا فى فاتحة القرآن اسم الجلالة الأعظم (الله) الذى لا يغنى عنه سرد جميع أسماء الله الحسنى ، فإنه اسم الذات ، الملاحظ معه اتصاف تلك الذات بجميع صفات الكمال إجمالا .

٢ — إنه اختصر اسم الرحيم ، وقد بينا فائدته ، وأن اسم الرحمن لايغنى عنه ؛ وأنّى لمثله أن يعلمه ؟ ويراجع الفرق بينهما فيما تقدم [1] ، وحسبك منه أنه هو الدال على حظ العبد من رحمة ربه .

٣ — إنه استبدل الأكوان بالعالمين ، وليس فى هذا اختصار ، وإنما فيه استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير .وأولى ؛ فإن الأكوان جمع كون ، وهو فى الأصل مصدرلا يجمع ، وله معان لا يصح إضافة اسم الرب إليها ، منها الحدث ، والصيرورة ، والكفالة ، ويطلقه عرب الجزيرة على الحرب ، ولعلهم لا يستعملونه فى غيرها .

وأما العالمون فجمع عالم ، وفى اشتقاقه التذكير بكونه علامة ودليلا على وجود خالقه ، وفى جمعه جمع العقلاء تذكير للقارىء بما فى

---

(١) يقصد أنه تقدم فى تفسير كلمتى (الرحمن الرحيم) ومما جاء فيه : « فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهى إفاضة النعم والإحسان ، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون الثانى مؤكدا للأول » : انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٧

كلمة (الرب) من معنى تربيته جل جلاله وعم نواله للأحياء ، ولا سيا للناس ، وكونهم يشكرونه عليها بقدر استعمال عقولهم ، ولذلك قال بعض الأعلام : إن لفظ العالمين عام مستعمل هنا فى الخاص ، وهو عالم البشر ، وراجع سائر تفسيره المتقدم[١] .

٤ ـ إنه استبدل كلمة (الديان) بكلمة (يوم الدين) ، وهى لا تقوم مقامها ، ولا تفيد ما فيها من المعانى المطلوبة لذاتها ، فإن للديان فى اللغة معانى ، منها القاضى ، والحاسب ، أو المحاسب ، والقاهر ، وغاية ما يفيده وصف الرب بأنه حاكم يدين عباده ويجزيهم .

وأما (يوم الدين) فإنه اسم ليوم معين موصوف فى كتاب الله بأوصاف عظيمة هائلة ، ويحاسب الله فيه الخلائق ، ويحكم بينهم ويجزيهم ، والإيمان بهذا اليوم ركن من أركان الدين ، وإضافة ملك ومالك إليه تفيد أن الأمر كله فى ذلك اليوم له وحده ، فلا يملك أحد لأحد فيه شيئا من نفع ، ولا من كشف ضر ، كما تقدم تفصيله فى تفسير الآية[٢] .

فاستحضار هذه المعانى فى النفس له من التأثير المقوى لعقيدة التوحيد ، المرغب فى العمل الصالح ، المرهب الزاجر عن الشر ، ماليس لاسم الديان وحده .

ويكفى الإنسان فى الجزم بهذا مشاورة فكره ، ومراجعة وجدانه ، وإن لم يكن يعلم من فنون البلاغة شيئا .

---

(١) انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٥٠

(٢) انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٥٤

وهل لهذا المبشر المتعصب فكر ووجدان يهديه إلى ما يجهل من بلاغة القرآن ؟ .

٥٥٦ — إنه اختصر قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين) بقوله هو : « لك العبادة وبك المستعان » وهو أغرب ماجاء به وسماه إيجازا ، فإنه استبدل أربعا بأربع ، ولكنها أطول منها بزيادة حرف ، وتنقص عنها فى المعنى — فأين الإيجاز؟ . إنه مفقود لفظاً ومعنى .

إذا أرادبقوله : لك العبادة — أنها كلها له تعالى فى الواقع ونفس الأمر ، فالجملة غير صحيحة ، لأن الذين لايعبدونه وحده من البشر هم الأكثرون ، ومنهم النصارى قوم الطاعن فى دين التوحيد الأقوم (الإسلام) ، وكتاب التوحيد الأعظم (القرآن) المبين لآية التوحيد البليغة .

وإن أراد أن العبادة مستحقة لله تعالى وحده ، فالمعنى صحيح ولكنه لايدل على أن القارىء ولا واضع الجملة من القائمين بهذا الحق له تعالى .

وأما (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فإنها تفيد عرض عبادة القارىء مع عبادة جميع المؤمنين الموحدين عليه جل جلاله ، وتقربهم إليه بأنهم يعبدونه ولا يعبدون غيره .

وأحيلك فى الفرق بين تأثير هذا وذاك على الوجدان الذى ذكرتك به فى النقد الذى قبله ، دع مافى عرض المؤمن عبادته واستعانته على

ربه فى ضمن عبادة جميع المؤمنين واستعانتهم ، من ملاحظة أخوة الإيمان ، وتكافل أهله ، ومن هضم الفرد لنفسه ، ورجاء القبول فى ضمن الجماعة ، وغير ذلك مما يعلم من تفسير الآية [١] .

ومثل هذا يقال فى مسألة الاستعانة ، ويمكن الزيادة عليه من جهة المعنى ومن جهة اللفظ ، ومنه اختياره المصدر الميمى الذى هو صيغة اسم المفعول (المستعان) على المصدر الأصلى — وهو الاستعانة — المناسب للفظ العبادة ، ومن جهة ارتباطه بما بعده ، فإن طلبنا للهداية من الاستعانة التى أسندناها إلى أنفسنا .

٧ — استبداله « صراط الإيمان » بالصِّرَاطِ المُسْتَقِيم ، وهذا أعم منا وأشمل ، لأنه يشمل الإيمان والإسلام والإحسان ، ومن العقائد والعبادات والآداب ، مع وصفه بالمستقيم الذى لا عوج فيه ، فإن بعض الطرق الموصلة إلى المقاصد التى يسمى سالكها مهتديًا إلى مقصده فى الجملة ، قد يكون فيها عوج يعوق هذا السالك .

والمستقيم هو أقرب موصل بين طرفين ، فسالكه يصل إلى مقصده فى أسرع وقت ، كذلك الطرق المعنوية ، منها الموصل إلى الغاية وغير الموصل ، ومن الموصل ما يوصل بسرعة لعدم العائق ، وما يعترى سالكه الموانع ، فيعوزه اقتحام العقبات ، واتقاء العثرات .

٨ — إن وصف الصراط المستقيم بكونه الذى سلكه خيار عباد الله المفلحين : من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، مذكر

(١) انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٥٦

لقارئه بأولئك الأئمة الوارثين ، الذين يجب التأسى بهم والسعى للانتظام فى مسلكهم .

والتصريح بكونه غير صراط المغضوب عليهم من المعاندين للحق ، وغير الصالحين الزائفين عن القصد ، مذكر للقارىء بوجوب اجتناب سبلهم ، لئلا يتردى فى هاويتهم [(١)] » .

ليس هذا كل ما رد به رشيد رضا على ذلك المعارض التافه ، ولكن ما ذكر تحت هذه الأرقام الثمانية يكفى ويشفى ، وأحب أن أشير إلى الدقائق التى لمحها رشيد فى التفرقة بين كلام الله المعجز وسخف هذا المعارض ، وسأعلق على ما ذكره رشيد تحت كل رقم من الأرقام الثمانية .

١ ـ أرأيت كيف لمح رشيد رضا المعنى الجليل الغميق الذى يضيع لو حذف لفظ الجلالة (الله) الذى هو عَلَمٌ على المعبود بحق ، الذى لا يستحق العبادة سواه المتصف إجمالا بكل صفات الجمال والكمال والجلال ؟ .

٢ ـ أرأيت كيف نبه على الفرق الدقيق اللطيف بين اسم « الرحمن » واسم « الرحيم » ، وهذا الفرق لايدرك على وجهه إلا بإحساس لغوى مرهف ؟ .

٣ ـ أرأيت كيف تنبه إلى التفرقة بين « الاختصار » و « الاستبدال » ، وهو يعلق على كلام ذلك المعارض التافه الذى

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٩ — ٨٢ ، وتفسير سورة الفاتحة ، ص ٧٩ —٨٣

حذف كلمة « العالمين » ووضع بدلها كلمة « الأكوان » فكان ذلك استبدالاً للذى هو أدنى بالذى هو خير ؟

وكيف لحظ رشيد بإحساسه اللغوى ما فى كلمة « العالم » — بفتح اللام — من معنى « العلامة » الدالة على وجود الخالق ، وما فى جمعها جمع العقلاء — أى بالواو والنون ، أو الياء والنون — من رمز إلى ما فى كلمة (الرب) من إشارة إلى تربية الله للأحياء ، ولا سيما الناس ؟! .

٤ — أرأيت كيف قارن السيد رشيد رضا بين استعمال كلمة (الديان) واستعمال كلمة (يوم الدين) ، وأبان أن استعمال الأولى فى هذا الموطن يوقع فى إبهام ، لأن كلمة (الديان) مشتركة بين جملة معان ، ولا يتجاوز استعمالها هنا نطاق وصف الرب بأنه حاكم يجزى عباده .

وأما كلمة (يوم الدين) فتفيد معانى الحساب والحكم ، والجزاء وتمام السيطرة من الله تعالى على الخلق — ظاهرا وباطناً — فى ذلك اليوم .

٥و٦ — أرأيت كيف لحظ رشيد أن آية : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فيها تسعة عشر حرفاً فقط ، وأما عبارة المعارض التافه : « لك العبادة وبك المستعان » ففيها عشرون حرفًا ، ومع ذلك نقصت عبارته في المعنى عن الآية الكريمة ، وبذلك لم يوجد الإيجاز المزعوم فى اللفظ ، ونقص معنى العبارة عن معنى الآية ؟

وانظر كيف كان رشيد دقيقاً فى استعمال لفظىْ (إذا) و (إن) ، فاستعمل (إذا) حين تحدث عما يغلب على ظنه أنه رأى المعارض

ليتخذ رشيد من ذلك باباً إلى إيقاع المعارض فى الخطأ ؛ واستعمل لفظ (إن) حين تحدث عما يشك فى أنه رأى المعارض ، ليبعده رشيد عن محجة الصواب والاهتداء .

وانظر كيف يحتكم رشيد إلى وجدانك فى هذا النقد ، وفى النقد الذى سبقه ! .

٧ ــ أرأيت كيف لحظ السيد رشيد رضا انفساح معنى (الصراط المستقيم) عن معنى « صراط الإيمان » ، لأن الاستقامة تشمل الاعتقاد والقول والعمل ، وتشمل السلوك والتصرف والمعاملة والأخلاق ؛ على حين أن الإيمان اعتقاد فحسب .

ثم إن رشيداً قد لمح لمحة هندسية أكد بها رأيه ، حين أشار إلى أن الخط المستقيم هو أقصر طريق بين نقطتين أو طرفين .

٨ ــ أرأيت أخيرا كيف لمح رشيد ما فى التعبير الإلهى المعجز : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غيرِ المغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلَا الضَّالِّين) من حث على التذكر والاعتبار ، واستحضار أحوال السابقين ، ودراسة تاريخ الماضين ، والاهتداء بالصالحين منهم والمصلحين ، والاجتناب لسبل الضالين منهم والمضلين ؟ ! .

أرأيت ؟ ...

لقد كان من حق رشيد إذن أن يقول : « إن اختصار الدرارى السبع فى السماء أهون من اختصار آيات الفاتحة السبع فى الأرض[1] » .

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٩

ولم يكتف رشيد بهذا فى تفنيد معارضة ذلك التافه ، بل أخذ يعرض عليه « الصلاة الربانية للنصارى » المحكية فى إنجيل متى ، والتى أدخل عليه الأمريكان فى نسخة إنجيلهم بعض العبارات ، وأخذ رشيد يبين مافى عبارات هذه الصلاة من وجوه الانتقاد[١] .

رضوان الله على السيد محمد رشيد رضا الذى كان عميق الفكرة بعيد النظرة ، متمكنا من أسباب المجادلة المفحمة للجهلاء والسفهاء ، ماهرا فى إدراك الكثير من المعانى والدقائق الموجودة فى كنوز القرآن الذى لاتنتهى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه .

* * *

التفسير بين الإمام وخليفته :

يذكر الشيخ محمد أبو زهرة أن الأستاذ الإمام كان يقرأ كثيرا من التفاسير ، حتى إنه يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيرا ، مابين مطبوع ومخطوط ، ولكنه لايتيه فيما يقرأ ، ولا ينقل مايطالع ، بل يستعين بمجموع هذه التفاسير على الوصول إلى لباب المعنى[٢] .

وكتب الدكتور عثمان أمين مقالا عن طريقة الأستاذ الإمام فى تفسير القرآن الكريم[٣] ، ذكر فيه أن الإمام كان يميل فى التفسير إلى أخذ آيات القرآن جملة ، ويرى أنه إذا كنا بحاجة إلى معرفة

---

(١) انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٨٢ و ٨٣ وكتاب تفسير سورة الفاتحة ص ٨٣ — ٨٥

(٢) انظر تقديمه لكتاب منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، ص (ط) .

(٣) انظر مجلة منبر الإسلام ، عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ .

أسباب النزول في آيات الأحكام ، فإن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه .

ولابد فى التفسير من الذوق السليم ، ومايتبعه من لطف الوجدان ودقة الشعور اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدين ، ومقتضى هذا أن ينفذ المفسر إلى روح القرآن .

ولقد أعجب الأستاذ عباس محمود العقاد بهذا المقال ، وكتب عنه مقالا جاءت فيه العبارة التالية :

« للقرآن الكريم حكم غير سائر الأحكام ، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقاما واحدا فى جملته ، يخالف به كل مقام ، وهو مقام الرسالة الإلهية التى يرتبط بعضها ببعض ، وتنتهى ظواهرها كلها إلى باطن واحد توافقه جميع الأجزاء من السورة والآيات ، متفرقات ومتصلات .

ولا ينسى المفسر هذا المقام المجمل على اختلاف المناسبات ، واختلاف مقام القول فى كل آية وفى كل حكم من أحكام يتواتر فى تفصيل آياته[1] » .

ويقول العقاد هذا تأكيدا لاستحسانه طريقة الأستاذ الإمام فى التفسير ، وقد عبر عن هذه الطريقة بقوله :

« هى فيما نرى أحدث أساليب التفسير وأسدها من الوجهتين ، الدينية والبلاغية ؛ وخلاصتها فى كلمات معدودات أن الأستاذ الإمام كان أقدر المفسرين المحدثين على فهم كل مقام من مقامات

---

(١) انظر مجلة الأزهر ، عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨٣ هـ .

الوحى الشريف ، وذلك مقصد بعيد الأمد فيما يرجع إلى فهم الوحى الإلهى على التخصيص .

وإنما يعينه عليه أن يدرك وحدة الوحى فى جملته ، كما يدرك مقاماته أو مناسباته فهما منه لموقعه من السامع ، وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب إليه » .

ومما تقدم نفهم أن الميزة الواضحة فى تفسير الأستاذ الإمام هو النظر إلى القرآن الكريم عند تفسيره على أن آياته وحدة ، فينبغى أن تفسر جملة ، لا آية آية ، وأن استقامة هذا النظر تحتاج إلى عقل وذوق ولطف وجدان مع سعة بحث .

والإنصاف يقتضينا أن نعترف لرشيد بأنه نظر إلى القرآن هذه النظرة — مع الفرق الموجود طبعاً بين الأستاذ وخليفته — وقد وضح التفات رشيد إلى دراسة وحدة السورة ، ولذلك نراه فى الغالب يضع للسورة عند البدء فى تفسيرها — مقدمة تتحدث عنها بصفة عامة ، فيذكر أغراض السورة ومقاصدها وأحكامها والملامح الغالبة عليها ، وقد يعود فى آخر السورة إلى ذكر خلاصة لها ولمقاصدها وأهدافها ، وهو فى تلك الخلاصة يبذل جهداً عنيفاً ، وها هو ذا يكتب إلى صديقه شكيب أرسلان فيحدثه عن الجزء العاشر من « تفسير المنار » بقوله :

« واتفق أن تمت فيه سورة براءة (التوبة) ، وعلىّ أن أراجعه كله ، لأستخرج منه مسائل السورة الكلية من أصول وفروع وغيرها وهذا أشق عمل فى التفسير ، ولم أسبق إلى مثله [1] » .

(١) السيد رشيد رضا : ص ٦١٥

ولو رجعنا مثلا إلى تفسير رشيد لسورة « الأعراف » لوجدناه قد بسط تفسيرها فى مئات من الصفحات تقارب الثمانمائة صفحة ، ثم يصوغ لها خلاصة فى اثنتين وعشرين صفحة [١] .

وهو لايفسر القرآن كلمة كلمة ، ولا آية آية ، بل يذكر طائفة من الآيات يجمعها غرض مشترك ، ثم يتحدث عنها بصفة عامة ، وإن كان التفسير يقتضيه أحياناً أن يتعرض لمعانى بعض الألفاظ ، أو يطيل الوقوف عند أجزاء معينة من الآيات .

ورشيد نفسه قد أخذ على نفسه العهد بعد أن انتهى من النقل عن الإمام بأن يسير على طريقته فى التفسير ، فقال : « وسنستمر فى التفسير على هذه الطريقة التى اقتبسناها منه إن شاء الله تعالى » ثم أظهر تواضع التلميذ أمام الأستاذ ، فأضاف عقب ذلك قوله : « وإن كنا محرومين فى تفسير سائر القرآن من الفوائد والحكم التى كانت تهبط من الفيض الآلهى على عقله المنير [٢] » .

ورشيد أيضاً يستخدم عقله فى التفسير ، ويطيل تدبره للآيات فى كثير من الأحيان ، حتى يستخرج منها المعانى الملائمة لجلال القرآن من جهة ، والمذكرة بسنن الله الثابتة المطردة فى الكون التى لاينكرها عاقل من جهة أخرى ، ولذلك كثرت إشاراته إلى هذه السنن الكونية [٣] .

وليس معنى هذا أن رشيداً تابع شيخه خطوة خطوة بلا مخالفة أو زيادة ، لأن رشيدا نفسه قد ذكر فى مقدمة « تفسير المنار » أنه

(١) تفسير المنار ، ج ٩ ص ٥٥٩ — ٥٨٠
(٢) تفسير المنار ، ج ٥ ص ٤٤١
(٣) انظر على سبيل المثال تفسير المنار ، ج ١ ص ٦ و ٧

لما استقل بالعمل فى التفسير ، بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، زاد على منهجه « التوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة ، وسواء كان تفسيرا لها أو فى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية ، والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة ، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها [1] » .

ويرينا رشيد رضا ألواناً من اطلاعه على العلوم المادية كالطبيعة والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان ، حيث يستشهد بكثير من هذه العلوم فى مواطنها المناسبة من التفسير ، ومن شواهد ذلك أنه أورد محاورة بين تلميذ وشاب وشيخ ، يتحدث فيها عن حياة الله عز وجل بأسلوب قريب من الأفهام ، ولكنه يتحدث عن عناصر الهواء ، وعناصر الأرض وعن المواد المختلفة ، وعن الفرق بين حياة النبات وحياة الحيوان ، وحياة الإنسان [2] .

ويحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة عن مدى التشابه والاختلاف بين تفسير الأستاذ الإمام وتفسير السيد رشيد رضا فيقول :

« لقد تكونت مدرسة من العلماء والمثقفين تطلب علم الإمام وترويه وتنشره ، ومن أقوى هذه المدرسة تأثرا بالإمام السيد رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه ، فهو راويه ، وناقل علمه إلينا نحن الذين لم نستمع إلى الإمام ، وإن استمعنا إلى صحابته المخلصين له .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٦

(٢) تفسير المنار ، ج ٣ ص ٢٦ — ٢٨

ولاشك أن السيد رشيد الذى سار فى تفسير الإمام بعد أن قبضه الله تعالى إليه ، قد حاول حكاية طريقة الشيخ ، ولكن طريقة الإمام كانت طاقة نفسية ، وليست منهاجاً فقط ، ولذلك لانجد فى الأجزاء التى أتمها السيد التغلغل الذى كنا نراه فى المنقول عن الإمام .

ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا فى تفسير الإمام : أولهما العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بلا ريب خير كله ، وثانيهما النقل الكثير عن المفسرين وإن السبب فى ذلك أن الإمام كان يلقى درساً ، فكان يلقى مايتمثل فى عقله وقلبه ، مما قرأ وتأمل وتدبر فى القرآن ، ولأن كل همة نفسه كانت متجهة إلى لباب القرآن[1] » .

والشيخ أبو زهرة يرى قريباً من هذا الفرق بين الأستاذ الإمام والسيد رشيد ، فيما نقله رشيد عن أستاذه ، فيقول : « وأحسب أن النقل كان مقرّباً لما قاله الإمام ، وليس محققاً لكل ما قال ، ولا مصورا لكل ما أراد[2] . »

ولا شك أن انصراف الأستاذ الإمام إلى تدبر القرآن كان أوسع وأعمق وأوثق من انصراف رشيد ، فقد شغل رشيد نفسه بشواغل كثيرة ، أرهقته وبعثرته ، ولم يتوافر لديه من الطاقة ما توافر لدى هذا العقل العبقرى المتألق : عقل الأستاذ الإمام ، ولكن ليس معنى هذا أن نبخس رشيدا حقه ،أو أن نهون من جهده ، ومكانته فى التفسير .

---

(١) انظر المقدمة لكتاب منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، ص (ط) .
(٢) المرجع السابق ، ص (ح) .

وما أشبه الأستاذ الإمام بالذى أعطى البذور ، أو ألقاها فى التربة المخصبة ، وما أشبه رشيد بتلك التربة التى أنبتت وأعطت الكثير من الثمر والحصاد ، أو نقول : إن الشيخ كان كمن يشق الطريق الجديد ، ويضع على جانبيه أعلاماً وصُوًى هنا وهناك ، ورشيد كان يعبد الطريق ويوسعه ويصلحه ، ويغرس على جوانبه بواسق الأشجار أو نقول : إن الشيخ قد وضع المنهاج وضرب له طائفة من النماذج ، ورشيد أخذ فى تطبيق المنهج فأفلح فى الكثير من هذا التطبيق .

ويمكن أن ألاحظ — مع إجلالى لمكانة الأستاذ الإمام ، وإعجابى الشديد بعبقريته فى التفسير — أن تفسير السيد محمد رشيد رضا يظهر فيه بوضوح ما يلى :

١ — التوسع فى شرح معانى الكلمات الغريبة ، والعبارات اللغوية مع العناية بالجوانب البلاغية ، والتعرض أحياناً للقواعد النحوية ، وإيراد شواهد أو نصوص من كتب اللغة والأدب والشعر .

٢ — التوسع فى الاستعانة بالأحاديث النبوية والآثار الواردة المتعلقة بالسورة ، أو الآية .

٣ — ذكر مقدمات للسور ، وذكر خلاصات لها ، وهذه ناحية مهمة جدا ، وهى تحقق منهج النظر إلى السورة كوحدة تحقيقاً واسعًا .

٤ — التوسع فى الرد على شبهات المعاندين والمجادلين من الجهلة أو الملاحدة أو الضالين .

٥ — الاستعانة بالعلوم الطبيعية والمادية ومعارف العصر فى تقريب معانى التفسير ، وخاصة فى المسائل العلمية والاجتماعية .

٦ — ذكر المسائل الخلافية ، وترجيح بعض الأقوال فيها على بعض ، أو الإتيان برأى آخر فيها ، ويصحب ذلك غالباً شىءٌ من التأويل أو التخريج ، مع احتفاظ رشيد بسلفيته .

٧ — التخفيف بعض الشىء من الركون إلى حكم العقل فيما قد يعلو على إدراك هذا العقل .

٨ — الإكثار من قرن الآيات بمايماثلها من آيات أخرى فى القرآن ، أخذا بمبدإ تفسير القرآن بالقرآن .

٩ — الاستطراد إلى موضوعات يفيد العلمُ بها ، وإن لم تقو المناسبة بينها وبين المقام الذى سيقت فيه .

١٠— أسلوب رشيد أقرب وأخف ، واشتغاله بالصحافة والخطابة والسياسة له دخل فى ذلك ، وأما أسلوب الأستاذ الإمام فإنه أدسم وأحكم .

١١— رشيد يجنح إلى التطويل والإسهاب ، وأستاذه يميل إلى التركيز والإيجاز .

١٢— رشيد ينقل كثيراً من النصوص التى يريد الاستشهاد بها من أقوال المفسرين وغيرهم ، لأنه يطالع ويراجع ، ثم يكتب ويؤلف وبين يديه مصادره ومراجعه ، على حين كان الأستاذ الإمام لايفعل مثل هذا ، لأنه يلقى درسا يعتمد فيه غالباً على ذاكرته .

١٣ ـ التنبيه في أدب ووفاء على بعض ما يحتاج إلى النظر أو لمراجعة من كلام الأستاذ الإمام .

* * *

وإذا كان الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة قد بدا معتدلا في رأيه عن الأستاذ الإمام وخليفته ، فإن الدكتور طه حسين يبدو عنيفاً ، فلقد سألته عن رأيه في رشيد وتفسيره ، فقال : « لقد كنت ضده ، وخاصة بعد وفاة الشيخ محمد عبده ، لأن الشيخ رشيد استمر ينشر تفسير القرآن منسوباً إلى الإمام ، وأنا مقتنع كل الاقتناع أن مانشره الشيخ رشيد بعد وفاة الإمام منسوباً إليه ليس من كلام الإمام ، لأنني حضرت درسين من دروس الشيخ محمد عبده ، لم أدركه إلا فيهما ، وقد سمعته أول ماسمعته وهو يفسر قوله تعالى من سورة النساء : (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) .

هكذا تحدث الدكتور طه ، والآية التي ذكرها هي من أواخر الآيات التي فسرها الأستاذ الإمام ، لأن رقمها حسب عدالمصحف الذي اعتمد عليه رشيد هو مائة واثنان وعشرون ، ورقم آخر آية فسرها الأستاذ الإمام هو مائة وخمسة وعشرون .

وكذلك قال لي الدكتور طه : « إن الشيخ رشيدا كان في تفسيره يريد أن يعتقد الناس أنه هو لسان الشيخ محمد عبده » .

ومن يرجع إلى « تفسير المنار » يجد رشيدا يذكر أحياناً أنه يلخص كلام الأستاذ الإمام ، وأحياناً يذكر أنه يأتي بما يعتقد أنه

صورة ما قاله ، وأحياناً يقول : « قال الأستاذ الإمام ... » ثم يذكر ما ينقله عنه ، وينص على نهاية ما نقل ، ورشيد فى كثير من الأحيان يذكر كلام الشيخ محمد عبده أولا ، ثم يذكر كلامه هو مبتدئاً بكلمة : « أقول » أو : « وأقول الآن » أو : « وأقول أيضاً

وأحياناً يحب رشيد أن يذكرنا بأن الكلام ما زال لشيخه فيقول مثلا : « ثم تكلم الأستاذ الإمام » أو : « وانتقل الأستاذ الإمام إلى تفسير ... » أو : « وضرب الأستاذ مثلا ... » إلخ .

ولاشك أن رشيدا كان يحاول بهذا أن يضع حدودا بين كلامه وكلام الأستاذ الإمام حتى لايندرج جهد فى جهد ، ولا يضيع بيان فى بيان ، أو يختفى لسان وراء لسان ، وإن كان الواقع أن رشيد رضا لم يميز تمييزا كاملا واضحاً بين الكلامين ، بحيث يصعب كما أبنت أن يقوم الإنسان باستخلاص كامل أمين لأقوال الأستاذ الإمام وآرائه من بين الخضم الذى سبح بنا فيه السيد محمد رشيد رضا عليه رحمة الله.

ومع هذا كان السيد رشيد ينسب إلى الأستاذ الإمام عبارات يتوقف الإنسان فى الاقتناع بصدورها من متحدث يفسر مرتجلا ، كما كان شأن الأستاذ الإمام ، لأن هذه العبارات فيها صنعة تحتاج إلى تأن وروية .

فرشيد ينسب إلى الإمام مثلا هذه العبارة فى شأن الجاحد : « الجاحد الذى أنكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ، وكفر بنعمة العقل ، ورضى بحظه من الجهل [1] » .

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٠

وهنا نتساءل : أهذه العبارة المسجوعة فى توازن من صنع رشيد أم من صنع الإمام ؟ .

وكذلك ينسب رشيد إلى الإمام هذه العبارة : « ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها ، لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سُنَنَه [١] ، ولا يتبع فيها سَنَنَه [٢] » .

أفهذا الجناس المحتاج إلى صنعة وتكلف من ارتجال الأستاذ الإمام أم من بيان رشيد ؟ .

الذى يبدو لى — والغيب يعلمه الله — أن هذا وأمثاله من صنعة رشيد أتى بها بحسن نية ، لأن الأستاذ الإمام كان مرتجلا ، والمرتجل لا يحرص على هذه الصنعة ، ولا تتيسر له مع ارتجاله دائماً ، ولأن دروس التفسير كانت فى السنوات الأخيرة من حياة الأستاذ الإمام وكان قد تخلص حينئذ — أو كاد — من السجع الذى عرفه أو ألفه فى أول حياته .

وألاحظ هنا على عجل أن ثلاثة من أعلام الكتابة فى العصر الحديث جمعتهم روابط شخصية وفكرية ، وأدبية ، وتشابهوا فى الولوع بالسجع أول أمرهم ، ثم تخففوا منه أو أعرضوا عنه فى

---

(١) بضم ففتح : جمع سنة ، ويراد بها نظام الله فى كونه .

(٢) بفتحتين ، وسنن الطريق نهجه وجهته ، والعبارة وردت فى تفسير المنار ، ج ١ ص ٧١

أواخر حياتهم ، وهؤلاء الثلاثة هم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وخليفته السيد محمد رشيد رضا ، وأمير البيان شكيب أرسلان[١] .

ولو أن باحثا موفقاً عكف على دراسة التراث الأدبى الفنى لأعلام هذا العصر من جهة تنقلهم فى كتابتهم بين « التعمل والترسل » ، لخرج بدراسة واسعة ونافعة فى هذا المجال .

* * *

ومن مظاهر شخصية رشيد البارزة فى التفسير أنه لم يتحرج من نقد أستاذه الإمام فى بعض أقواله وآرائه ، فالأستاذ الإمام قد تكلم مثلا عن صفة « الرحمة » المنسوبة إلى الله سبحانه ، وأبان أنها محالة على الله تعالى ، إذا كانت بمعنى ما يلم من ألم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الإحسان إلى غيره ، وقال فيما قال : « فالمعنى المقصود ـ بالنسبة إليه[٢] ـ من الرحمة أثرها وهو الإحسان[٣] » .

ويأتى رشيد بعد حين ، فيزيد زيادات على تفسير سورة الفاتحة ، ومنها مراجعته للأستاذ الإمام فى هذه المسألة ، حيث يقول : « مانقلناه ، عن شيخنا فى معنى الرحمة (ص ٤٦) تبع فيه متكلمى الأشاعرة والمعتزلة ومفسريهم ، كالزمخشرى والبيضاوى ذهولا » .

---

(١) انظر فصل « السجع عند شكيب » فى كتاب « أمير البيان شكيب أرسلان » ج ١ ص ١٥٠ — ١٧٠

(٢) أى إلى الله سبحانه .

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٦

ويرى رشيد أن هذا الرأى من فلسفة المتكلمين الباطلة المخالفة لهدى السلف الصالح ، ويرى أن إطلاق هذه الصفات بحسب مدلولها اللغوى واستعمالها فى البشر محال على الله ، وأن قاعدة السلف هى أن نثبت هذه الصفات ونمرها كما جاءت ، مع تنزيه الله تعالى عن صفات الخلق ، فنقول : إن لله رحمة حقيقية ، ولكنها لاتشبه رحمتنا ، وإما أن نجعلها من باب المجاز اللغوى فنقول : «إن واضع اللغة وضع هذه الألفاظ لصفات المخلوقين فاستعملها الشرع فى الصفات الإلهية المناسبة لها ، مع العلم بعدم شبهها بها من باب التجوز[1] » .

ويورد رشيد عن أستاذه عبارة يفيد ظاهرها القول بأن ضمير «هو» فى قول الله تعالى : (مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُم الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ) يعود إلى إبراهيم . ثم يعلق رشيد على هذا الرأى بقوله : « ظاهراستشهاد شيخنا بالآية أنه كان يفهم أن الضمير فى قوله (هو سماكم المسلمين) يرجع إلى إبراهيم ، والتحقيق أنه يرجع إلى الله تعالى[2] » .

ويرتضى الأستاذ الإمام رأىَ من يقول إن المراد بغضب الله لازمه وهو العقاب ، فيأتى رشيد ويقول : «وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب ، ووافقهم الأستاذ الإمام ، والذى ينطبق على مذهب السلف أن يقال إنه شأن من شئونه تعالى ، يترتب عليه عقوبته وانتقامه[3] »

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٦ ، ٧٧

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٧٠ (٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٦٨

ورشيد فى هذه المسألة لايصرح بالمعارضة ، بل يكتفى بالتذكير برأى السلف ، وفى ذلك التذكير مافيه من تعقيب ضمنى فيه روح المخالفة .

ويورد رشيد عن الأستاذ الإمام عبارة تفيد أن : « الفقراء عيال الله » ثم يعلق رشيد فى الهامش بقوله : « أخذ الأستاذ هذا التفسير من الحديث المشتهر : (الفقراءُ عيال الله) إلخ . وإنما الرواية : (الخلق عيال الله) ، وهو ضعيف السند[1] » .

ورشيد فى نقده هنا يذكر أمرين : يصحح الرواية ، وينص على ضعف السند .

وإذا كانت الشواهد السابقة تدل على نقد رشيد لأستاذه الإمام نقدا صريحا أو ضمنيا ، فإن هناك شواهد تدل على أن رشيدا كان يستدرك على شيخه ، لا بالنقد أو التخطئة ، وإنما بإضافة أشياء إلى ماذكره شيخه ، وكأنه بهذه الإضافة يبدو كمن يريد أن نفهم عنه أنه يعرف الكثير .

ومن هذه الشواهد أن الأستاذ الإمام تكلم عن ضروب الهداية ، بمناسبة التعرض لتفسير قول الله تعالى على لسان عباده : (اهدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقِيم) ، وذكر أن الله سبحانه منح الإنسان أربع هدايات : هداية الوجدان ، وهداية الحواس ، وهداية العقل ، وهداية الدين .

---

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٨ .

ويأتى رشيد بعد هذا فيقول : « وأزيد هنا أن فى الإسلام من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالإسلام ، ويُرى أنه مما يستدرك على ماقرره الأستاذ الإمام » .

ويتكلم رشيد بعد هذا عن بناء العقائد فى القرآن الكريم على البراهين العقلية والكونية وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع . . . إلخ [1] . وأظن أنى لست فى حاجة إلى النص على أننى لا أقارن بين آراء الإمام وآراء تلميذه ، ولا أحكم فى هذه الشواهد السابقة لأحدهما على الآخر ، وإنما أريد أن أدلل على أن رشيدا كانت له شخصية فى التفسير إلى جانب شخصية أستاذه ، ولم يكن ظلا له أو تابعا فى كل الأحوال .

ولقد يبرع رشيد فى تلمس الحيلة لإبراز هذه الشخصية ، فلا يخالف شيخه ولا يعارضه ، بل ولا يستدرك عليه ، كما بدا فى الشواهد الماضية ، بل يتخذ موقف المؤيد لكلام شيخه المؤكد لرأيه ، ومن هذا الموقف الذى اتخذه رشيد يدلل لنا ـ بطريق غير مباشر طبعا ـ على سعة اطلاعه وطول باعه .

من أمثلة ذلك أن الشيخ الإمام ذكر أن الفرق بين اسمى « الرحمن والرحيم » هو أن صيغة « فَعْلان » ـ بفتح فسكون ـ تدل على وصف فعلى فيه معنى المبالغة ، وهو فى استعمال اللغة للصفات العارضة : كعَطْشان ، وغَرْثان ، وغَضْبان ؛ وأما صيغة « فَعِيل » فإنها تدل على المعانى الثابتة ، كَعليم ، وحكيم ، وحليم .

---

(١) فسير المنار ، ج ١ ص ٦٢ — ٦٨ .

فلفظ « الرحمن » يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، ولفظ « الرحيم » يدل على منشإ هذه الرحمة ، وعلى أنها صفة ثابتة واجبة .

ويأتى رشيد فيذكر أن ابن القيم فرق بين الكلمتين ، ولكنه عكس فى الدلالة ، فقال إن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف ، الثانى الفعل ، ويضيف رشيد أن ابن القيم ذكر أن وزن « فعلان » فيه سعة الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به ، مثل قولهم : غضبان للممتلىء غضبا ، وكذلك ندمان ، وحيران ، وسكران ، ولهفان لمن ملىء بذلك .

ويعقب رشيد على هذه الأمثلة التى ذكرها ابن القيم فيقول : « أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ماقاله الأستاذ الإمام من أن صيغة (فَعْلان) تدل على الصفة العارضة ، ولا تدل على الدائمة [٢] ، فاحتيج إلى صيغة أخرى ، تدل على الصفة الثابتة الدائمة ، وهى صيغة (فعيل) . فهذا أقوى ماقيل فى نكتة الجمع بين الاسمين الكريمين بالصيغتين » إلخ [٣] .

أرأيت ؟ . إنه يؤكد كلام شيخه ، وهو فى الوقت نفسه يرينا مدى اطلاعه الذى يستطيع به أن يضيف ويزيد .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٦٢ — ٦٨

(٢) كأن تعليل ذلك هو أن الانسان لايظل نادما أو حائرا أو مخمورا أو متلهفا ، وإن اشتدت به تلك الصفات أحيانا لأنها تعرض ثم تزول .

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٨ . وتلاحظ هنا ارتباط البحث بالناحية اللغوية .

ومن أمثلة ذلك أن رشيدا يذكر تفسير الأُستاذ الإمام لقوله تعالى : (رَبِّ الْعالَمِينَ) ثم يقول : «وأزيد عليه أن بعض العلماء قال : إن المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن ، ويؤثر عن جدنا الإمام جعفر الصادق — عليه الرضوان — أن المراد به الناس فقط ، كما يدل على هذا وذاك استعمال القرآن فى مثل (أَتأْتُونَ الذُّكرانَ مِنَ العَالَمِين) أى الناس ، ومثل : (ليكون لِلْعَالَمِين نذِيَرا) .

ويرى بعضهم أنه — على هذا — مشتق من العلم . ومن قال: يعم جميع أجناس المخلوقات يرى أنه مشتق من العلامة .

وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم ، وهذه التربية قسمان : تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية ، وتربية شرعية تعليمية ، وهى ما يوحيه إلى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به ، فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ، ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه ، بغير إذن منه تعالى[١] .

وهكذا يمضى رشيد فى الأجزاء الأُولى من «تفسير المنار» يؤكد شخصيته إلى جوار شخصية أُستاذه العظيم .

* * *

---

(١) تفسير سورة الفاتحة ، ص ٣١ ، وتفسير المنار ، ج ١ ص ٥٠

العقل فى تفسير المنار :

من المناسب أن نذكر كلمة عن الناحية العقلية فى تفسير المنار لأن التفسير بالعقل كما عرفنا يدفع إلى التدبر فى معانى الألفاظ والعبارات ، وهذا جهد لغوى وأدبى ، يستتبع فى كثير من الأحيان الاستشهاد أو الاستئناس للتفسير المختار بشواهد من بليغ الكلام العربى .

والاحتكام إلى العقل ظاهرة واضحة فى «تفسير المنار» وفى القدر المشترك بين محمد عبده ورشيد رضا على وجه التخصيص .

ورشيد رضا يرى أن أصول الدين فى العقائد وحكمة التشريع مبنية على إدراك العقل لها ، واستبانته لما فيها من الحق والعدل ومصالح العباد ، وسد ذرائع الفساد[1] .

ومن أمثلة الجنوح إلى العقل فى «تفسير المنار» القول بأن جنة آدم وحواء التى كانا فيها ثم أخرجا منها هى بستان من البساتين ، كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وأنه ليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها .

ويعتمد التفسير هنا على أن الجنة – كما يفهمها أهل اللغة – هى البستان أو المكان الذى تظلله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه[2] .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٢١

(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٧٧

وكذلك من أمثلة الجنوح إلى العقل فى «تفسير المنار» أنه يقرر أنه ليس هناك نص على أن «حواء» خلقت من ضلع آدم وأن قوله تعالى : (وخَلَقَ منها زوجها) ليس نصا فى ذلك ، لأن المعنى خلق من جنسها . مثل قوله تعالى :(ومن آياته أن خَلَق لَكُم من أنفُسِكُم أزْوَاجاً) .

وأما الحديث الذى يقول : «فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج» فهو على حد قوله تعالى : (خُلق الإنسانُ من عَجَل)[١] .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما ذكره تفسير المنار فى قوله تعالى : (وإذ ابْتَلى إبراهيمَ ربّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتمهنَّ) حيث قال : « الكلمات جمع كلمة ، وتطلق على اللفظ المفرد ، وعلى الجُمَل المفيدة من الكلام والمراد منها هنا مضمونها من أمر ونهى » . ثم جاء فيه بعد ذلك : «ولم يذكر الكلمات ماهى ، ولا الإتمام كيف كان ، لأن العرب تفهم المراد بهذا الإجمال ، وأن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عَامَلَ إبراهيم معاملة المبتلى ، أى المختبر له ، لتظهر حقيقة حاله ، ويترتب عليها ما هو أثر لها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله ، بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه ، وإتيانه به على وجه الكمال .

هذا هو المتبادر ، ولكن المفسرين لم يألوا فى تفسير الكلمات والخبط فى تعيينها[٢] .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره التفسير عن قوله تعالى :«واتخذوا مِنْ مَقام إبراهيمَ مُصَلى) حيث اختار التفسير أن « المصلى » هنا موضع

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ (٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٣

الصلاة بمعناها اللغوى العام ، وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقًا ، وقال رشيد إن حمل الصلاة هنا على معناها اللغوى أظهر [١] .

ومن اللمحات العقلية اللغوية البلاغية الرائعة ماجاء فى تفسير المنار عن قوله تعالى (فإنْ آمنوا بمثل مَاآمنْتُم به فَقَد اهْتَدوْا) ، حيث قال بعض المفسرين إن لفظ «مثل» هنا زائد ، ولكن صاحب تفسير المنار يعلق على ذلك بقوله :

«واستنكر الأُستاذ الإمام ذلك ، واستكبره كعادته ، فإنه يخطئ كل من يقول : إن فى القرآن كلمة زائدة ، أو حرفا زائدا وقال : «إن (المثل) هنا معنى لطيفا ونكته دقيقة .

وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون بالله وبما أنزل على الأنبياء ، ولكن طرأت على إيمانهم بالله نزغات الوثنية ، وأضاعوا لُبابَ ما أنزل على الأنبياء ، وهو الإخلاص والتوحيد وتزكية النفس ، والتأليف بين الناس ، وتمسكوا بالقشور ، وهى رسوم العبارات الظاهرة ، ونقصوا منها وزادوا عليها ما يبعد كلا منهم عن الآخر ، ويزيد فى عداوته وبغضائه له ، ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يدعون العمل بالدين .

فلما بين الله لنا حقيقة دين الأنبياء ، وأنه واحد لاخلاف فيه ولا تفريق ، وأن هؤلاء الذين يدعون اتباع الأنبياء قد ضلوا عنه فوقعوا فى الخلاف والشقاق ، أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوهم

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

إلى الإيمان الصحيح بالله ، وبما أنزل على النبيين والمرسلين ، بأن يؤمنوا بمثل ما نؤمن نحن به ، لا بما هم عليه من ادعاء حلول الله فى بعض البشر ، وكون رسولهم إلهاً ، أو ابن الله ، ومن التفرق والشقاق لأجل الخلاف فى بعض الرسوم والتقاليد .

فالذين يؤمنون به فى الله ليس مثل الذى نؤمن به ، فنحن نؤمن بالتنزيه ، وهم يؤمنون بالتشبيه وعلى ذلك القياس .

فلو قال : « فإن آمنوا بالله وبما أُنزل على أولئك النبيين وما أُوتوه ، فقد اهتدوا » ، لكان لهم أن يجادلو بقولهم : إننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ (مثل) هو الذى يقطع عرق الجدل .

على أن المساواة فى الإيمان بين شخصين ، بحيث يكون إيمان أحدهما كإيمان الآخر فى صفته وقوته وانطباقه على المؤمن به،وما يكون فى نفس كُل منهما من متعلق الإيمان يكاد يكون محالا ، فكيف يتساوى إيمان أمم وشعوب كثيرة ، مع الخلاف العظيم فى طرق التعليم والتربية والفهم والإدراك ؟

ولوكانت القراءة :(فإن آمنوا بما آمنتم به)ـ كما روى عن ابن عباس فى الشواذ ـ لكان الأولى أن يقدر (المثل) ، فكيف نقول ـ وقد ورد لفظ (مثل) متواترا : إنه زائد[1] ؟

ومن أمثلة استخدام العقل فى « تفسير المنار » ، ما جاء فيه بشأن الحجر الأسود ، حيث قرر أنه لا مَزِيَّة له فى ذاته ؛ فهو كسائر

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٨٤ .

الحجارة ، وإنما استلامه أمر تعبدى ، فى معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه إليها توجها إلى الله الذى لا يحدده مكان ، ولا تحصره جهة من الجهات[1] .

وكذلك ما جاء فى تفسير المنار عن صخرة بيت المقدس ، حيث ذكر أنها ليست بأفضل من سائر الصخور فى مادتها وجوهرها ، وليس لها منافع أو خواص لا توجد فى غيرها ولا هيكل سليمان نفسه — من حيث هو حجر وطين — أفضل من سائر الأبنية ، وكذلك يقال فى الكعبة والبيت الحرام[2] .

ولاشك أن تفسير النص القرآنى فى ضوء العقل وفقه اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، يعطى الإسلام قوة وصلابة عند الذين يعتزون بالعقل والعلم المادى ، ولذلك يروى السيد رشيد رضا أن أحد النوابغ من رجال القضاء الأذكياء قال للأستاذ الإمام : « إنك بتفسيرك للقرآن بالبيان الذى يقبله العقل ، ولا يأباه العلم ، قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذى يهدمون فيه الدين ، ويستريحون من قيوده ، وجهل رجاله وجمودهم » .

ويعلق السيد رشيد على هذا بأنه اتبع طريقة العقل مع بعض المنكرين لوجود الله تعالى ، فلم يستطيعوا لها دحضا[3] .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤٦٧
(٢) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٣
(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٧٤

ولكن مدرسة « تفسير المنار » التى جعلت من أهدافها التوفيق بين الدين والعقل ، أصابها طائف من المبالغة ، حيث أسرفت أحيانا فى الخضوع للعقل . وهو أمام الغيب قاصر مهما كانت قوته ، وأسرفت أحيانا فى الحذر والاحتراس من تقبل الغيبيات والتسليم بها ، وإذا كان الناس قد حمدوا لها تحديد نطاق الخوارق والغيبيات فى تفسير القرآن الكريم ، وتوفيقها بين كلام الله وسننه الكونية المألوفة ، ومقاومتها طوفان الخرافات والإسرائيليات والأساطير التى تسربت إلى رحاب التفسير ، واستعانتها بمقررات العلم الحديث فى إقناع أهله بالدين وتعاليمه ....

إذا كان الناس قد حمدوا لها هذا كله ؛ فإنهم قد فزعوا حين رأوا الأمر قد زاد عن حده ، فكاد ينقلب إلى ضده . ومن أمثله المبالغة فى تحكيم العقل فى « تفسير المنار » ، ذكر أن الملائكة هى القوى والأفكار الموجودة فى النفوس ، وأن المراد بسجود الملائكة لآدم هو تسخير القوى للإنسان فى هذه الحياة وأن قصة آدم بما فيها من محاورة الملائكة ، وتعليمه الأسماء ، وسجود الملائكة له ... إلخ ، هى من باب « التمثيل » لا أنها وقعت بالفعل [1] .. إلخ.

والعجيب أن السيد محمد رشيد رضا قد أشار إلى خطإ من يقول إن الدليل العقلى هو الأصل ، فيرد إليه الدليل السمعى ، ويجب تأويله لأجل موافقته له مطلقا ، ويعلق رشيد على هذا بقوله :

« والحق كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ إن كلا من

(١) انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩

الدليلين إما قطعى ، وإما غير قطعى ، فالقطعيان لايمكن أن يتعارضا حتى نرجح أحدهما على الآخر . وإذا تعارض ظنى من كل منهما مع قطعى ، وجب ترجيح القطعى مطلقا . وإذا تعارض ظنى مع ظنى من كل منهما رجحنا المنقول على المعقول ، لأن ماندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التى يكثر فيها الخطأ جدا .

ليت مافى « تفسير المنار » كله خضع لهذه القاعدة المعتدلة المستقيمة .

* * *

والعجيب أيضا أن الدكتور طه حسين قال لى عن إخضاع التفسير للعقل : (لى على الشيخ محمد عبده اعتراض ، فإن تأويله لنصوص القرآن وحرصه على أن يكون نص القرآن ملائما كل الملاءمة للعلم الحديث ، مما أخالفه فيه ، فهو مثلا يقول عن الحجارة الموصوفة فى سورة الفيل بأنها من سجيل : إنها جراثيم ، وهذا توسع فى تحكيم العقل ، والمسلمون الأوائل وهم صحابة الرسول لم يفهموا هذا .

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) ذكر الأستاذ الإمام فى تفسير «جزء عم» أن داء الجدرى والحصبة فشا فى الجيش المهاجم للكعبة ، فكان سبب ذلك الهلاك ، كما ذكر أن الطير الأبابيل قد تكون من جنس البعوض والذباب يحمل جراثيم الأمراض ، (انظر ص ١٢٠) .

والله يفعل مايشاء ولكن الإنسان يفعل مايستطيع . والإنسان الآن قد وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية والغازات السامة ، مما لم يكن العرب يعرفونه فى ذلك الوقت ، فالله يخبرنا بأنه أرسل حجارة من سجيل ، ولابد أن آخذ القرآن بلا تأويل ، وأن أقبل النص القرآنى كما هو ، والعلم لم يحط بكل شىء ، والله وحده ، هو الذى يعلم كل شىء .

ثم أضاف الدكتور طه قوله : « إن بعض المستشرقين يذهب هذا المذهب ، فيقول إن الفيل لم يكن فيلا ، بل كان قائدا من قواد الروم جاء مع أبرهة ، واسمه (أفيلاس) ، وقد سمعت هذا من المسيو جاستون فييت Gaston Wiet الذى كان مديرا لدار الآثار العربية » .

* * *

إشارات اجتماعية وسياسية :

من الأمور التى لاحظتها فى تفسير المنار أن رشيدا كان ينتهز فرصة التفسير ليضع فى كلامه إشارات اجتماعية أو سياسية تتعلق بالوطن العربى أو بالعالم الإسلامى ، ومن أمثلة ذلك أنه فى الجزء الأول يشير إلى النزعة الفرعونية التى بدت من بعض المصريين ، ودفعتهم إلى بغض إخوانهم فى اللغة والدين ممن هاجروا إلى مصر ، وقال رشيد هذا سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) ، ولما كانت سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧) أضاف إلى قوله السابق أن تلك النزعة الفرعونية قد

ند قويت عند القبط وزنادقة المسلمين [١] . ورشيد قد لقى متاعب من هؤلاء .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه تعرض فى سورة الأعراف لتفسير قوله تعالى : (قال قدْ وَقَع عَلَيْكُم منَ رَبِّكُم رِجْسٌ وَغَضَبٌ) وفى نهاية تفسيره للآية قال : « اللهم تب على أمتنا وارفع عنها رجسَ الأجانب الطامعين ، وأعوانهم المنافقين » [٢] .

وهو قد قال هذا سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) والاحتلال البريطانى جاثم على البلاد ، والثورة المصرية تجاهد لزحزحته ، وبعض الخونة يسير فى ركاب الإنجليز .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه فى تفسيره لسورة الأعراف يتحدث عن إباحة الحكومة المصرية للزنى ، وسكوت علماء الدين على ذلك ، ويقول إن هذا بإغواء الافرنج ، كما يتحدث عن دعوة بعض المصريين إلى أن تكون حكومة مصر غير دينية ، وأن تلغى المحاكم الشرعية اقتداء بالحكومة التركية ، وأن مصطفى كمال أتاتورك فى الوقت نفسه استدل على جواز إقامة التماثيل شرعاً بوجودها منصوبة فى مصر [٣] .

وعندما يفسر السيد رشيد قول الله تعالى فى سورة هود : (وَاتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) يعرض بالملوك الطغاة المستبدين ، ويقول : « فهل يعتبر بهذا بقايا الملوك الجبارين فى الأرض قبل انقراضهم [٤] »

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٣١٢

(٢) تفسير المنار ، ج ٨ ص ٤٩٩ . وقد بدأ رشيد فى كتابه هذا الجزء فى رمضان سنة ١٣٣٨ هـ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣٢

(٤) تفسير المنار ، ج ١٢ ص ١٢٠ . وقد بدأ رشيد فى تفسير هذا الجزء سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤م) .

وعندي أن هذه الإشارات السياسية والاجتماعية لها قيمتها الكبيرة فهى تعطينا ملامح للعصر الذي عاش فيه رشيد ، وتعرفنا بالتيارات والأحداث التى كانت خلاله ، كما أننا نفهم منها أن رشيدا لم يكن بمعزل عن مجتمعه ، بل كان يمتزج به ويتعرف إليه ويحكم عليه ، وكان أيضاً يستخدم كتابته — حتى فى التفسير — للحث على مايؤمن به ، وللتنفير مما يراه ضارا أو سيئاً .

ومن المفيد جدا أن يتتبع متتبع هذه الإشارات خلال التفسير وخلال آثار رشيد الأخرى ، وبذلك التتبع تتكامل صورة واضحة المعالم لتأثر رشيد بعصره ، وتأثيره فى عصره ، والجوانب هذا العصر بمافيه من اتجاهات وتيارات .

* * *

ملاحظات على تفسير المنار :

ألاحظ على « تفسير المنار » ما يلى :

أولاً : الاستطرادات الطويلة التى تشبه البحوث المستقلة ، والتى توجد فجوات واسعة ، تحول دون متابعة التفسير ، ورشيد نفسه يشير إلى هذه الاستطرادات ويقول : « وأستحسن للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير[1] » .

ثانياً : الأسلوب الخطابى الذى يبدو أحيانا فى « تفسير المنار » ولعل رشيدا نفسه قد أحس بهذا اللون الخطابى الذى يفتح الباب

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ١٦ .

للتطويل والإسهاب ، فعمد إلى اختصار « تفسير المنار » فى أجزاء موجزة تحت عنوان : « التفسير المختصر المفيد » ، الذى يمكن أن يز اد علمنا بأمره عند الحديث عن كتب رشيد رضا .

ثالثاً : عدم الاستقرار أحياناً فى التفسير ، ومن أمثلة ذلك أنه تكلم عن السبب فى عدم نزول « بسم الله الرحمن الرحيم » فى أول سورة التوبة ، فقال :

« ولذلك لم تنزل البسملة فى أول سورة التوبة التى فضحت آياتها المنافقين ، وبدئت بنبذ عهود المشركين ، وشرع فيها القتال بصفة أعم مما أنزل فيها قبلها من أحكامه[1] » .

فنفهم من هذا أن عدم ذكر البسملة هو أن السورة منذرة ، وليست موطنا داعيا إلى التحدث عن الرحمة التى ذكرت كثيرا فى القرآن ، ولكن رشيدا يعود فى الجزء العاشر من التفسير إلى الحديث فى الموضوع ، فلا يجعل هذا القول هو المختار ، بل يقول عن سورة التوبة : « ولم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة فى أولها لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، هذا هو المعتمد المختار فى تعليله ؛ وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة ، والمشهور أنه لنزولها بالسيف ونبذ العهود ، وقيل غير ذلك مما فى جعله سبباً وعلة نظر[2] » .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٦ .

(٢) تفسير المنار ، ج ١٠ ص ١٧٤.

ففى الموطن الأول يلوح لنا أن رشيدا قد اختار الرأى القائل بأن سورة التوبة حذفت منها البسملة لأنها إنذار وتشريع قتال : وفى الموطن الأخير يرى أن المعتمد المختار غير ذلك ، وكلمة «المشهور» التى ذكرها لاتقطع بأن هذا هو المعتمد ، فقد يكون هناك قول مشهور ، ومع ذلك لايكون هو المعتمد المختار .

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه تحدث فى الجزء الأول من التفسير عن اسم الله الأعظم ، فقرر أن اسمى « الحى والقيوم » هما مع اسم الجلالة (الله) : « مايعبر عنه بالاسم الأعظم ، هو القول الراجح عندنا » .

ولكنه حينما بلغ تفسير قوله تعالى : (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم) فى الجزء الثالث قال كلاما لايفيد تأكيده لما سبق أن قرره . إنه قال : « وهذا الذى قلناه فى بيان معنى (الحى القيوم) يجلى لمن وعاه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا هو الاسم الأعظم ، أو قال (أعظم أسماء الله الحى القيوم) ، وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، عن أسماء بنت يزيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : (اسم الله الأعظم) فى هاتين الآيتين : (وَإِلَٰهُكُم إِلَٰهٌ واحد لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَٰن الرَّحِيم) وفاتحة آل عمران : (الٓمٓ . الله لَا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ[1]) .

فهو فى الموطن الأول صرح بأن الاسم الأعظم يتكون من ثلاثة أسماء : الله ، الحى ، القيوم . ولكنه فى الموطن الأخير لم يصرح بذلك ، بل أفهمنا أن الاسم الأعظم يتكون من اسمين هما : الحى ، القيوم . وإن

(١) تفسير المنار ، ج ٣ ص ٢٨ .

كنا نستطيع أن نستنبط من الشواهد التى ذكرها الأسماء الثلاثة التى يتكون منها الاسم الأعظم .

رابعاً : العجلة أحياناً فى كتابة التفسير ، وعدم التهيؤ الكافى لصياغته بإتقان وإحسان ، وكل لون من ألوان الكتابة قد تحتمل فيه العجلة ، إلا كتاب الله تعالى العلى الأعلى ، فإنه يلزمه التدبر ، والاستعداد ، والتفرغ عند كتابة تفسيره .

ورشيد – كما يحدثنا – كان يكتب التفسير أحياناً وهو على سفر ، وهو مثلا يقول فى حديثه عن رحلته إلى الحجاز : «وتأخرت عنهم لإتمام ما كنت بدأت من كتابة نبذة من التفسير للمنار ، لإرسالها مع البريد من جدة ، مع كتابة مالابد من كتابته إلى مصر [1] » .

وأغرب صور العجلة وقلة الاستقرار فى كتابة رشيد للتفسير هو ما فعله فى الجزء الخامس من « تفسير المنار » ، مما ترشدنا إليه عبارة ختم بها هذا الجزء ، وفيها يقول :

« تم الجزء الخامس من التفسير ، وقد نشر فى المجلد الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، من المنار ، بدأت بكتابة هذا الجزء وأنا فى القسطنطينية سنة ١٣٢٨هـ ، ففاتنى تصحيح ما طبع منه فى أثناء رحلتى تلك ، وأتممته فى أثناء رحلتى هذا العام (١٣٣٠هـ) إلى الهند

فمنه ماكتبته فى البحر ، ومنه ماكتبته فى المدن والطرق بالهند ، ومنه ما كتبته فى مسقط والكويت والعراق . وقد أتممته فى المحجر الصحى

(١) المنار ، المجلد ٢٠ ص ١٠٨

بين حلب وحماه ، فى أوائل شعبان سنة ثلاثين وثلاثمائة وألف ، ونشر آخره فى جزء المنار الذى صدر فى آخر رمضان ، ولم أقف على تصحيح شىءٍ مما كتبته فى أثناء هذه الرحلة أيضاً [١] » .

لعل رشيدا أراد بهذا أن يشير إلى اقتداره على الكتابة وهو مشغول أو غير مستقر ، أو لعله أراد بذلك أن يلتمس لنفسه عذرا فيما يحدث من تقصير أو من هفوات الطبع ، ومهما يكن الدافع فتفسير كتاب الله ينبغى له الاستقرار والتفرغ .

ولا يستطيع عارف بقدر كتاب الله تعالى أن يرتضى خطة رشيد فى كتابته التفسير التى يقول عنها : « وإننا نكتب التفسير دائماً فى وقت ضيق ، ونعطى ما نكتبه للمطبعة من غير قراءة ولا مراجعة ، ثم لا نراه إلا عند تصحيح ما يجمع فى المطبعة ، وكلما جمع شىء يطبع وإن لم تتم كتابة ما يتعلق به [٢] » .

خامسا : انتقال تفسير المنار من مختصر إلى متوسط ، إلى طويل ، فرشيد يذكر فى نهاية تفسير « الفاتحة » المنشور فى الجزء الأول من «تفسير المنار» أن غرضه الأول من كتابة تفسير الفاتحة ، ونشره فى مجلة المنار ، كان بيان ما يستفيده من دروس شيخه الأستاذ الامام ، مع شىء مما يفتح الله به عليه فى إيجاز .

---

(١) تفسير المنار ، ج ٥ ص ٤٧٦ . وانظر مثل هذا فى ج ٤ص٤٨١ .

(٢) تفسير المنار ، ج ٧ ص ٩٤ .

فا ختصر فيما كتبه أولا ، ولما طبع تفسير الفاتحة على حدته زاد فيه بعض الزيادات وكان قد بدا له أن يجعل هذا التفسير مطولا مستوفى . ولما بدأ طبع الجزء الأول من التفسير ، وانتهى من طبع الصفحات الخاصة منه بتفسير الفاتحة ، عززه بفوائد ألحقها بآخر تفسير هذه السورة[١] .

ولقد صرح رشيد فى مواطن أخرى بأنه يدخل تنقيحا وإضافة على التفسير بعد نشره فى المجلة ، مثل أن يقول : «وبعد أن طبع تفسير الآية[٢] فى المنار نقحناه ، وزدنا فيه فوائد أثبتناها فى نسخة التفسير التى تطبع على حدتها[٣] » .

ولو أن رشيدا كان فى هذه التغييرات يسير على نظام محدد واضح لهان الخطب ولكنه تارة يضع الإضافة فى وسط الكلام ، وتارة يضعها فى الهامش ، وتارة يجعلها فى آخر الموضوع ، وتارة يجعلها فى نهاية الجزء مع استدراكات أخرى . . . إلخ .

التفسير بعد رشيد :

انتهى رشيد رضا رحمه الله فى التفسير إلى الآية الحادية بعد المائة من سورة يوسف ، وهى : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ

(١) انظر تفسير المنار ، ج ١ ص ٧٢ .

(٢) هى قوله تعالى : «ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها . . . » فى أول سورة النساء .

(٣) المنار ، المجلد ١٣ ص ٣١ .

وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٍّ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) .

ثم لحق رشيد بربه ، وكان من حوارييه وأصدقائه العالم السورى الشيخ محمد بهجة البيطار ، فواصل البيطار تفسير سورة يوسف حتى نهايتها ، وقد نشر تفسير هذه السورة مستقلا فى كتاب كتب مقدمته الشيخ البيطار ، كما نشر فى الجزء الثانى من المجلد الخامس والثلاثين من مجلة المنار .

ثم طلب الأستاذ محيى الدين رضا — ابن أخى رشيد رضا — من الأستاذ البيطار أن يواصل كتابة التفسير لنشره فى مجلة « المنار » التى أريد لها أن تستمر ، فاستجاب البيطار لذلك ، وبين يدىَّ رسالة منه إلى الأستاذ محيى الدين رضا بتاريخ ٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٥هـ . ومنها قوله : « أما إتمام هذا التفسير الكبير : تفسير المنار المنير ، المنقطع النظير ، فأى مانع يمنعنى منه ، لولا الشعور بالضعف والتقصير ؟ . على أننى اعتزمت بحول الله وتوفيقه المضى فى هذه السبيل : سبيل إتمامه ... » إلخ .

ولكن ، ما كل مايتمنى المرءُ يدركه ، فلم يستمر صدور « المنار » طويلا كما عرفنا ، وبوقوفه عن الصدور انقطع التفسير ، ثم حاول بعض العلماء أن يواصل التفسير ، فيبدأ حيث انتهى السيد رشيد رضا رحمه الله والأستاذ البيطار ، وكتب فعلا تفسيرا لجانب من سورة الرعد نشر فى الأعداد الستة التى أصدرها

من المنار بعد وفاة السيد رشيد كما عرفنا ، ثم وقف المنار عن الصدور ، فانقطع بذلك التفسير .

* * *

اقتراحى بشأن تفسير المنار :

أقترح مايلى بشأن تفسير المنار :

١ ـ طبع هذا التفسير طبعة مصححة متقنة مضبوطة ، لأن الطبعة الأولى منه نادرة جدا ، والطبعتين اللتين صدرتا منه بعد ذلك مليئتان بالأخطاء المطبعية ، حتى إنك تجد الجزء من أجزائها وقد ألحقت به قائمة لتصحيح الأخطاء تستغرق نحو ثلاث عشرة صفحة أو أكثر .

٢ ـ وضع الترقيم الكافى فى هذه الطبعة المقترحة ، لتمييز كلام الأستاذ الإمام عن كلام السيد رشيد على قدر الإمكان .

٣ ـ ضبط الكلمات الغريبة فى التفسير بالشكل وتوضيحها بالشرح المختصر ، ولأن الطبعات السابقة لم يشكل فيها إلا نص الآيات عند ذكرها لأول مرة ، وفيها مفردات غريبة تركت بلا إيضاح .

٤ ـ التعليق على مايحتاج إلى تعليق من التفسير .

٥ ـ إلحاق الاستدراكات والتصويبات التى ذكرها رشيد فى أواخر الأجزاء بأماكنها المتعلقة بها داخل كل جزء .

٦ ـ استنهاض همم المتخصصين فى التفسير إلى إكمال تفسير القرآن الكريم على الخطة التى سار عليها الأستاذ الإمام والسيد رشيد

رضا ومن حيث انتهيا ، فإن ذلك أجدى على المسلمين من عودة كل كاتب فى التفسير إلى فاتحة المصحف والبدء منها فى التفسير .

٧ — استنهاض همة بعض المتخصصين فى التفسير لإكمال ماشرع فيه رشيد من كتابة « تفسير مختصر مفيد » يستخلص من تفسير المنار الكبير .

لقد وجدنا من يخلف الشيخ محمد عبده فى شخص السيد محمد رشيد رضا ، فهل نجد من يخلف السيد محمد رشيد رضا ؟

رشيد رضا والشعر

رشيد رضا الشاعر

أول صلته بالشعر :

هناك كثير ممن سمعوا باسم السيد رشيد رضا أو قرءوا له لايعرفون أنه كان شاعرا ، وهناك كثير من الشعراء والأدباء لايعرفون أن له قدرا من الشعر صالحاً لشغل ديوان غير صغير ، ولعل السبب فى ذلك أن صفات الداعية الدينى ، والمفسر للقرآن ، والصحفى الإسلامى ، والمشتغل بالقضية العربية ، غلبت صفة الشاعر فيه ، كما أن صاحب « المنار » لم يعن بجمع شعره ، ولا بنشره كاملا ولا بحفظه كله فى ذاكرته وروايته لمن ينقله ، بل تفرقت أجزاء هذا الشعر ، ونسى رشيد الكثير منه ، وأصبح جمع مايمكن جمعه منه عملا شاقا يحتاج إلى صبر وتتبع .

وقد عُنيت بتتبع شعر رشيد ، وجمعت منه قدرا كبيرا ، واستطعت أن أعثر على الأصل المخطوط بيده لقصيدته الكبرى : « المقصورة الرشيدية » التى لم تنشر من قبل كاملة ، والعثور على هذه المقصورة بالصورة التى وفقت إليها كسب أدبى له قيمته وأهميته ، وسأتحدث عن هذه المقصورة فى فصل خاص .

ولقد ذكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن الشعر قد اتجه إلى الفحولة والجزالة منذ نشبت الثورة العرابية لأمرين : الأول سريان الشعر القديم — وهو شعر الفحول المطبوعين المشهود لهم بالسبق فى البلاغة والأستاذية — بين أيدى المتأدبين والقراء لظهور الطباعة

وانتشار آثارها ، وعاون على ذلك اطلاع فريق من الأُدباء على الشعر الأُوربى القوى .

والأَمر الآخر دينى ، حيث أن نهضة الشرق أفهمت المسلمين من أبنائه — وهم كثير — أن الأَمل فى القوة والوثوب معقود بالعودة إلى الإسلام فى قوته وفطرته ومبادئه ، ومن بين مظاهر هذه العودة الاعتزاز باللغة العربية الجزلة القوية التى كانت فى صدر الإسلام[1] .

وأرى أن الأَمرين السابقين قد توافرا معاً للسيد رشيد رضا ، وكان لهما دخل فى تكوين شاعريته وتكييفها ، فهو أولا قد أطلع على الكتب التى طبعت فى عصره ، وكان يتتبعها منذ نشأته فى موطنه الأَول لبنان ، وفى موطنه الثانى مصر ، وكان يتخذ مختلف الوسائل للحصول عليها ، لا من هذين الموطنين فحسب ، بل من كل بلد يسمع فيه بكتب يتطلع إلى اقتنائها ومطالعتها ، ومن أهم هذه الكتب هنا « شرح مقصورة ابن دريد » التى طبعها أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٧م — فى مطبعة « الجوائب » وأكبر جهد شعرى لرشيد — وهو مقصورته — قد عارض بها مقصورة ابن دريد ، وكذلك طالع مجموعة من الكتب الأُوربية المترجمة . وهو ثانيا رجل إسلام ، يعتز بدينه إلى مدى بعيد ، ويطالب بتجديده والعودة إلى مبادئه ، والاعتزاز بلغته وأدبه ، ويذهب مذهب من يرى من الفقهاء — كالإمام الشافعى — وجوب تعلم اللغة العربية على المسلم ، حتى ولو كان غير عربى الأَصل أو الجنس أو اللغة ، وقد أسهم رشيد

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، ص ٤٢ و ٤٣ .

رضا بجهد كبير فى توثيق العلاقة بين العروبة والإسلام ، وذلك مبدأ أومن به ، ولذلك أردد قولى : العروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة .

فلا عجب بعد هذا إذا رأينا رشيدا يقول الشعر جزلا قوياً ، فلا يبعد فيه عن الروح الإسلامية ، بل يفتح فيه الأبواب لكثير من نزعاته الإصلاحية والتهذيبية ، كما يتخذه وسيلة لإحياء مفردات لغوية غريبة أو مهجورة أو قليلة الاستعمال .

وإذا كان الغالب أن رشيدا طالع فى صباه أشعارا غير معلومة لنا بالتفصيل فإنه مع هذا قد أخبرنا بأن نزعته الصوفية التى بدأ بها فتوته جعلته يحفظ الكثير من الشعر بغير تعمد ولا قصد ، ومنه قصيدة الشهرزورى فى التصوف ، وكذلك حفظ نونية ابن زيدون فى الغزل ، وجمع مختارات من الشعر أغلبها فى الإلهيات والزهد والرقائق ومدح النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان رشيد يميز بالسليقة بين الموزون من الشعر وغير الموزون وكان بعض زملائه التلاميذ يسأله أن يزن له ما ينظمه ويصححه ، وممن عرف عن رشيد هذه الملكة الشيخ عبد القادر المغربى والشيخ عبد الكريم عويضه[1] .

وطالع رشيد أيضاً فى فتوته ديوان « الباكورة » لصديقه أمير البيان شكيب أرسلان ، حيث أطلعه عليه وهو تلميذ فى طرابلس

(١) المنار والأزهر ص ١٤٠ و ١٤١ .

محمود أفندى الكحيل ، فأقبل عليه رشيد ، وحفظ بعض أبياته بغير تعمد ،وكان هذا الديوان أول ما حبب شكيبا إلى رشيد كما يقول وغرس محبة أمير البيان وتقديره فى قلب صاحب المنار ، وظل رشيد إلى أواخر عمره يرى أن شعر « الباكورة » أعلى نظما ولغة وموضوعاً من سائر الأشعار التى نظمها أمير البيان بعد ذلك[1] .

ويخبرنا رشيد بأنه قد نظم الشعر قبل قراءته العلوم العربية ، وكان يشتهر به منذ السنة الأولى من دخوله المدرسة الوطنية ، ولقد حدثه أستاذه الشيخ حسين الجسر عن تخلف الشعر فى عصره ، ووجوب حله من عُقله ، وإطلاقه من قيوده ، مع التصرف فى المعانى الجديدة ، والنظم فى الموضوعات الشريفة ، على ماتقتضيه حالة هذا العصر .

وكأن هذا الحديث من الأستاذ لتلميذه ، كان توجيها للفتى الناشئ وحثاً له على نظم الشعر ، فأقبل بهمته وعنايته ينظم أول قصيدة قالها ، فإذا هى تبلغ نحوا من مئة وعشرين بيتا ، وقد نظمها ـ كما عبر رشيد ـ فى تهنئة « صاحب السعادة محمد باشا نجل الأمير عبد القادر الجزائرى الشهير ، يوم صار ياور حرب لمولانا السلطان الأعظم أيده الله تعالى » .

وقد أشار فيها رشيد إلى مذاهب المتأخرين فى الشعر بصيغة الإنكار ومطلع هذه القصيدة قول رشيد :

نصرت دولة المها التركية بلحاظ قامت بها العصبيه

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٧٥٩ و ٧٧٧ .

وقد وصف فيها القدود والسواعد والحواجب والغدائر وغيرها من شئون النساء ، ثم مدح السلطان بأبيات ، ثم مدح الأمير بأخرى ، ثم نوه بمكانة قصيدته ، وما فيها من مبتكرات جمعت بين رقة الحضارة وجزالة البداوة ، فختمها بهذه الأبيات :

هاك بكرا جاءت بمبتكرات . من مجانى جناتها معنويه

أشربت رقة الحضارة ، لكن رويت بالجزالة البدويه

أعجبت بالمديح فيك فقامت نتهادى كأنها حوريه

رامت الحلى فى الثناء ، فلب تها عقود الكواكب الدريه

ولكم قد تقلدت بوسام من مزايا الإمامة القدسيه

فبدت تنتحى علاك وناهيـ ك بباد أوفى على المدنيه

تستميح الرضى لكى تفتدى راضية عند ربها مرضيه

والقصيدة لم تنشر كاملة ، وكل الذى نشر منها سبعة وخمسون بيتا فى مواطن متفرقه [١] ، ولكن هذا القدر كاف فى تصور المحاولة الشعرية الأولى لرشيد ، فهى تدل أولا على طول الباع والنفس ، بكثرة أبياتها وزيادتها على المئة ، وهى تدل على جزالة التعبير عند رشيد وعلى اطلاعه اللغوى الواسع ، ولكنها فى الوقت نفسه تدل على صنعة وتكلف ، وعلى أن رشيدا « ينظم » ، ولا يقول شعرا ، وإذا كانت القصيدة قد جاءت متينة فى مبانيها ، حسنة فى طائفة من معانيها ، فإنها ينقصها روح الشعر ، وتأثير الشاعر الناشىء عن انفعاله ،

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص١٩٦ — ١٩٩

وينقصها كذلك التماسك المؤدى إلى الوحدة الموضوعية للقصيدة ، فهو يتغزل ، ثم ينتقل إلى الوصف ، ثم يتركه إلى مديح السلطان ، ثم يتركه إلى ذكر بعض الأحداث السياسية ، ثم ينتقل إلى مدح ممدوحه ، ثم ينتقل إلى الافتخار بشعره ، ثم هو يحاول أن يفهمنا بأن قصيدته جمعت بين رقة الحضارة وجزالة البداوة مع أن مافيها من البداوة أضعاف ما فيها من رقة الحضارة .

* * *

والسيد رشيد رضا حريص على أن نفهم أنه قال الشعر صحيح الوزن قبل أن يتعلم النحو أو الصرف أو العروض ، وأنه كان ينظمه فى حالات تعرض له ، فهو مثلا قدنظم قصيدة فى دعوة خادعة إلى أكلة حلوى ، وصف بها الداعى ومساوى داره ، وظلت القصيدة فى مسودتها عنده حتى تعلم فنون العربية المتصلة بالشعر ، فرآها صحيحة الوزن والإعراب ، ولم يكن قد ذكر ذلك للأتراب من أمثاله ، وإن كان لم ينس أن يذكره فى أواخر حياته لمن يطالع سيرته .

وأول شخص استمع إلى شعر رشيد منه هو الشيخ أحمد عبدالجواد القاياتى ، حيث كان فى زيارة لبلدة القلمون مع شقيقه الشيخ محمد مصطفى القاياتى ، فى أثناء نفيهما مع من نفى من المصريين إلى سورية عقب الثورة العرابية .

واتفق أن أخذ الشيخ أحمد يتحدث مع رشيد ، فأسمعه رشيد أبياتاً نظمها ، فقال له الشيخ معجباً : « بدايتك نهاية غيرك »

ورشيد يروى هذه القصة مع كلمة الشيخ ، ويعلق عليها تعليقاً يبدو حائرا بين التواضع والاعتزاز بالذات ، حيث قال ·

« ولاشك أنه قصد بهذه الكلمة الترغيب والتنشيط ، وأنه مع ذلك استكثر ذلك النظم الصحيح المعنى واللفظ ، المستقيم الوزن ، ممن لم يقرأ شيئاً من الصرف ، ولا من النحو ، فضلا عن العروض وقرض الشعر [١] » .

ومن الواضح أن عنصر الاعتزاز بالذات هنا أوضح وأغلب ، من عنصر التواضع ، ومن المحاولات الشعرية الأولى لرشيد أن نسيباً لأسرته — هو الشيخ محمود النصرى — توفى فرثاه بقصيدة ناب عنه فى إلقائها بصوت جميل وإنشاد حسن السيد محمد العشى فى حفل تأبين أقيم فى مسجد « القلمون » . ولما خلا رشيد بشيخه حسين الجسر قال الشيخ لفتاه : هل المرثية التى أنشدت فى المسجد لأستاذنا الشيخ عبد الغنى الرافعى [٢] ؟ .

فأجاب رشيد : لا . فسأله الشيخ : لمن هى إذن ؟ . فخجل رشيد أن يقول إنها له ، فأدرك الشيخ مافى نفسه ، فقال : أتقول إنها لك ؟ إذن أمتحنك ... ثم طلب الشيخ القصيدة مخطوطة بعد تأكده ، وجعل يرددها فى مجالسه الأدبية ، ذاكرا أنها لتلميذه رشيد .

وقص رشيد هذه القصة وهو يتردد مرة أخرى بين التواضع والاعتزاز بالذات ، وإن كان اعتزازه بذاته يزداد هنا وضوحاً ، فهو

(١) المنار والأزهر ، ص ١٨٠ ، ١٨١

(٢) انظر ترجمته فى المنار ، المجلد ٢١ ص ١٥٧

يعلق على عمل أستاذه الجسر بقوله : « فشهرنى تشهيرا أخجلنى من الناس الذين كانوا يذكرون لى تبجحه بى [١] » .

وأغراض رشيد فى الشعر تدور حول المدح الذى بدأ به محاولاته الشعرية ، والرثاء ، والغزل ، والمسائل الاجتماعية والوصف ، ولقد مدح ابن الأمير عبد القادر الجزائرى ، والسلطان عبد الحميد ، والخديو عباس حلمى الثانى ، والشيخ عبد الغنى الرافعى ، كما مدح فى مقصورته جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد القادر المغربى ، وغيرهم .

كما رثى رشيد بقصائده المشايخ : عبد الغنى الرافعى ، ومحمد القاوقجى ، ومحمود نشابة ، وعبد الرازق الرافعى ، وعبد القادر الميقاتى ، ومحمود النصرى ، والأمير أحمد حسان الأيوبى .

وأتى رشيد بالنسيب والغزل المصنوع فى بعض قصائده ، وله فى وصف فتاة أبيات طويلة النفس فى مقصورته .

وقال رشيد الشعر فى الموضوعات الاجتماعية ، فله مقطوعة فى « مضار التقليد » وقصيدة فى « معاتبة الشرق على تأخره عن الغرب »

وله فى الوصف بعض المقطوعات ، ومقصورته تتخللها قطع شعرية وصف فيها مشاهد الطبيعة ، وفرحة الأعراس ، وجمال المرأة ، وغير ذلك من الأشياء .

---

(١) المنار والأزهر ، ص ١٨١ . وشهر به تشهيرا : عرف به تعريفا واسعا. والتبجح : التباهى والتفاخر .

ويبدو فى شعر رشيد مجهود العقل وروح العلم ، ومن شواهد ذلك أنه يورد فى شعره كثيراً من الأمور العلمية ، ولقد تحدث بتوسع مثلا فى ... سورته عن عناصر الهواء ، وعناصر الماء ، والمعلومات الطبيعية الأخرى ، كما تبدو النزعة الفقهية والحديثية والتصوفية أحياناً فى شعره .

كما أن الصيغة البديعية تبدو واضحة فى شعره ، ومن أمثلة ذلك رثاؤه لشيخه محمود نشابة الذى يجمع فيه بين الصنعة البديعية والروح الفقهيه والحديثية والتصوفيه ، فهو مثلا يقول :

فلك الطريقة ، أودر الحقيقة فى يم الشريعة راسية وراسبة
ومرجع الكل فى حمل النصوص ، وفى حل العويص إذا أعيت مصاعبه
رب الحقائق ، كشاف الدقائق محمو د الخلائق من جلت مواهبه

وهو بعد ذلك يقول :

وصدر شرح البخارى ضاق فيه وكـ م قامت على مسلم تبكى نوادبه
لئن بكى تابعو «النعمان» مذهبه فالدين من بعده ضاقت مذاهبه
هذا «ابن إدريس» بعد الشيخ قد درست دروس مذهبه ، وارتاع طالبه إلخ

ومن أمثلة ذلك أيضا رثاؤه للشيخ عبد الغنى الرافعى الذى توفى حاجا ، فقال فى مطلع الرثاء :

طوبى لمن بجوار الله قد نزلا وقد أعدّ له جناته نزلا
ويا هنيئاً لمن أسقاه سيده فى معهد القرب من كأس الشهود طلا

وقال أيضاً :

نعم لقد قبضت روح التصوف والإ نصاف منا ، وجيد الفقه قد عطلا[(١)]

وحين أتناول « المقصورة الرشيدية » بالحديث سيرد خلاله مزيد من الدراسة لشعر رشيد والحكم عليه .

ولقد وجدت الدكتور إبراهيم العدوى يقول : « واتصف الشعر الذى نظمه رشيد ايضاً بما اشتمل عليه من معان جزلة منذ هذه المرحلة المبكرة من حياته ، وبلغت بعض قصائده فى جودتها خير ما نظمه كبار الشعراء من أمثال المعرى والشريف الرضى[(٢)] » .

وإذا كانت المبالغة تبدو فى هذا القول ، فإن العجيب أن الدكتور استشهد على حكمه هذا بأبيات لرشيد فى رثاء الأمير أحمد حسان الأيوبى — أحد الكبار من أهل الشام — وفيها يقول :

إن المنيـة غايـة الميـلاد والنعش مثل المهد للأولاد

والله قد برأ الخلائق للبقا بعد الفنا وزيارة الألحاد

والموت باب النشأة الأخرى لنا وبها كمال الخَلْق والإيجاد

وهذه الأبيات التى عدها الدكتور نموذجاً لشعر رشيد الممتاز ، قد نقل معانيها وأكثر ألفاظها ، بل وقافيتها من قصيدة المعرى المشهورة فى الرثاء التى يقول فى أولها :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعى إذا قيس بصوت البشير فى كل ناد

(١) يراجع المنشور من القصيدتين فى المنار ، المجلد ٢١ ص ١٥٦ و ١٥٩

(٢) رشيد رضا الإمام المجاهد ، ص ٢٩

ويقول فيها :

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشاد

فكيف تتخذ هذه الأبيات نموذجاً لشعر رشيد الذى يصفه الدكتور بأن بعض قصائده بلغت فى جودتها خير ما نظمه كبار الشعراء من أمثال المعرى والشريف الرضى ؟ ومع ذلك يقول الدكتور : « وإلى جانب هذا المطلع الرائع احتوت القصيدة على شعر أشبه بشعر الحكماء والتصوف ... » .

ولو أن الدكتور تدبر الدافع الذى دفع برشيد إلى هذا الرثاء لعدل حكمه عليه ، فهذا الرثاء مصنوع غير مطبوع ، وقد قيل بحث وتحريض وأمر لرشيد على أن يقول . وممن الحث والتحريض والأمر؟ من والده المطاع . وهذا رشيد نفسه يشرح لنا كيف كان « مكلفاً » بهذا الرثاء ، فيقول :

« ولم أرث من وجهاء الدنيا إلا الأمير أحمد حسان الأيوبى من سروات الكورة (فى جبل لبنان) . رثيته بأمر والدى ، قال لى عندما جاءه نعيه سنة ١٣٠٩هـ : يا بنى هذا أكبر وجهاء الكورة ، وسيحضر حفلة اليوم الثالث والسابع له كبراء البلاد من المسلمين والنصارى ويؤبنونه ، وعلاقة أسرتنا بأسرته قديمة وقوية ، فيجب أن تنظم له مرثية تنشد ، وتكون بها ... فنظمت المرثية [1] » .

(١) المنار والأزهر ، ص ١٨٢ ، وكانت العادة هناك أن يقيموا حفلات التأبين فى اليوم الثالث والسابع لوفاة المتوفى .

فالمرثية إذن جاءت « بتكليف وأمر » ، والدافع إليها هو المجاملة وإرادة الظهور بمظهر لائق بأسرة رشيد وسط هذا الحفل ، وقد أطاع رشيد الأمر ، وصنع الرثاء دون أن يكون لديه من قبل انفعال به ، أو حزن على صاحبه ، ولذلك اعتمد على التقليد والمتابعة والنقل مع شيء من التصرف والصنعة .

ولعل الدكتور قد اندفع إلى حكمه الواسع منخدعاً بعبارة لرشيد يقول فيها عن هذه المرثية : « فنظمت المرثية الدالية التي اشتهرت حتى كادت تذكر مع مرثية المعرى الدالية فى فلسفتها ، ومرثية الشريف الرضى الدالية فى تعظيم قدر المرثى بها [1] » .

إنه رشيد يتحدث عن نفسه ، والحديث عن النفس لايخلو من اعتزاز ، ورشيد — فوق هذا — لم يدع أن مرثيته بلغت فى جودتها مرثية المعرى أو الشريف الرضى ، بل قال إنها اشتهرت حتى كادت تذكر مع المرثيتين ، وشتان بين الحكمين .

وهو يقصد بمرثية الشريف الرضى قصيدته المشهورة التى قالها فى رثاء أبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب المتوفى فى شوال سنة ٣٨٤هـ . وكان بينهما من المودة الأكيدة والمكاتبات بالنظم والنثر ماهو معروف ، ويمكننا أن نعرف عمق هذه المودة إذا طالعنا كتاب « رسائل الصابى والشريف الرضى » .

---

(١) المنار والأزهر .

ومطلع رثاء الشريف للصابى هو :

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادى؟
جبل هوى لو خر فى البحر اغتدى من وقعه متتابع الأزياد

والشريف كان يرثى الصابى وهو معجب به محب له ، ففى رثائه انفعال وشعور ووجدان ، وليس مجرد تكلف وصنعة بيان ، ولذلك عاد الشريف يرثى الصابى ، فقال بعد ذلك[1] وقد اجتاز بقبره فى « الجنينة » من أرض « كرخايا » : .

أيعلم قبر بالجنينة أننا أقمنا به ننعى الندى والمعاليا
عطفنا فحيينا مساعيه ، إنها عظام المساعى ، لا العظام البواليا

وعاد مرة أخرى فاجتاز بقبر الصابى فى جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فعاد إلى رثائه بقصيدة مطلعها[2] :

لولا يذم الركب عندك موقفى حييت قبرك يا أبا إسحاق
كيف اشتياقك — مذ نأيت — إلى أخ قلق الضمير إليك بالأشواق
هل تذكر الزمن الأنيق وعيشنا يحلو على متأمل ومذاق

هذا صديق يرثى صديقاً ، وليس كموقف رشيد الذى يأمره والده بأن يصنع رثاء لشخص لا يعرفه ولم يصادقه من قبل .

---

(١) تراجع القصيدة فى ديوان الشريف الرضى ، ج ١ ص ٣٨١ — ٣٨٦ وفى رسائل الصابى والشريف الرضى ، ص ٤٥ — ٥٥

(٢) القصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتا ، تراجع فى رسائل الصابى والشريف الرضى ص ، ٥٦ — ٦٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١ و ٦٢

ثم إن هذه المقارنة بين مرثيه رشيد ومرثية الشريف لاتتم على وجهها ، ولا يصح إصدار حكم فاصل فيها ، لأن المعروف لنا من مرثية رشيد أقل من عشرين بيتاً وباقيها غير موجود معنا ، على حين أن دالية الشريف الرضى فى رثاء الصابى كاملة وهى تزيد على الثمانين بيتاً[1] .

وليت الدكتور التفت أيضاً إلى قول رشيد : « وكنت أكره المدائح والتهانى الشعرية ، ولكننى لاشتهارى بالشعر كنت مضطرا إلى إرضاء بعض خواص الأصدقاء بشىء منها » .

فهو إذن « يجامل » بشعره ، وهو « مضطر » إلى الإرضاء به أحياناً . وينبغى أن نتذكر هنا أنه ليس ثمة كبير فرق بين الرثاء والمديح عند عامة المتأدبين والناظمين ، فكل منهما ذكر لمحاسن فالمديح ذكر لمحاسن الأحياء ، والرثاء ذكر لمحاسن الأموات .

وفوق هذا أذكر أن أمير البيان شكيب أرسلان علق على مرثية رشيد فى أحمد حسان الأيوبى فقال إن هذا الشعر يذكره بالنكتة التى رواها ابن خلدون فى مقدمته ، وهى أن أبا القاسم بن رضوان أنشد أمام أبى العباس بن شعيب بيتاً لابن النحوى هو :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال ابن شعيب : هذا شعر فقيه . فقيل له : ومن أين عرفت ذلك ؟ . قال : من قوله : (ما الفرق) ، فإن هذا من أساليب الفقهاء لا من أساليب الشعراء .

---

(١) أنظر ديوان الشريف الرضى ، ص ٥٤ .

وقد علق شكيب على مرثية رشيد بقوله : « من قرأ هذه المرثية علم أنها شعر حكيم متصوف وهى من نمط شعر المعرى كما قال ناظمها[١] » . والنمط هو الطريقة والنوع ، وشتان بين أن يقال إن مرثية رشيد من طريقة مرثية المعرى ، وأن يقال إنها مثلها فى الجودة .

وكأنى برشيد كان متباعداً عن نزعة الاعتزاز بذاته حين قال عن مراثيه ومحاولاته الشعرية إنها كلها « باكورة تلميذ ، لا مقصدات خنذيذ[٢] » .

* * *

قال رشيد الشعر كما رأينا مبكرا ، ولكنه لم يتخذه مشربا وديدنا ، بل كان يقوله فى مناسبات ، ثم أخذ يقلل من نظمه بعد أن اتجه اتجاهه الصوفى وتأثر بكتاب الغزالى « إحياء علوم الدين » . ثم أخذ يراقب ربه ، ويحاسب نفسه حتى إنه يعاتبها على الغفلة ويعاقبها على الهفوة — كما يعبر — واستبدل بالشعر ذكر الله تعالى وأخذ يتجنب الشعر قولا وإنشادا ، وربما سها فنطق بنصف بيت ثم تذكر فلا يتمه .

وينوه رشيد بأثر هذا الاتجاه الصوفى ، وبانصرافه عن الشعر فيقول : « فكانت هذه النشأة فى الصبا ذخرا لما بعدها ، وما أبرىء نفسى من اللمم ، ولا أقول كما قال بعض الشيوخ الكرام فى شأن صحته

(١) السيد رشيد رضا ، ص ١١١ .

(٢) المنار والأزهر ، ص ١٨٥ . والخنذيذ : الشاعر المجيد المفلق . (القاموس) .

فى كبره : (حفظناها فى الصغر ، فحفظها الله فى الكبر) ، بل أقول إن الله تعالى هو الذى حفظها فى الصغر والكبر ، وله الحمد أولا وآخرا [1] » .

ويقول رشيد إن آخر مانظمه هو المقصورة الرشيدية التى قالها — أو بدأها بتعبير أدق — سنة ١٣١٥ هـ ، وإنه لايحب أن يؤثر عنه من الشعر غيرها ، ثم يضيف إليها « القصيدة الشرقية » ، وقصيدته الميمية فى مدح جمال الدين الأفغانى ، وكذلك مراثى العلماء [2] ، ولكن هذه القصائد غير متكاملة أمامنا .

وقد تحدثت حديثا مفصلا عن « المقصورة الرشيدية » فى كتابى « المقصورة فى الأدب العربى ومقصورة رشيد رضا [3] » . وقمت — لأول مرة — بتحقيق نصها واستكماله والتعليق على أبياتها .

ويذكر رشيد أنه ترك الشعر من قبل الهجرة إلى مصر [4] ، وهذا يحتاج إلى نظر ومراجعة ، فرشيد قد نظم مقصورته سنة ١٣١٥ هـ . وهى السنه التى هاجر فيها إلى مصر ، وهذه المقصورة قد زاد فيها أجزاء بعد ذلك بسنوات ، كما قرر هذا بنفسه .

عناية رشيد بالشعر :

يبدو أن عناية رشيد بالشعر كانت قوية عميقة ، ضاربة جذورها فى أرض صباه وفتوته ، فقد وجدت بين أوراقه مجموعة شعرية

(١) المنار والأزهر ، ص ١٧٠
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٤ و ١٨٥
(٣) المقصورة فى الأدب العربى . طبع مطبعة الرسالة بالقاهرة ، سنة ١٩٧٠ .
(٤) المنار ، المجلد ٢١ ص ١٦٣ .

نقلها بخطه بعد أن اختارها لشعراء مختلفين ، وكتب عليها مايلي :
« مجموعة الفقير إليه عز شأنه السيد محمد رشيد ابن السيد على رضا أفندى ، غفر الله لهما ، آمين » .

وفي أولها هذه العبارة : « استصبحها الفقير محمد رشيد المحمد ». ويظهر أن رشيدا كان يكتب هذه المقطوعات بخط يده غالبا ، وبعضها يمليه على من يكتبه ، ثم يراجع رشيد المكتوب ، ويصحح بخطه مايحتاج إلى تصحيح .

وفي هذه المجموعة قصائد توسل ،وقصائدمناجاة ، وقصائد غزل ، وأبيات في الحكمة ،وقد اختار فيها رشيد من شعر :محمدسعيدالعمرى ، وعبد الغنى النابلسى ، ولسان الدين بن الخطيب ، ومحمد الأمين ، ومحمد أمين الجندى ، وشكيب أرسلان ، وحسين الجسر ، وعبد الغنى الرافعى الطرابلسى ، وعبد اللطيف نشابة ، ومحمد الحبال ، وابن المنقذ ، ومحمد خليل الصديقى ، وغيرهم .

وفي هذه المجموعة نقل رشيد قصيدتين من أوائل شعر شكيب أرسلان ، وعلق على إحداهما بشروح لمفرداتها .

ووجدت أوراقا عليها تاريخ ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٠١ كتب فيها رشيد كثيرا من القصائد بخط يدل على العناية والتجويد ، ومن بينهما قصيدة لعبد الغنى الرافعى فى « من يظلهم الله بظله يوم لاظل إلا ظله » .

كذا قيد رشيد بخطه فى كراسة له عشرات من الأبيات المختارة فى الحكم والأمثال وعبر الحياة .

واللافت للنظر أن رشيد رضا كتب بخطه قطعا شعرية مختلفة فيها غزل ، وفى بعضها توسع فى الغزل ، وإنما كان هذا لافتا للنظر لأن رشيدا نفسه يذكر لنا أنه كان يكره الشعر المتكلف وشعر المجون ، وما يقرب منه من وصف الشهوات ، وما هو صريح فى التذكير بها ، وكان أكثر مافى « خزانة الأدب » لابن حجة الحموى من الشواهد على أنواع البديع مما يمجه ذوقه ، خلافا لأدباء بلده كلهم [١] .

كيف نوفق بين هذا وبين ماوجدته بخط رشيد رضا فى كراسة صغيرة الحجم كثيرة الأوراق على هيئة مايسميه الناس « الأوتوجراف » ، وهى الكراسة التى يجمع فيها صاحبها كلمات بتوقيعات من أصدقائه .

فى هذه الكراسة وجدت رشيداً قد كتب فى جانب منها مايلى :

« ليحيى بن سلامة الحصكفى المتشيع :

وخليع بت أعذلـــــــه	ويـــرى عذلى من العبث
قلت : إن الخمر مخبثة	قال : حاشاها عن الخبث
قلت : فالأرفاث تتبعها	قال : طيب العيش فى الرفث
قلت : منها القئ قال : نعم	شرفت عن مخرج الحدث
وسأسلوها ، فقلت : متى ؟	قال : عند الكون فى الجدث »

والظاهر أن رشيدا قد أعجبته الأبيات من ناحيتها الأدبية ، وإن تكن سيئة من الناحية الدينية .

---

(١) المنار والأزهر ، ص ١٨٥

وفى الجزء الثانى من المجلد الثانى من المنار (مارس سنة ١٨٩٩ م) نشر رشيد جملة مقطوعات شعرية قيلت فى « الخال » ، والخال هو — كما يقول القاموس — الشامة فى البدن ، وفى المقطوعات وصف لخال الخدود ، وفيها شىء من الغزل (١) .

وقبل ذلك ترى رشيدا ينشر فى المجلد الأول من المنار (٢) أبياتا غزلية ، ويقترح على الشعراء تشطيرها ، والنظم فى معناها بأبيات أخرى ، والأبيات التى نشرها رشيد هى :

« يقولون مانار بقلبك أوقدت ... ومن أين تأتى النار أدركك السلب

فقلت لهم : بلورة العين قابلت ... أشعة شمس الحب فاحترق القلب

* * *

قال لى من أحب : من أين نار ... هى فى القلب منك قلت اعتذارا

إن عينى بلورة قذفت فى ... وسط قلبى من نور وجهك نارا »

وكأن هذا حث من رشيد على التوسع فى قول الشعر فى الحب والنسيب والغزل .

وإذا كان رشيد يستنكر مع ذوى الطباع السليمة تغزل الذكور بالذكور لأن عشق الولدان من فساد الفطرة ، فقد قرر أنه لايستنكر أحد تغزل امرأة بامرأة ، وإن كان عشقها لها منكرا وقبيحا ، على أن الغزل ليس ملزوما للعشق دائما .

---

(١) المنار ، المجلد ٢ ص ٢٦

(٢) المنار ، المجلد الأول ، ص ٢٣٥

وبعد أن يقرر رشيد ذلك يورد أبياتا لحمدة بنت زياد فى امرأة ذات وجه وسيم أولها :

أباح الدمع أسرارى بواد ۝ له فى الحسن آثار بوادى

ومنها قولها :

لها لحظ ترقده لأمر ۝ وذاك اللحظ يمنعنى مرادى

ثم علق رشيد على الأبيات بقوله : « وماأحسن الإيهام فى قولها : ترقده لأمر »

ثم قال : « وأما تغزل ذوات الحجال بالرجال فأراهم يستملحونه على القول بوجوب كثافة الحجاب ، ولا أستثنى الذين ينفرون من التغزل المذكر مطلقا ؛ وكأن الشعور بأن كون الشعر قد برز من وراء الخدر ، يؤثر فى حقيقته وماهيته ، أو يغير وجه قضيته ، فيحول استقباحه استحسانا ، ويجعل خسره رجحانا ، فيغلب هذا الوجدان والشعور وجدان وجوب استخفاء ربات الخدور .

وأما على الاستملاح فى ذوق من لايقول بضرب الحجاب على الملاح ، فهى موافقة الفطرة ، وإجابة دعوة الطبيعة ، ومعظم الاستنكار فى ذلك الضرب من الغزل إنما هو باعتبار مصدره ومجلاه ، لا باعتبار حقيقته وفحواه » .

وبعد أن يورد رشيد أمثلة أخرى شعرية فيها غزل وحديث عن الحب والوطن ، يسوغ رشيد إيراده ذلك فى مجلته الإسلامية ، فيقول : « أوردنا ذلك تفكهة وتمليحاً لبعض القراء الذين يملون الجد الصرف

كما قالت علية : (والشيء مملول إذا كثرا[١]) . وليس هذا الغزل بالقول الهزل والكلام العطل[٢] ، فإن به يرق الشعور ، ويلاطف الوجدان ، وتتهذب النفس .

والفقهاء لا يحرمون الغزل إلا إذا كان فى أجنبى معين ، أو كان فيه فحش ، وقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم الغزل والنسيب حتى فى المسجد ، ومن ذلك أوائل قصيدة (بانت سعاد) الشهيرة[٣] »

أرأيت رشيدا وهو يعقد هذا الفصل السابق بعنوان « تغزل النساء » وكيف أخذ يسرد علينا أنواع الغزل : غزل الذكور بالذكور ، وغزل الإناث بالإناث ، وغزل الذكور بالإناث ، وغزل الإناث بالذكور ، وكيف شغل صفحات من مجلته بنماذج للغزل فيها مثل قول الشاعرة فى محبوبة لها :

ومن بين الظباء مهاة رمل سَبتْ لبى ، وقد ملكت قيادى
لها لحظ تردده لأمر وذاك اللحظ يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليه رأيت الليل فى جنح السواد

وقول شاعرة أُخرى :

بُنى الحب على الجور ، فلو أنصف المحبوب فيه لسمح

(١) القائلة هى علية بنت المهدى أخت هارون الرشيد ، وقد سبق لرشيد فى مقالته أن استشهد بأبيات لها منها قولها :

إنى كثرت عليه فى زيارته فمل ، والشيء مملول إذا كثرا

(٢) العطل — بضم فسكون ، أو بضمتين — هو الخالى ، والكلام العطل : الذى لا يحوى جليل معنى .

(٣) المنار ، المجلد ٤ ص ٦٢٦ — ٦٢٩ ، عدد ٢٩ اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٠١ .

وقول ثالثة :

تحبب فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

أرأيت صاحب « المنار » الأديب الذواقة وهو يسوّغ غزل المرأة بالمرأة ، وغزل النساء بالرجال ، وغزل الرجال بالنساء من غير تعيين لشخص ، وكيف يدافع عن شعر الغزل ويصفه بأنه يرقق الشعور ، ويلطف الوجدان ، ويهذب النفوس ، وكيف يلتمس لذلك سندا من أقوال الفقهاء ، وإقرار الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

أين هذا إذن من قول السيد رشيد رضا قبل ذلك إنه ترك الشعر ، واستبدل به الذكر ، وإذا نسى وأنشد نصف بيت ، ثم تذكر فإنه لا يتم البيت ؟ !

وكيف نصدق رشيدا فى أنه ترك الشعر ، أو كره شعر الغزل ، وهو الذى قال بعد هجرته إلى مصر بسنوات وسنوات شعرا فاتنا فى وصف فتاة بارعة الجمال ، جاءته تسأله أن يضع يده على صدرها ليذهب ما به من ضيق ، فأبى وأمرها أن تذهب وهو يدعو لها أن يشرح الله صدرها ، ثم صاغ فى تصوير جمالها وأجزاء بدنها أبياتاً كثيرة العدد فيها تفصيل دقيق لمفاتن هذه الفتاة ، حيث قال فى مقصورته :

ورب ملداء خميصة الحشا بهنانة ترنو بألحاظ اللأى[1]

رقراقة شف زجاج وجهها عن ذوب ياقوت وراءه جرى

---

(١) الملداء : الناعمة اللينة . وخميصة الحشا : ضامرة البطن . والبهنانة : المرأة الضاحكة ويقال : الطيبة الريح . واللأى : البقرة : وقيل : الثور الوحشى (معجم مقاييس اللغة لابن فارس).

ثم وصف عرضها الذى عرضته ، ووصف نفسها ، ووصف الفتنة الشديدة ، ثم قال :

ولم يكن بجاحد لما رأى من سحرها ، روت العيون وروى

دعى إلى حب الجمال طائعاً أو كارهاً ، فانقاد طبعا وأتى

ثم إلى اتخـــاذه ربًّـا لـــه فعـــاذ بالرحمن منـــه وأبى

قد وقف الدين به حيث الهوى لحظ وشعر وشعور ومنى

وظاهر الدين عزيمة له تضاءلت من دون عزمها القوى

وربما كان التماسها الشفا برقية الصدر هو الداء الدّوَى (١)

مما يثير من رقاد فتنة بين بياض النحر منها والثّدَا (٢)

ترجف أعصابى بكهربائه إن لمس الضمير منه ما اكتمى (٣)

فهل أشبهها بأقوى موصل لسالب التقوى بموجب الردى (٤)

وهذه الأبيات جزء من بقية طويلة نلاقيها إن شاء الله حين نأتى إلى مقصورة رشيد .

* * *

وما زال حديث « الشعر الغزلى ورشيد » ممتدا مفتح الأبواب .

---

(١) الدوى كالهوى : الداء الملازم .

(٢) الثدا ، لغة فى الثدى .

(٣) أكتمى : احتجب واستتر .

(٤) يقصد أنه لو لمس صدرها لجمع بين الموجب والسالب ، وذلك يسلب التقوى ويوجب الهلاك وهو الردى .

هذا رشيد يتحدث فى رحلته إلى الحجاز عن « مِنًى » والأحكام المتعلقة بأيامها ، وكانت هذه الرحلة بعد هجرته إلى مصر بسنوات وسنوات ، ثم ينتقل إلى الحديث عن أشعار المتقدمين الغزلية ، والتغزل بالنساء عند رمى الجمار فى منى ، ويعلل ذلك بأن أيام منى أيام أكل وشرب ، وجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية .

وأما الشعائر الأخرى فى الحج فتكون مع الإحرام ولباسه الذى يؤثر فى القلب ، ويصرف الحاج عن ذكر الحسان ، والأهل والإخوان « فالتجلى الإلهى فى جميع المشاعر وأثناء آداء جميع المناسك تجلى هيبة وجلال ، إلا منى ، فإن التجلى فيها تجلى أنس وجمال .

ولا تنسى ما ذكرناه آنفاً من تحلل الحاج فيها من الإحرام ، واستباحته ما كان محرماً من الأعمال ، وكونها أيام عيد يستحب فيها التمتع بالطيبات ، وزد على ذلك أن لياليها هى الليالى التى يكمل فيها نور القمر ، وأن هواءها اللطيف يحبب إليك السمر » .

ثم يورد رشيد مقطوعات شعرية غزلية ، منها ثلاث غير منسوبة لقائل ، ثم يورد قصيدة غزلية للشريف الرضى ، يقول عنها رشيد — كأنه يدافع عنها — : « إنها من التغزل الخيالى النزيه » ، وهى القصيدة الفاتنة المثيرة المرقصة التى تقول :

من معيد لى أياما ... مى بجزع السمرات [1]

ولياليَّ بجمع ... ومنى والجمرات

(١) جزع السمرات : لعله اسم موضع ، والسمرات جمع سمرة وهى نوع من الشجر .

وظباء حاليات كظباء عاطلات
رائحات فى جلابيـ ـب الدجى مختمرات
راميات بالعيون الـ ـنجل قبل الحصيات
ألعقر القلب راحوا أم لعقر البدنات ؟
كيف أودعت فؤادى أعينا غير ثقات
أيها القانص[٦] ما أحـ ـسنت صيد الظبيات
فاتك السرب ، ومازو دت غير الحسرات
يا وقوفا ما وقفنـ ـا فى ظلال السلمات
موقفاً يجمع فتيا ن الهوى والفتيات
نتشاكى ما عنانا بكلام العبرات
نظر يشغل منا كل عين بقذاة
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة
آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غير ماض بلقاء غير آت
فسقى بطن منى والـ ـخيف صوب الغاديات
وزمانا نائم العذا ل مأمون الوشاة
فى ليال كاللآلى بالغوانى مقمرات

غرست عندى غرس الشوق ممرور الجناة
أين راق لغرامى وطبيب لشكاتى[1] ؟

ويعنى رشيد بشرح مفردات هذه القصيدة البليغة ، ولا ننسى أن الشريف الرضى من سلالة آل البيت ، وله مكانته فى المجتمع الإسلامى ، فهو حصن لرشيد حين يستشهد بشىء من شعره الغزلى ، حتى وإن كان فيه مثل قوله :

وظباء حاليات كظباء عاطلات
رائحات فى جلابيـ ـب الدجى مستترات
راميات بالعيون الـ نجل قبل الحصيات ...إلخ .

ثم يتوسع رشيد — وقد فتح الباب بهذا التمهيد الذكى البارع — فيذكر أشعارا غزلية لأبى محمد بن عبد الله بن محمد التنوخى ، وفيها أيضا غزل وذكر لمنى ، ثم يذكر مقطوعات لابن سريج ، ومقطوعات لعمر بن أبى ربيعة ، وقطعة للنميرى فى التغزل بزينب الثقفية ، ومن بين أبياته هذا البيت :

وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت برؤيتها من راح من عرفات

---

(١) ديوان الشريف الرضى ، ج ١ ص ٢١٧ . وممرور الجناة : أى مر الثمر . وقد قال رشيد فى الشرح : «الجناة ما يجنى من الثمر ، والظاهر أنه أراد بالممرور المر — ضد الحلو — وفعل المرارة لازم لا مفعول له ، وإنما الممرور من غلبت عليه المرة ، وهى بالكسر ما يسمى الصفراء أو السوداء من أخلاط البدن ، والشريف من أئمة اللغة ، فلا بد أن يكون لاستعماله مخرج إذا صحت الرواية عنه ، وإن لم يكن استعماله حجة فى اللغة .

ثم يذكر أبياتا ، لأبى نواس الذى يصفه رشيد بأنه « فاسق الشعراء » ، وفى هذه الأبيات نرى أبا نواس يحتال لكى يلقى فى موسم الحج حبيبته « جنان » التى كانت تتمنع دونه ، ويقول :

ألم تر أننى أفنيت عمرى بمطلبها ، ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا إليها يقربنى ، وأعيتنى الأمور
حججت ،وقلت :قد حجت جنان فيجمعنى وإياها المسير !

وبعد أن يشغل رشيد فى ذلك نحو عشر صفحات من مجلة « المنار » يبدو لنا كأنه يريد أن يلطف عند المتزمتين وقع ما مضى من مقطوعات غزلية ، أو كأنه يحتال لينسينا ما أورد من شعر غزلى مثير فيورد لأبى نواس — ولا تنسى أنه أبو نواس فاسق الشعراء كما عبر رشيد — قطعته الزهدية التى قالها وهو يحج ، حيث أحرم ، ولما جنه الليل جعل يلبى بشعر ويحدو به ، فغنى به كل من سمعه وهو قوله :

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك ، قد لبيت لك لبيك ، إن الحمد لك
والملك لا شريك لك والليل لما أن حلك
والسابحات فى الفلك على مجارى المنسلك
ما خاب عبد أملك أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك كل نبى وملك
وكل من أهل لك سبح أو لبى فلك
يا مخطئا ما أغفلك عجل ، وبادر أجلك

واختم بخيـــر عملك لبيـك ، إن الملك لك
والحمد والنعمة لك والعز ، لاشريك لك[1]

ولقد حاول رشيد هنا أن يوائم بين وقار العلماء وظرف الأدباء ، ولذلك أردف حديثه الطويل المسهب السابق بما يشبه الاعتذار عن إيراد هذه الأشعار ، فذكر أن الاختلاط بين النساء والرجال – حتى فى الحج ، لا يخلو من تغزل ، فكيف بالأمر فى أماكن أخرى ، وأن تذكر هذه الأشعار يثير الشوق إلى الأراضى المقدسة : أماكن الحج ، وأنه وجد نفسه شديد الشوق إلى الحجاز حين كتب هذا الشعر وأن نفسه ليست من المغازلة والغزل فى شىء ، ولم ير هنالك ولم يسمع عن أحد شيئا من ذلك والحمد لله[2] .

ولكن عبارته عن شيوع التغزل خطيرة الدلالة ، وكأنها تريد أن تقول إن التغزل كالبلوى العامة ، أو الشر الذى لابد عن وقوعه ، أو الشىء الذى لا يمكن توقيه ، أو المرض الذى لا يمكن تجنبه فهو يقول :

« لا يمكن أن يجتمع النساء والرجال الكثيرون فى مكان ينظر بعضهم إلى بعض ، إلا ويكون لمغازلة النساء بالكلام أو بالنظر نصيب فيه ، كما قال عمر بن أبى ربيعة فى أبيات مقصورة :

وكم مالىء عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

(١) المنار ، المجلد ٢٠ ص ٣١٨ – ٣٢٨
(٢) المنار ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٢٨

وإذ كنت معاهدلحج لم تخل من المغازلة والتغزل فى أول عصر الحضارة الإسلامية ، وأول العهد بتحجب النساء ، والدين لم يزل فى قوة سلطانه على الأرواح ، حتى إن أشد المترفين إسرافا فى الخلاعة ومغازلة النساء ، لم يرتكب فى عمره فاحشة ، فما ظنك فى غير هؤلاء وأمثالهم ، وفى أهل هذا الزمان ، فى غير تلك المعاهد ؟

« قال لى بعض القسيسين : قد مات الدين ، ولا يقصد الناس المعبد إلا لمغازلة النساء[1] » .

* * *

والعجيب فى هذا المقام أن رشيدا يعتذر عن إيراد المقطوعات الغزلية التى سبقت بأنه كان شديد الشوق إلى الحجاز ومشاعره ، ولياليْ عرفة والمزدلفة ومنى ، وأنه ليس من المغازلة والغزل فى شىء .

وأقول : ما دام الأمر كذلك فلماذا لم يستشهد بقطعة أخرى للشريف الرضى فيها حديث عن الحج وأماكنه ، وليس فيها حرارة الغزل الجرىء التى رأيناها فى المقطوعات التى ساقها ، وإن لم تخل من ذكر الظباء ، وهذه القطعة هى التى يقول فيها الشريف الرضى :

حى بين النقا وبين المصلى وقفات الركائب الأنضاء[2]
ورواح الحجيج ليلة جمع ويجمع مجامع الأهواء[3]

(١) المنار المجلد ٢٠ ، ص ٣٢٨ .

(٢) الأنضاء : جمع نضو : المهزول .

(٣) جمع : المزدلفة ، وهى بين عرفات ومنى وليلة جمع : ليلة عرفة .

وتذكر عنى مناخ مطيتى بأعمال منى ومرسى خبائى

وتعمد ذكرى إذا كنت بالخيـ ـف لظبى من بعض تلك الظباء

قل له : هل تراك تذكر ما كا ن بباب القبيبة الحمراء ؟

قال لى صاحبى غداة التقينا نتشاكى حر القلوب الظماء :

كنت خبرتنى بأنك فى الوجـ ـد عقيدى ، وأن داءك دائى [١]

ما ترى النفر والتحمل للبيـ ـن ، فماذا انتظارنا للبكاء ؟

لم يقلها حتى انثنيت لما بى أتلقى دمعى بفضل ردائى [٢]

أو لماذا لم يستشهد بقطعة ثانية للشريف الرضى فيها حديث عن الحج وأما كنه ، وفيها وقار وتصون ، مع تعبير رزين عميق عن حب أصيل ، وهى على كل حال أخف غزلا مما استشهد به رشيد ، وهى التى تقول :

لا والذى قصد الحجيج لبيته ما بين ناء نازح وقريب

والحجر والحجر المقبل يلتقى فيه الشفاه ، وركنه المحجوب

لا كان موضعك الذى ملكته بين الأضالع بعد ذا لحبيب

إنى وجدت لذاذة لك فى الحشا ليست لمأكول ولا مشروب

لى أنة الشاكى إذا بعد المدى ما بيننا وتنفس المكروب [٣]

---

(١) عقيدى : معاهدى .

(٢) انظر ديوان الشريف الرضى ، ج ١ ص ٣٥

(٣) ديوان الشريف الرضى ، ج ١ ص ١٧٢

أو لماذا لم يستشهد بقطعة ثالثة للشريف الرضى فيها حديث عن الحج وأماكنه ، وقد صاغها الشريف وكتب بها إلى صديق له . عن أبيات أتته منه ، وفى هذه القطعة يقول الشريف الرضى :

حلفت بأعلام المحصب من منى وما ضم ذاك القاع والمغزل الرحب
وكل بجاوى يجر زمامه إذا ماتراخت فى أزمتها النجب[1]
وترجيع أصوات الحجيج وقد بدا وقور النواجى تستبد به الحجب
وروعة يوم النحر ، والهدى حائر وكل دم أودى بجمته لركب
لقد جل ما بينى وبينك عن قلبى سواء تدنى البعد أو بعد القرب
ولى دمع عين لا يرنق[2] ساعة ونار غرام بين جنبى لا تخبو
وقلب يمور الطرف إن قر فى الحشا وطرف إذا سكنته نفر القلب
وجسم إذا جردته من قميصه على الناس قالوا : هكذا يفعل الحب
فما لى على ما بى أعنف فى الهوى ويرمضنى العذل المؤرق والعتب
على حين أعطيك الوفاء مصرحا وأصفيك محض الود ما عظم الخطب
وكنت إذا فارقت دارك ساعة صمت ، فلا جد لدى ولا لعب
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بميثاء يلطى فى أباطحها الترب[3]
تطرقها ماء الغمام ، ودرجت بها الريح مخضرا كما نشر العصب[4]

(١) البجاوى : نوع من الإبل ينسب إلى بجاوة وهى أرض النوبة .
(٢) يرنق : يضعف ، يتوقف .
(٣) الميثاء : الأرض السهلة : يلطى : يلزق .
(٤) العصب : ضرب من البرود ، والبلاب.

وهل اذعرن قلب الظلام بفتية تهاوى بهم قود السوالف أوقب [(١)]
وهل أردن ماء وردنا بمثله جميعا ، وفى غصن الهوى ورق طب
وهل لى بدار أنت فيها إقامة فانشر ما انطوى الرسائل والكتب
سلوت المعالى إن سلوتك ساعة وما أنا إلا مغرم بالعلى صب [(٢)]

إن هذه القصيدة أخف فى وطأة الغزل عند المتزمتين من كثير من المقطوعات الغزلية التى ساقها رشيد ، ولكن يبدو أن روح رشيد الأديب الشاعر المتذوق لروائع الشعر الغزلى قد غلبت روح رشيد الداعية الدينى المتحدث عن الحلال والحرام ، ومع أن رشيدا نظر إلى هذه المقطوعات من جهة بيانها وتصويرها ، فقد حرص على أن ينفى عن نفسه تهمة الموافقة لأصحابها فى حرارة حبهم وصراحة غزلهم ، ولكن هذا الحرص لم يحجب عن أنظارنا نزعته الأدبية التى غلبته فى هذا المجال .

* * *

رأى رشيد فى الشعر :

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : « الشعر إذا لم تكن ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر [(٣)] » . ويظهر أن الأستاذ الإمام يريد بهذه العبارة أن الشعر — حق الشعر — هو ما نقل انفعال صاحبه

---

(١) القود : جمع أقود ، وهو الذليل المنقاد . والسوالف : جمع سالفة ، وهى ماتقدم من عنق الفرس . والقب : الضوامر البطون .

(٢) ديوان الشريف الرضى ، ج ١ ص ١٧٣

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٦٥٢

إلى قارئه ؛ بأن يضع الشاعر فى كلماته أقباسا من روحه وشعوره . وما أوثق الصلة بين الشعر والشعور، حتى فى تصريف مادتهما اللغوية .

ويبدو أن السيد محمد رشيد رضا قد تأثر بعبارة أستاذه الإمام ، ونستطيع أن نلمس ظلا لهذا التأثر فى حديثه عن الشعر والشعراء ، فهو يرى أن المرء يكون شاعرا إذا كان يجرل بكلامه المنظوم فى جميع المعلومات التى تأتى من الحس الظاهر ، من مسموع ومرئى ، ومشموم ومذوق وملموس، أو المعلومات التى تأتى من الحس الباطن ، وهى الوجدانيات ، كالشعور باللذة والألم، أو من العقل ، كالمسائل التى ينتزعها الفكر من المعلومات الحسية .

فهو إذن يرى أن للشعر علاقة من ناحية مصدره بمنابع متعددة هى كل كيان الإنسان ، وما الإنسان سوى حسه ووجدانه وعقله ؟ ثم يقول رشيد بعد ذلك إن أمس المعلومات بالشعر ، وأعلقها به يدا ، نوى النفس وأخلاقها ، وملكاتها وانفعالاتها ، ثم نواميس طبيعة العوالم الأخرى غير الإنسان ، ولعله يقصد ما تلتقطه مرآة الشاعر المستقبلة من خصائص الكائنات الأخرى ؛ كالحيوان والنبات .

وهو يرى أن الشاعر لابد له من أن يملك زمام اللغة بمجازها وحقيقتها ، وكنايتها وتصريحها ، ويقف على مناهج التركيب والتأليف ، وطرق الترتيب والترصيف ، ومناحى الانتقال ، مع التناسق فى الأقوال ، وأن يكون ذا قريحة صحيحة وسليقة قويمة .

ويرى أنه كلما ارتاض الشاعر بالسير فى مجال الشاعرية النامية -

«قويت شرة[1] جياده ، ولم تخرج عن مراده : حتى يشرف على غايات هذه الصناعة » .

ويذهب رشيد إلى أن الشعر ينتفع بالعلم ، فمن كانت مادته فى العلوم أو اللغة أغزر ، كانت قدرته على التصريف فى ضروب الشعر أكبر[2] .

ويقارن رشيد بين الشعراء فى عصورهم المختلفة فيرى أن الجاهليين نظموا فى كل أحوال الخليقة ، وأنهم كانوا مندفعين إلى الشعر من طبيعتهم ، وقد بلغ الجاهليون قبيل عصر النبوة الشأو البعد والغاية التى ليس وراءها غاية

وأما فى الإسلام فقد قلّ الشعر عن الجاهلية لشواغل العبادة ونصرة الدين ، وإن كان الإسلاميون قد ارتقت فى أول الإسلام ملكاتهم فى البلاغة على الجاهليين ، فكان كلامهم فى المنظوم والمنثور أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعلى معنى ، وكانوا بذلك أطول باعا ، وأرسخ قدما ، وإن كانوا قد حصروا كلامهم فى موضوعات قليلة .

وأما فى القرون الوسطى فقد قل الشعراء الذين يصح أن يوصفوا بهذا الوصف ، وإن يكن منهم قلائل ناهزوا المتقدمين من الشعراء .

وأما المتأخرون فقد أجادوا بالنسبة إلى أهل عصرهم ، ولكن لم يدرك أحدهم شأو السابقين ، وهو يقصد بالمتأخرين هنا من كانوا قبل أن ينهض الشعر فى العصر الحديث نهضته ، ويظهر فى ميدانه

(١) الشرة : بكسر الشين : النشاط .
(٢) المنار المجلد الأول ؛ ص ١٧٠ ، من مقال بعنوان : (الشعر والشعراء) .

أعلام له ؛ ولذلك نجده يقول إن المتأخرين هبطوا بالشعر إلى أسفل الدركات ، ويندر وجود المجيد منهم . وكان هذا سببا من أسباب التجديد فى الشعر [١] .

وهذه الآراء من رشيد تدل على بصر بالشعر وتاريخه وأحواله وبخاصه أنه قد قال هذه الآراء قبل أن يبتدئ القرن العشرون ، وكان الذين يدرسون الأدب وتاريخه قلة ، وكانت ملامح الدراسة الأدبية للشعر والحكم له أو عليه مازالت تحبو إلى طريق الظهور والوضوح .

ورشيد لا يغفل قيمة الوزن فى الشعر ، فهو يرى أن الشعر ضرب من ضروب الكلام يمتاز عن سائره بالأوزان ، وقد تكررت عبارة : « الشعر ضرب من ضروب الكلام يمتاز بالوزن » فى كلام رشيد ، وقد يوحى تكرارها لصاحب النظرة العاجلة أن رشيدا لا يميز الشعر إلا بالوزن ، ولو كان الأمر كذلك لما زاد الكلام عن كونه نظما ، ولفقد الشعر أهم صفة من صفاته ، وهو كونه تصويرا لمشاعر صاحبه ، وتأثيرا بانفعال قائله فى قارئه ، ولكن رشيدا لا يكتفى بهذا فى تعريف الشعر ولعله أراد بعبارته السابقة أن يذكر الفرق الظاهرى أو الشكلى بين النثر والشعر ، بدليل أنه بعد أن يقول إن الشعر يمتاز بالأوزان يضيف أنه يحتاج إلى أساليب خاصة ، وتصرف فى التخييل ، بحيث يؤثر فى النفس فيحرك انفعالها ويثير عاطفتها .

وهو أيضاً يرى أن التراكيب والألفاظ كالأجساد ، وأن المعانى أرواحها ، ولا تكمل محاسن الكلام إلا بحسن معانيه ، والشعر — كما يقول رشيد — هو ديوان العرب ، وينبوع الأدب .

(١) المنار — المجلد الأول ، ص ١٧٠ ، ص ١٩٥ .

وهو يرى أن الأمم اهتدت إلى أوزان الشعر بالفطرة . ثم تنوعت هذه الأوزان بالترقى . وربما اتفقت أمتان أو أكثر فى بعض الأوزان . ومن أراد الشعر العربى فلابد له من معرفة الأوزان ، لاعن طريق دراسة العروض ، فإن أحسن طابع يرسم فى نفس الشاعر الأوزان كثرة قراءة الشعر الصحيح[1] .

وهذه الآراء من رشيد تتفق مع أحداث الآراء التى يقول بها كثير من نقاد الشعر ودارسيه ، فإذا كان لرشيد فضل الاهتداء إلى الرأى الصواب من جهة . فله فضل السبق إلى ملاحظته والترجمة عنه من جهة أخرى .

ومما يؤكد لنا أن رشيدا كان يجعل روح الشعر المؤثرة أهم بكثير من الأوزان أنه قال : « لعمْرى ماالشعر إلا تخيل وتصوير ، يقصد به الوجدان بالتأثير ، ليكون الكلام مقبولا ، ومايأمر به مفعولا » .

وذكر أن هذا المعنى هو الذى عناه حسان بن ثابت شاعر الإسلام وشاعر الرسول عليه الصلاة والسلام حين قال له ولده : لسعنى طائر — وكان قد لسعه زنبور — فقال حسان : صفه لى . فأجاب الغلام : كأنه ملتف فى بردى حبره . فقال حسان معجبا : قال ابنى الشعر ورب الكعبة .

---

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ١٥٠ ، ١٧٢ .

(٢) البرد ، : ثوب يلتف به صاحبه ، والحبرة : نوع من الثياب اليمنية . (الأساس والقاموس) .

وهو المعنى الذى عناه عمر بن الخطاب حين قال : « الشعر جزل من كلام العرب ،تسكن به النائرة ، ويبلغ له القوم فى ناديهم [(١)] »

وهناك لرشيد كلمة فى الموضوع بليغة عميقة قالها بمناسبة حديثه عن « مختارات البارودى »، ومنها نفهم طائفة من الأمور هى :

١ ـ النفس تقوى برقة الشعور والوجدان ، ورقة التوسم والإدراك ، فلابد من الألمعية فى الملاحظة والإدراك ، حتى يستشف المرء الذكى بنظره ماوراء المادة ، وماخلف المظهر من مخبر ، ومايطوى المبنى من معنى .

٢ ـ يشير إلى أن القرآن الكريم ـ كتاب العربية الأعلى ـ نوه بقوة النظرة التى تنطوى على مختلف العواطف والمشاعر .

٣ ـ الشعراء قالوا الكثير فى أن الذكى يعرف الكثير بنظرته ، وأن الغبى يغفل عن القريب المرئى له بسبب بلادته .

٤ ـ الدقة فى الإدراك وفى الشعور والإحساس ترتقى بالنفس فى درجات الكمال الإنسانى .

٥ ـ يشير رشيد إلى ألوان من الفنون الجميلة ، وهى التصوير والموسيقى ، ويرى أن التصوير تعبير وإشعار بالأشياء عن طريق رسمها ، وأن الشعر تصوير للأشياء عن طريق القول ، والكمال فى كل من التصوير والشعر ألا يفوت المصور

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٥٠٦ و ٥٠٧ . ونائرة نائرة : هاجت هائجه .

أو الشاعر شيء من دقائق الصورة الظاهرة ، ولا من دقائق أنواع الشعور الباطنة .

٦ – يرى أن سبب السرعة فى انتشار الإصلاح الإسلامى بين العرب هو كونهم على حظ عظيم من الارتقاء فى الشعر الذى سما بمداركهم ، وطبعهم على الرقة والتأثر بكل معنى شريف . ورشيد يرتفع بمكانة الشعر العربى حين يصفه بأنه ديوان الحكمة ، وكتاب التاريخ ، ودفتر الآداب ، ويقرر أنه إذا كان الشعر قدْ ارتقى باللغة الواسعة ، فإنها هى أيضا قد ارتقت به

٧ – تربية الخيال الشعرى أكبر معين على ترقية اللغة وترقية الأمة ، والأمة العربية قد أفسدت فى عهود ضعفها لغتها فأفسدت نفوسها ، وضعف ذوقها و عتل وجدانها ، ولم تكن هناك استعاضة عن فقدان الشعر فينا بالبراعة فى الموسيقى أو التصور ، وأقرب الوسائل إلى إصلاح ذوقنا هو الشعر .

٨ – الشعر ليس هو النظم بل هو الشعور بدقائق المعانى فى صورها من المبانى ، مع إصابة موقع الوجدان من النفس ، والإقناع من العقل ويريد رشيد أن يكون كل عربى شاعرا بهذا المعنى .

٩ – يأسى رشيد لعدم حرص العرب – قبل عصر النهضة – على العناية بدواوين الشعر الموجودة ، والبحث عن الدواوين المفقودة ، ويفرح لقيام النهضة الأدبية التى كان من ثمارها انتشار دواوين الشعر ، وإن كان لا يعد كل ما فيها رائعا .

ويكفى هذا التلخيص لعناصر الكلمة الرشيدية النابغة عن الشعر ، ومن الخير أن نستعرض بعد هذا نصها ، لنرى كيف استطاع رشيد الداعية الدينى المشغول بالبحوث القرآنية والحديثية والفقهية والاجتماعية والجدلية أن يسبح بزورقه فى بحر الشعر ، فيلتقط منه لآلئ ذات قيمة ، ترينا صورة عن آرائه الفنية فى الشعر[1] .

قال رشيد رضا :

« إن قوى النفس كقوى الحس ، تضعف وتقوى ، وتمرض وتشفى ، وتهبط وترقى ، بل تموت وتحيا ، وإنما حياتها وارتقاؤها برقة الشعور والوجدان ، ودقة التوسم والإدراك

يدرك حديد البصر من معارف وجه محدثه ولو على بعد — مالا يدركه الكليل على القرب ، ويستشف من توسم مايعرض لها من التأثير ، ماتنقطع دونه أشعة بصر الحسير ، فهذا يعيا عن إدراك دقائق معارف الوجه ، وحركات الطرف ، فلا يعرف أمامه إلا شبحا ماثلا ، وهيكلا شاخصا .

وذاك يدرك ماوراء هذه المعارف من آثار الخطاب فى نفس المخاطب فيميز بين ماعرف منه وماأنكر ، وماأحب وما كره . يتوسم فيه فيوحى إليه ذلك انبساط الأسارير وانقباضها ، ولمعانها واقتتامها واحمرار البشرة واصفرارها ، وتخاوص العينين وجحوظهما ،

---

(١) فلنلاحظ أنه قال هذا فى مطلع سنة ١٩١١ م.

وترنيقهما ورنوهما ، وحركتهما وسجوهما ، وتصويبهما وتصعيدهما وسائر ضروب النظر ، كالحدج والشزر ، والشخوص ، والشفن .

فلكل نظر أثر باعث من نفس الناظر . وأثر حادث فى نفس المنظور إليه ، فمن لايؤثر بنظر عينيه ، ولاتؤثر فيه نظرات العيون ، فجدير به أن يعد من الأموات لامن الأحياء ، أو من مرضى النفوس لا الأصحاء .

فى القرآن العزيز آيات كثيرة فى تأثير النظر وأحوال البصر ، كقوله تعالى : (وإن يَكَادُ الَّذينَ كَفَرُوا لَيزلقونكَ بِأَبْصَارهم) . وقوله : (فإذَا بَرِقَ البَصَرُ) وقوله : (تَدُورُ أَعْيُنُهم كالذّى يغشى عَلَيه منَ المَوْتَ) .

وللشعراء فى ذلك رقائق : هى المظهر الأعلى لدقائق صناعتهم ، كقول الكيوانى :

وانظر إلى مرنقا حتى أغيب عن الشعور

وقول علية بنت المهدى :

ورابنى منه أنى لا أزال أرى فى طرفه قصرا عنى إذا نظرا

وقول أبى نواس حكاية :

ويعمل الطرف نحوى إن مررت به حتى ليخجلنى من حدة النظر

والشعر فى هذا المعنى كثير ، يدخل فى فنون شتى .

وإن من كان سميعا خبيرا بأنواع الأصوات ، وضروب اللهجات ، ودلالة كل جرس على كيفية خاصة فى النفس ، ومافى لحن

القول وفحواه ، من إيماء إلى غير مايدل عليه مبناه ، ليسمع مع الكلام ماكان باعثا عليه من نفس المتكلم ، وما ينثنى عليه صدره وينطوى عليه قلبه ، من حب وبغض ، ووفاء وغدر ، وأمن وخوف ورضى وكره ، قال تعالى : (وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهم فَلَعَرَفْتَهم بِسِيمَاهم ولَتَعْرِفَنَّهم فى لحْنِ الْقَوْل) أى فحواه ومعاريضه .

ومن أعجب الكلام إلى فى استخراج خبايا السرائر من كيفية أداء القول ، وجرس اللفظ قول امرأة كعب بن الأشرف له ، عندما دعاه فى الليل الذين يريدون قتله ، مظهرين الالتجاء إلى حصنه ، وقد نهته عن الخروج إليهم : (إننى أسمع صوتا يقطر منه الدم).

إن دقة الإدراك ، ورقة الشعور والإحساس ، هما آيتا ارتقاء النفس فى درجات الكمال الإنسانى ، ويرى الحكماء أن مظهر هذا الارتقاء يكون فى ثلاثة أشياء : الشعر ، والتصوير ، والموسيقى ، وهى التى يعبرون عنها بالفنون الجميلة ، فالتصوير هو الإشعار بالأشياء برسمها فى الألواح والصحف ، والشعر هو تصوير الأشياء بالقول . ومنتهى الكمال فيهما أن لايفوت صاحبهما شىء من دقائق الصورة الظاهرة ، ولامن دقائق أنواع الشعور الباطنة .

لولا أن كانت العرب على حظ عظيم من الارتقاء فى الشعر ، لما انتشر فيهم الإصلاح الإسلامى بتلك السرعة ثم رقى بهم

فى معارج المدنية ، حتى صاروا الأساتذة المصلحين لجميع الأمم ، ذلك بأن الإبداع فى الشعر قد أعلى مداركهم ؛ وأودع فى طباعهم الرقة ، وقبول التأثير بالمؤثرات الشريفة .

فالشعر هو ديوان حكمتهم ، وكتاب تاريخهم ؛ ودفتر آدابهم ، وقد ارتقى بلغتهم الواسعة ؛ وارتقت هى به ، حتى إنك لتجد فيها من الدقائق مايسلس لك زمام التعبير عن كل محسوس ومعقول .

فتربية الخيال الشعرى فيها أكبر معين على ترقيتها ؛ وما مرضت آدابنا إلا بما طرأ علينا من الجهل بلغتنا وآدابها وأشعارها ، حتى صار يعسر على أخطب الخطباء وأشعر الشعراء أن يحفزهم الجمهور منا إلى دفع خطر نحذره ، أو المبادرة إلى خير عام نرجوه .

أفسدنا لغتنا فأفسدنا نفوسنا ، فضعف ذوقها ؛ واعتل وجدانها ، وضعف تأثيرها وتأثرها ، ولم نستعض عما فقدناه من رقائق الشعر بالبراعة فى الموسيقى ولا التصوير .

وإن أقرب الوسائل إلى اصلاح ذوق آخرنا ؛ هى الوسيلة التى صلح بها ذوق أولنا ، ألا وهى الشعر الذى لاترتقى آداب اللغة وذوق أهلها إلا بارتقائه ، أعنى أن يكون كل عربى شاعرا . وإن لم يكن ناظماً ، وإنما الشاعر من يشعر بدقائق المعانى فى صورها من المبانى . ويبلغ بالكلام مايبلغه الكلام منه إذا أصاب موقع الوجدان من النفس ، والإقناع من العقل .

جعل الأدباء شعراءنا أزواجا ثلاثة : الجاهليين . والمخضرمين الذين أدركوا الإسلام منهم ، والمولدين ، ولكل منهم أسلوب ، وفنون من المعانى تختلف باختلاف الحال الاجتماعية التى عاشوا فيها.

وقد جمعت الدواوين للمشهورين منهم ، الذين حفظت أشعارهم ، فوصل إلينا بعضها دون بعض ، وأتى علينا حين من الدهر لايبالى جماهير المتعلمين منا بالموجود ، ولا يبحثون عن المفقود وحتى كانت النهضة الأدبية العلمية الحاضرة ، وطفق الناس ينشرون آثار السلف ، كما ينشدون ماجدده الخلف ، حتى أثروا بما لديهم من كسب وميراث ، فتكاثرت الظباء على خراش ، وضاقت الأوقات عن النظر فى كل ماينشر ، واشتدت الحاجة إلى اختيار أحسن مايروى منه ويؤثر » .

ثم مضى رشيد يتحدث عن مختارات البارودى وتوفيقه فيها ، وأثرها فى الأدباء[1] .

إن لهذا الكلام قيمة أدبية كبيرة . فقد كان رشيد بارعا وهو يتحدث عن الإدراك ، والشعور ، والملاحظة ، وشمول النظرة ، مع عمق الفكرة ، وأثر الشعر فى الأمة ، وأثر الفنون الجميلة الأخرى . ووجوب العناية بالشعر ، والتفرقة بين الشاعر والناظم ، والدعوة إلى أن يكون كل عربى شاعرا ، أى صاحب شعور .

ولم يقتصر رشيد فى تبيان أن الشعر هو الشعور على ماسبق ، بل أخذ يؤكد ذلك فى أكثر من مناسبة ، فهو يقرر أن النثر

(١) المنار ، المجلد ١٣ ص ٩٥٤ — ٩٥٧ . عدد أول يناير (كانون الثانى) سنة ١٩١١م

المنطوى على شعور وتأثير يعد من الشعر . ولقد كتب تحليلا نثريا للوداع ، وجعل عنوان هذا التحليل قوله : «نبذة فلسفية شعرية» وقال عن عبارة منثورة كتبها لصديقه فى وصف حالة التوديع إنها « عبارة شعرية[1] » .

وهو يطلق كلمة «الشعر» على النثر المؤثر ويقول عن مناظر طبيعية رآها فى إيطالية وسويسرة إنها « تولد عنده المعانى الشعرية » وهو يقصد بالمعانى الشعرية وصفه النثرى البليغ لها[2] .

ويكتب مقالا عن « الحجاز والعرب » يصور فيه نهاية الشريف الحسين بن على . ويتحدث عن عبد العزيز بن سعود . ثم يقول إنه أورد هذه السيرة « بعبارة شعرية . أو كالشعرية ، لئلا تمج الأسماع لأ قراءتها[3] » .

لقد أوردت أكثر من نص يدل على أن رشيدا يرى أن العنصر المهم فى الشعر هو أن يكون ناشئا عن انفعال من قائله ، محركا الشعور عند متقبله : وهذا هو غاية مانتطلبه من الشاعر المجيد ، أن يصدق فى تصوير أحاسيسه وانفعالاته . فى إحكام ونظام وحسن بيان ، وأن يوفق إلى إثارة المشاعر التى يريد أن تثور فى نفوس قارئيه .

* * *

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص٤٦٧ .
(٢) المنار ، المجلد ٢٣ ص ٣٠٩ .
(٣) المنار ، المجلد ٢٦ ص ٦٧٢ .

وقد تعرض رشيد لما يسمى « الشعر العصرى » ، فقال إن « المراد بالشعر العصرى ما يناسب حالة هذا العصر فى شئونه العامة وعلومه وفنونه »[1] .

وكأنه بهذا التعريف يدخل تعديلا على مفهوم « الشعر العصرى » عند الكثيرين ، لأن هؤلاء يفهمون من كلمة « الشعر العصرى » معنى المخالفة لشعر السابقين .

ولقد ثار حوار طويل حول موضوع « الفن والحياة » : أيكون الفن للفن كما يقولون ، أم يكون الفن للحياة والأحياء والمجتمع ؟ .

ورشيد قد أبدى رأيه فى هذا الموضوع قبيل طليعة القرن العشرين ، فصرح بأن الأدب يجب أن يكون للمجتمع ، فقال . « لا يخفى أن حالة العصر تقتضى أن تكون الأدبيات موافقة للشئون الاجتماعية فيه ، فنحن فى أشد الحاجة إلى الشعراء والمنشئين الذين يصرفون قوتهم الخيالية إلى جذب وجدان الأمة إلى الفضائل الاجتماعية التى ترتقى بها ، وتساوى الأمم العزيزة ، وتجول فى ميادين المعلومات التى انتهت إليها المدنية الحاضرة لأجل ذلك .

كما أننا فى أشد الحاجة إلى إحياء موات لغتنا العربية بالاستعمال لأن الأمة لاتحيا بدون لغة[2]

---

(١) المنار ، المجلد ٢ ص ١٨٦ . عدد ٣ يونية سنة ١٨٩٩ .

(٢) المنار ، المجلد ٣ ص ٤٢٤ — عدد ٢٧ (آب) سنة ١٩٠٠

ويؤكد رشيد هذا الرأى الداعى إلى أن يكون الأدب والشعر والفن فى خدمة المجتمع والناس ، فنراه حين يكتب عن ديوان « الشوقيات » يذكر أنه إذا وفق أحمد شوقى إلى النظم فى انتقاد العادات ، وفى الموضوعات الاجتماعية الإصلاحية ، فإنه ينفع أمته نفعا يحفظه له التاريخ ، ويشكره له الله تعالى والناس وبهذا يكون الشعر من أنفع وسائل التهذيب ، وأجل حاجات العمران [١] .

ومن مظاهر إيمان رشيد بأن يكون الشعر للمجتمع والإصلاح أنه ينشر قصيدة طويلة للشاعر معروف الرصافى عن « المطلقة » ويعلق عليها بقوله :

« قصيدة للشيخ معروف الرصافى الشاعر العراقى الشهير ينتصر فيها لمذهب الإمام ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان) والقصيدة تحكى قصة زوج طلق زوجته بلا ذنب لها ولا عيب فيها ، بل غضب هو مع خلطائه .فأقسم لهم بالطلاق ، فأفتى له مفتون بطلاقها .ويعيب الرصافى هذا الفهم السيىء للدين ، وينتصر لفتوى ابن القيم .

وفى آخر القصيدة يقول الرصافى :

فذى (ابن القيم)الفقهاء ، كم	دعاهم للصواب فلم يجيبوا
فنى (إعلامه) للناس رشد	ومزدجر لمن هو مستريب
نحا فيما أتاه طريق علم	نحاها شيخه الحبر الأريب
وبين حكم دين الله ، لكن	من الغالين لم تعه القلوب .

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ٥٦٨

لعل الله يحدث بعد أمرا لنا ، فيخيب منهم من يخيب[1]

ونلحظ هنا أن رشيدا يستطيب تعاون الشعر والفقه ، ويستحسن أن يؤيد الشاعر بكلمته المنظومة فكرة الفقيه المنثورة .

ورشيد محق حين يطلب إلى الشاعر أن يحس بما حوله ومن حوله ، وألا يقطع صلته بمجتمعه وإذا كان الشاعر يحس بخطرة النسيم ، ويثير مشاعره أقل الأشياء فلماذا تتبلد مشاعره أمام مايصطرع مجتمعه من تيارات ومشكلات وأحداث ؟

ولقد ظل رشيد إلى آخر حياته يؤيد فكرة « الشعر للمجتمع وللأحياء » ، ومما يشير إلى هذا أنه نشر فى العدد الأول من المجلد الخامس والثلاثين من مجلة المنار — وهو آخر عدد كامل صدر فى حياة رشيد — نشر همزية طويلة للضابط محمد توفيق على استغرقت ثمانى صفحات ، وفيها يتحدث الشاعر عن الشريعة السمحة ، وعن ضرر الخمر ، وعن الطلاق وتعدد الزوجات وحكمتهما ، وعن وجوب توحيد الخالق وحسن الرجاء فيه[2] ... الخ .

ونشر هذه القصيدة بطولها فى هذا العدد يعد أيضاً تأكيدا لعناية رشيد بأمر الشعر ، حيث فسح له فى مجلته ، منذ طفولتها حتى تركها عند وفاته .

* * *

وكأن موقف رشيد من « المدح » يلوح فيه شىء من الاضطراب يمكن أن يزول ببعض التأمل . لقد مدح رشيد فى شعره كثيرين

---

(١) المنار ، المجلد ١٣ ص ١٢٨ — ١٣٠ .

(٢) المنار ، المجلد ٣٥ ص ٤٧ — ٥٤ .

من شيوخه ورجال عصره ومع ذلك يذكر أنه لا يحب ضروب المديح فى الشعر[1] . وحينما وضع خطة لمجلة « المنار » ذكر أنها «تتحامى المطاعن الشخصية ، والأماديح الشعرية[2] » ، ومع ذلك نشر فى المنار أمداحا للسلطان العثمانى وغيره .

وكأنه يحاول أن يوضح موقفه ، حين يذكر أنه كان يحب «المدائح الشخصية فى يوم من الأيام » ، ولذلك كان يعجب بقصيدة رائية لشكيب أرسلان فى مدح السلطان عبدالحميد ، ويتمثل بأبيات منها وهو يرى أن مدح شكيب لجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده من الشعر الإصلاحى ، لا من المدح الشخصى ، ويقرر أنه لايحفظ من ديوان شكيب (الباكورة) إلا قصائد هذا النوع من المديح . ومايشترك معه من قصائد العلم والتاريخ .

إذن هو «كان» يحب المدائح الشخصية فى يوم من الأيام ولكنه عاد بعد ذلك فكرهها ، وأصبح لايحب من المديح إلا ما كان دائرا حول الشخصيات الإصلاحية التى يعد مدحها مدحا لجهود أصحابها فى مجالات الإصلاح .

ورشيد يبغض الكذب والمبالغة فى مديح الشعراء : ولذلك يقول : تجد الفاسق من الشعراء المتأخرين يطرى بعض

---

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٨٢٤ .

(٢) المنار ، الجزء الأول ، ص ١٣ .

المشهورين بالعلم أو الصلاح ، بما لم يرد عشر معشاره عن شعراء الصحابة فى النبى عليه الصلاة والسلام[١] » .

والشاعر يفعل ذلك فى الغالب لملق أو نفاق أو طمع ، كما أن كثيرا من الشعراء يجعلون أنفسهم توابع للملوك أو الأمراء رجاء لرفدهم وتأييدهم ، ورشيد يرتفع بكرامة الشاعر عن هذا المنحدر ، ويقول إن ذلك العهد الذى كان مألوفا فيه من الشاعر أن ينتمى بالتبعية والموالاة لملك أو أمير قد زال ، وأن الزمان الذى يرتفع فيه قدر الشاعر بشعره قد أقبل ، ويرتجى أيضا إقبال الزمن الذى تعلو فيه درجة العالم بعلمه[٢] .

ورشيد فى هذا الرأى يستحق التكريم من عقلاء الشعراء الذين أضن بهم على موقف التبعية والهوان .

* * *

ونفهم من حديث رشيد أنه يسخر من الشعراء الذين ينقلون عن غيرهم معانيهم وتعبيراتهم مع شىء من التغيير الذى لا يقدم ولا يؤخر ، فقد كان يتحدث عن معارضة الحمقى للقرآن الكريم ، فذكر أن بعض هؤلاء يعمد إلى النص القرآنى ، ويغير فيه بعض ألفاظ ويعد نفسه بذلك معارضا للقرآن ، وهو لم يزد عن كونه مقلدا فاشلا .

---

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٣٩٦ .

(٢) المنار ، المجلد ٣٢ ص ٧٢٠ من كلمة فى رثاء أحمد شوقى .

ثم أراد رشيد أن يضرب على ذلك مثلا : فذكر قول بعض الشعراء :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من رمقا

لك أن تبدى لنا حسنا ولنا أن نعمل الحدقا

قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاحترقا

ثم غير رشيد قوافيها نمطاً لا معنى بالبداهة — على حد تعبيره — فقال :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من مقلا[1]

لك أن تبدى لنا حسنا ولنا أن نعمل المقلا

قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاشتعلا

ثم غيرها مرة أخرى فقال :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من بصرا

لك أن تبدى لنا حسنا ولنا أن نعمل النظرا

قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاستعرا

ثم علق رشيد على هذا بقوله : « فهل أكون بهذا معارضا للأصل وفى طبقة صاحبه من غزل الشعر[2] » ؟ .

والحق مع رشيد ، فليست هذه معارضة ، وإنما هى سرقة واضحة ومسخ ميسور أمره لكثير من الناس .

---

(١) مقل على وزن فتح : نظر بمقلته . (٢) تفسير المنار ، ج١ ص٢٢٦

رشيد وقدماء الشعراء :

من الخير أن نعرف لمحة سريعة عن رأى رشيد رضا فى الشعراء السابقين . لنحاول بذلك استكمال الصورة عن آرائه فى الشعر والشعراء . فهو مثلا يصف أبا العلاء المعرى بأنه « حكيم الشعراء » وبأنه كبير العقل بعيد الفكر والقول ، وأنه « ذهب بشعره فى فلسفة الأفكار مذاهب لم يسبقه بها سابق ، ولم يلحقه بمثلها لاحق إلا أن يكون عمر الخيام . فإنه جرى على آثاره ، فى إيداع الشعر فلسفة أفكاره[1] » .

وكان رشيد يعجب بقول أبى العلاء :

ظلموا الرعية ، واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها . وهم أجراؤها

ومن حقه أن يعجب به : فالبيت تصوير للعلاقة الفاسدة بين الرعاة والرعية ، التى نشأت من ظلم الرعاة وإهمالهم . وذلك أمر كان يشكو منه رشيد فى مجتمعه مر الشكوى .

وكان رشيد معجبا بالشريف الرضى . ومكثرا لقراءة شعره ، وكان يكثر من الاستشهاد به . ومن أمثلة ذلك ما ذكره من شعره عند حديثه عن الأشعار فى ليالى « مِنَى » . وفى مواطن أخرى[2] .

وأطلق رشيد على أبى نواس لقب «فاسق الشعراء» . ولكن هذا لم يمنع رشيدا أن يدرك المرتقى الذى بلغته شاعرية أبى نواس ، ولذلك يقول عنه :

« كان أبو نواس شاعرا ، بل هو أشعر الشعراء فى عصره ، الذى ارتقى به شعر الحضارة والتمتع إلى أوجه ، وكان مع هذا

(١) المنار ، المجلد ٦ ص ٣ و ٨٣٨

(٢) المنار : المجلد ٢٠ ص ٣٢٠ . والمجلد ٢١ ص ١٨٦

ماجنا فاسقاً ، ولم يؤت شيئًا من الجد فى خدمة الأمة ، ولا سياسة الدولة . ولا عنى بهداية الدين ، ولا بيان فضائل الإسلام [١]

فرشيد ينظر إلى أبى نواس من جهتين : جهة أخلاقية اجتماعية ، وهو يراه فى هذه الناحية مثلا من أمثلة السوء والفساد ، وجهة أدبية فنية ، وهو يراه فيها صاحب سبق وتبريز .وهذا يدل على سعة أفق عند رشيد .

رشيد وشعراء عصره :

كانت لرشيد صلات بكثير من شعراء عصره ، أمثال البارودى وشوقى وحافظ وحفنى ناصف، وعبد المحسن الكاظمى . ومعروف الرصافى . وأحمد الكاشف ، ومصطفى لطفى المنفلوطى . وأحمد زكى أبو شادى ، وتوفيق البكرى ، وغيرهم .

ولو عكف الباحث على تتبع هذه الصلات منذ نشأتها حتى نهايتها ، لوجد أمامه مادة ضخمة صالحة لبحث واسع ممتع ، ولكن المناسب هنا هو الاقتصار على ما قل ودل . وللتوسع والتمتع مجال آخر .

رشيد ومحمود سامى البارودى :

من الشعراء الذين عرفهم رشيد واتصل بهم وصادقهم وحسن رأيه فيهم : محمود باشا سامى البارودى . ولعل مما عاون على تأكيد الصلة بينهما العلاقة التى كانت بين البارودى والشيخ محمد عبده أستاذ رشيد الذى يشير إلى هذه العلاقة وبقائها على الأيام حين يذكر أن الأوفياء للبارودى بعد عودته من منفاه كانوا قلة ، وهم الأدباء

(١) المنار ، المجلد ٣٢ ص ١٤٢

والشعراء ، وكان أشدهم له وفاء الأستاذ الإمام ، ومثله يقوم بحقوق الصداقة حق القيام[1] » .

وكان رشيد يلتقي بالبارودى ، ويسمع منه شعره ، ومما سمعه منه قصيدته التي مطلعها :

محا البين ما أبقت عيون المهامِنِى فشبت ولم أقض اللبانة من سنى

وقد بادل البارودى رشيدا حبًا بحب ، وتقديرًا بتقدير ، فحينما طبع رشيد كتاب « أسرار البلاغة » ، ووضع عليه حواشى ضمنها أبياتًا من مقصورته ، طالع البارودى هذه الأبيات — كما يذكر رشيد — فأعجب بها ، وسأل رشيدا عن المقصورة ، فأنشده بعضها ، ففضلها البارودى على المقصورة الدريدية ، وطالب طبعها أو نسخها له[2] .

كذلك كان البارودى بعد عودته من المنفى يطالع مجلة « المنار » ويشيد بها ، ويقول أن رشيدا قد نهض برسالة الإسلام[3] .

بل إن رشيدا يتحدث عن صحبته للبارودى بعد عودته من المنفى ، فيذكر أن البارودى « كان له ولوع بالمنار ، حتى كان أحيانا يطالبه قبل صدوره ، بل قبل تمام طبعه ، فنرسل له الكراسة بعد الأخرى خالصة له من دون المحبين » . كما يقول رشيد إنه كان يذاكره فى شئون الإصلاح ، فيراه متفقا معه فى كل ما يعتقد ويكتب فى وسائل الإصلاح لحال المسلمين[4] .

---

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٨٣٢ .
(٢) المنار والأزهر ، ص ١٨٤ .
(٣) رشيد رضا الإمام المجاهد ، ص ١٩٦ .
(٤) المنار ، المجلد ٧ ص ٨٣٢ .

ورشيد يلقب البارودى بلقب « كبير شعراء مصر » ، ويحكم له بأنه قال الشعر فى شبابه ، فكان فى بدايته خيرا من جميع شعراء عصره فى نهايتهم[1] .

وهذا حكم لا يخلو من توسع ، ولعل مظهر توسعه هو مقارنة رشيد بين « بداية » البارودى ، و « نهاية » جميع الشعراء فى عصره ، وتفضيله بداية صاحبه على نهاية جميع الشعراء فى عصره بلا استثناء ، وكلمة « جميع » هنا جامعة شاملة ، وليس من السهل إصدار حكم بهذه الصورة قبل الاستقصاء لآثار كل الشعراء فى البلاد العربية على عهد البارودى ، والمقارنة التفصيلية بين بداية البارودى ونهاية كل شاعر من هؤلاء .

ولست أريد بهذا أن أهوّن من شأن البارودى ، أو جلال مكانته بين شعراء عصره . أو زعامته الشعرية لجيله ، ولكنى آخذ على رشيد هذا التوسع بجعل بداية البارودى خيرا من نهاية جميع الشعراء فى عصره ، وهذا هو العقاد الذى يمجد البارودى كثيرا ، يقرر ما للبارودى وما عليه ، فهو يرى أن البارودى مبتكر مبرز فى مجال الشعور بالحرية القومية ، ولكنه كان يقلد أحيانا كما يقلد النظامون فى عهد الحملة الفرنسية ، وهو يبتكر أحيانا كما يبتكر الشاعر الطليق بين أحدث المعاصرين .

والبارودى فى رأى العقاد قد وثب وثبة شاهقة بالعبارة الشعرية من الضعف والركاكة إلى الصحة والمتانة ، بحيث صار فى ذلك قمة

---

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٨٢٥

لا تبارى ؛ ولم يكن قبل البارودى من هو أمتن منه فى ذلك ، وقد سبق الساعاتى كالتمهيد لمجىء البارودى ، ولم يكن قبل الساعاتى من هو أمتن منه .

وإذا كان البارودى أسبق الشعراء المطبوعين فى العصر الحديث ؛ فإنه لم يخل من قيود العرف وأوضاع المحاكاة ؛ وإن كانت عنده السليقة الشعرية ، وقد أفرط فى محاكاة شعر البداوة ؛ وهو مع إحكامه وإجادته فيها قد وقع فى قليل من الهفوات ؛ وأحيانا يقحم البارودى بعض الأشياء فى شعره بتكلف لا يستحسن من الشاعر .

ويقول العقاد فيما يقول : « وعندنا أن البارودى لو كان يعرف تعريف الشعر ؛ بحيث إقامته دراسة الفنون الجميلة ، ودراسة المعانى النفسية ، لحطم قيود التقليد كلها ، أو استرسل فى حرية القول ، واستقلال الشخصية إلى غاية أبعد وأسمى[1] » .

فالعقاد يمجد البارودى ويقدمه على غيره : ولكنه لا يتوسع فى الحكم له على الإطلاق كما فعل رشيد رحمة الله عليه .

ولكن لا ينبغى أن ننسى أن رشيدا ينظر إلى البارودى بعين المحب المعجب ، ولذلك عاد يسبغ على البارودى حللا من تقديره وثنائه ، فيصفه بأنه « نابغة هذا العصر ، وإمام أهله فى الأدب والشعر » . ويقول عنه : « صاحب الأدب الرائع ، والذوق السليم ؛ والنقد

(١) شعراء مصر ، ص ١٢١ و ١٢٥ و ١٢٥ و ١٢٩ و ١٤١ و ١٤٦ .

الصحيح . الذى جرى مع أولئك الفرسان[1] فى كل حلبة ، وضرب معهم بكل سهم . وعارضهم فى كل ضرب من ضروب الشعر[2] .

ويعود رشيد ليقول عن البارودى : « ناهز الجاهليين فى القوة والمتانة . وخاطر المخضرمين فى الفصاحة والبلاغة ، وبذ المولدين فى الرقة والسلاسة ، فصح أن يلقب برب السيف والقلم . وصاحب الحكم والحكم . وفارس الميدان والبيان . والصائل بالسنان واللسان ، ومازال أهل الأدب يعجبون بذوقه وحسن اختياره[3] .

ومما يستحسنه رشيد من شعر البارودى قوله فى الفخر والتنويه بقومه :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر

ويعلق رشيد على البيتين فاسحا مجال الإعجاب بهما فيقول :

« ياالله ، ما أرق حاشية قوله : (لها فى حواشى كل داجية فجر) وما أدق غزل خياله فيه ، وأما البيت الثانى فإنه ليكاد يروع ببلاغته السامع ، حتى يخيل إليه أن الأفلاك تصدعت مما تفزعت ، فيلمس

---

(١) يقصد كبار الشعراء السابقين الذين اختار البارودى من قصائدهم فى كتابه : (مختارات البارودى) ومنهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ، ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، والبحترى وابن المعتز ، والمتنبى والشريف الرضى ، والمعرى والديلمى والطغرائى . . . إلخ .

(٢) المنار ، المجلد ١٣ ص ٩٥٧

(٣) المنار ، المجلد ٧ ص ٨٣١ . وخاطر المخضرمين : أى صار مثلهم .

رأسه مخافة أن يصيبه كسف منها ، ويتمثل له الدهر رجلا فجأه العجب ، فالتفت إلى السبب .

وايكاديلفته ما يتخيل من التفات الدهر ، ويلم به الدهش والذعر ، أو يذهب به الوهم إلى أن التفات الدهر هو التفات أهله ، فيحسب كل فرد من الناس قد ألوى عنقه ، وشخص ببصره مقطبا ، ينظر ما يكون من فعل ذلك السيف المستل فى يد ذلك البُهمة الأمثل .

وجملة ما يقال فى البيتين : إنهما من السحر الذى يأخذ المرء عن نفسه ، ويحكم سلطان الخيال فى عقله وحسه ، ولكنى لا أعرف صيغة : (تفزع) فى هذه المادة لغيره ، ولو كان لى أن أخير مثلها لأجزتها ، وقلت إنها مما يشتق قياسا ، فإنى لا أرى لغيرها مثل روعتها[1] » .

وهذا تعليق يدل على تذوق طيب للشعر ، وإدراك لدقائق معانيه ، وقد حاول رشيد كما رأينا أن يبين وجه المبالغة فى قول البارودى : « تفزعت الأفلاك والتفت الدهر » ، وعندى أن تفسيره لهذه المبالغة الواسعة أحسن مما ذكره العقاد فى تعليقه على تلك العبارة ، حيث قال :

« هو إغراق لا يميل إليه الذوق الحديث ، ولكنه ليس بالإغراق الغريب عن طبيعة الجندى فى موقف الحماسة والمفاخرة ، و ليس تفزع الأفلاك مقصودا هنا بعرفه وظاهره ، وإنما يجوز أن يكون تفزعا يقع فى نفوس الأعداء ، فتضطرب فيها مشاهد الأرض والسماء[2] » .

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٨٢٦ . والكف — بكسر فسكون ، او بكسر ففتح — جمع كسفة — بكسر فسكون — وهى القطعة من الشىء . والبهمة : بضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذى لا يعرف أحد من أين يؤتى .

(٢) شعراء مصر ، ص ١٤٧

وذلك لأن العقاد قصر « التفزع » هنا على الأعداء وحدهم ، وأما رشيد فقد جعل التفزع واقعا من كل سامع ومن كل مشاهد ، ولنتذكر هنا أن رشيدا قال هذا التفسير فى طليعة سنة ١٩٠٥ — وهو غير متفرغ للأدب أو الشعر — وأن العقاد قال تفسيره بعد ذلك بعشرات من السنين .

وقد يحسن أن نتذكر هنا أن رأى البارودى فى رسالة الشعر والشاعر يشبه رأى رشيد ، فالبارودى يقول فى مقدمة ديوانه : « ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها مسرح » .

ويقول البارودى عن قيمة الشعر وأثره :

صحائف لم تزل تتلى بألسنة ... للدهر فى كل ناد منه معمور
يزهى بها كل سام فى أرومته ... ويتقى البأس منها كل مغمور
فكم بها رسخت أركان مملكة ... وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ... ما خطه الفكر من بحث وتنقير

ومع أن الشعر القوى يظل قويا سواء أقيل فى الخير أم فى الشر ، يود الرجل المصلح دائماً أن تكون الكلمة القوية الطيبة — منثورة كانت أم منظومة فى خدمة الشريف من المقاصد ، والنبيل من الأغراض ، وإن الشعر فى هذا المجال ليستطيع الكثير والكثير ، وقديما قال أبو تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

* * *

رشيد وشوقي :

كانت هناك صلة بين رشيد وأحمد شوقي أمير الشعراء . وقد نشأت هذه الصلة منذ وقت مبكر ، ولعل علاقة شوقي بالشيخ محمد عبده من جهة ، وصداقته لأمير البيان شكيب أرسلان — وهو صديق رشيد من جهة أخرى ، ساعدتا على إيجاد هذه الصلة ، ولكنها ظلت لم تستقر على وتيرة واحدة ، بل عرض فيها تغيير أو تبديل .

في سنة ١٩٠٠ م أهدى شوقي إلى رشيد رضا ديوانه « الشوقيات » ومعنى هذا أن العلاقة بينهما حينئذ طيبة ، وكتب رشيد عن « الشوقيات » صفحتين ونصف صفحة ، فوصفها بأنها غنية عن التقريظ ، « فهي التي جاوزت الأمصار ، حتى عمت شهرتها الأقطار » . ويقول عن شوقي : « إنه في الشعر أعلى كعبا ، وأرسخ قدما ، وإن روح الشعر اللطيفة تطوف في جميع منثوره » . ورشيد بهذا الجزء الأخير من عبارته يذكرنا برأيه في تحديد الشعر ، فكل كلام له روح وفيه انفعال وتأثير فهو شعر عند رشيد .

ويقول رشيد أيضا عن أشعار شوقي : « معان عالية ، وعبارات زاهية ، وأفكار دقيقة ، في أساليب رشيقة » . وهذا حكم يعتمد على الجمل العامة الموصوفة أكثر مما يعتمد على الحكم المفصل المحدد .

ولكنه لاحظ أن أمير الشعراء لا يهجو ، وحمد له هذا ، ثم حثه على أن يقول الشعر في الاجتماعيات وانتقاد السيء من العادات ، وهذا الحث يتفق مع مذهب رشيد في رسالة الشعر .

وأخذ رشيد فى هذا الفصل على شوقى أنه استعمل كلمة « احتار » ، لم ينطق بها العرب[1] .

هكذا رأينا كتابة رشيد عن شوقى أقرب إلى التعميم منها إلى التجديد ورأيناها تثنى وتمدح ، وتنقد برفق .

ويمر على ذلك عام وبضعة أشهر ، وإذا رشيد ينشر تحت عنوان : « لشاعر أمير مصر أحمد بك شوقى » هذين البيتين من شعره :

أرى طوفان هذا الغرب يطغى | وأهل الشرق سادتهم نيام
فإن لم يأتنا نوح بفلك | على الإسلام والشرق السلام

ثم كتب رشيد تحتهما هذه العبارة :

« نشرت البيتين جريدة « المناظر » البرازيلية الغراء ، وسألت هل مولى الشاعر من هؤلاء السادة النيام أم لا ، أم هو مستثنى ! .

ونحن نجيبها عنه بأنه يريد بنوح مولاه ، ويرجو منه الإتيان بفلك النجاة[2] » .

وجواب رشيد الذى قاله بالنيابة عن شوقى جواب مبهم غامض ، ونحن لا ندرى : أأراد به أن أمير مصر معقد الرجاء فعلا ، أم أراد به السخرية والتعريض .

وهناك أيضا كلمة « شاعر أمير مصر » توحى إلينا بأن رشيدا كان يربط شاعرية شوقى بأمير مصر ، ومع أن الشاعر الكبير قد فخر يوما فقال عن نفسه :

شاعر الأمير وما | بالقليل ذا اللقب

---

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ٥٦٦ ، عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠

(٢) المنار ، المجلد ٤ ص ٨٨٠ . عدد ٩ فبراير (شباط) سنة ١٩٠٢

فإن اللقب نفسه أعطى الكثير من المتأدبين معنى لا يليق بالشاعر الطليق ، إذ أفاد هذا اللقب اقتصار شوقى على التمدح بالأمير وصوغ الشعر فيه .

ويمضى أكثر من عام ، ويعود رشيد إلى الكتابة عن شوقى . فيتحدث عن قصة « ورقة الآس » التى نشرت ضمن قصص « مسامرات الشعب » ومع أن رشيدا كرر وصف شوقى بلقب « شاعر الأمير » نراه يثنى على شوقى وينوه بقصته ، حيث يقول : « وقد قرأتها فألفيتها أحسن ما قرأت من هذه القصص عبارة وأسلوبا وتأثيرا ، حتى كدت أقول إنها هى القصة الأولى والأخيرة من هذه المسامرات[1] » .

ومضت سنوات ، وظهر لشوقى قصيدة « نهج البردة » مشروحة بقلم الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر ، كما جاء ذلك على غلافها ، وإن كان هناك شك فى نسبة هذا الشرح إلى الشيخ سليم ، وقد سمعت من الدكتور زكى مبارك تأكيدا بأن الشارح للنهج هو الشيخ عبد العزيز البشرى[2] ، رحم الله الجميع .

وكتب رشيد عن النهج ، فى عدد أول مارس (آزار) سنة ١٩١١م . من مجلة المنار ، ويبدو أن العلاقة بين رشيد والخديو (أمير مصر) قد تحسنت ، فلا غرابة إذا عبر عن شوقى بقوله : « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقال إنه نظمها معارضا بها

---

(١) المنار ، المجلد ٦ ص ١٤٦ ، عدد ١٤ مايو سنة ١٩٠٣

(٢) جاءت فى كلام رشيد عن قصيدة نهج البردة عبارة بشأن شرحها تقول : «وأما الشرح فأسلوبه أدبى ، لا علمى أزهرى» فهل نستطيع أن نفهم من هذا أن الشرح لم يكن من الشيخ العالم ، وإنما كان من ولده عبد العزيز الكاتب الأديب ؟

البوصيرى ، « وجعلها تذكارا لحج الأمير الحاج عباس حلمى الثانى إلى بيت الله الحرام سنة ١٣٢٧ هـ » .

ونوه رشيد بحج الأمير المعظم ، « على حين ترك ملوك المسلمين وأمراؤهم هذا الركن الدينى المحتم » . وخلع رشيد على شوقى لقب « نابغة الشعراء فى مصر ، ولك أن تقول : نابغتهم فى هذا العصر » ؛ ورشيد مع الشعراء موزع ألقاب ، فلكل منهم عنده لقب ، كما رأيناه مع البارودى ، وكما نراه مع غيره من الشعراء ، بل كما نراه مع غير الشعراء ، فقد أطلق على محمد المويلحى لقب « نابغة الكتاب فى هذا القطر » .

وقد ذكر رشيد المويلحى هنا لأنه وضع لنهج البردة فاتحة تحدث فيها عن الشعر وضروبه ، ثم قال رشيد : « فتم بذلك التناسب ومراعاة النظير ، بالجمع بين كلام أشهر العلماء ، والشعراء والكتاب» وهو يشير بهذا إلى الشيخ البشرى الشارح ، وشوقى الشاعر ، والمويلحى المقدم ، وقال رشيد : « إنها مزية قلما تجتمع فى كتاب » .

ونوه رشيد بأبيات كثيرة من نهج البردة ، ومن بينها ما قاله شوقى عن الحرب ومشروعيته فى الإسلام ، ثم علق رشيد على هذا بقوله : « هذا ماقاله فى مسألة عصرية أى من المسائل التى يكثر البحث فيها فى هذا العصر ، وكنت أود لو كانت القصيدة كلها على هذا النسق ، ولكن أكثرها على الطريقة القديمة فى المدح ، وقال فى وصف الشريعة الغراء ما أجاد فيه وأفاد[1] .

---

(١) المنار ، المجلد ١٤ ص ١٥٠ .

وهكذا حاول رشيد أن يوجد لونا من التوازن بين ثنائه على شوقى ونقده له .

ومضت الأيام ، والصلة بين رشيد وشوقى قائمة : وازدادت فيما بعد توثقا وعمقا ، ولذلك كان رشيد عضوا فى اللجنة التنفيذية التى ألفت سنة ١٩٢٦ م لتكريم الشاعر أحمد شوقى ، تمهيدا لمبايعته بإمارة الشعراء ، وكانت اللجنة برئاسة أحمد شفيق باشا . وكذلك كان رشيد عضوا فى اللجنة العلمية من لجان تكريم شوقى [١] .

وكذلك كان رشيد عضوا فى لجنة تأبين شوقى ، ولقد كتب رشيد رسالة إلى الأمير شكيب بتاريخ ٩ من ديسمبر سنة ١٩٣٢ م يقول له فيها : إنه كان مشغولا طيلة الأسبوع باحتفالات تأبين المرحوم أحمد شوقى ، وكان آخرها مساء الخميس ٨ ديسمبر ، وكان فى الاحتفالات ضيوف من سورية ولبنان وفلسطين ، وأخبر رشيد شكيبا أنه لو أرسل إليه قصيدته فى رثاء شوقى لألقاها بالنيابة عن شكيب [٢] .

وصلة رشيد بشوقى على الصورة السابقة تدل على وثاقة ارتباط رشيد بالحياة الأدبية والشعرية فى عصره ، فهو لا تشغله شواغل الدعوة والإرشاد عن الإسهام بنصيبه فى هذه الحياة : قائلا أو كاتبا أو محييا أو ناقدا .

* * *

(١) مهرجان شوقى ، ص ٥ و ١٠
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٦٨٧

رشيد وحافظ ابراهيم :

على طريقة رشيد فى توزيع الألقاب على الشعراء نراه يلقب حافظ إبراهيم بلقب « معرى العصر فى فلسفة الشعر[1] » . وفى رأيى أن هذا اللقب يحتاج إلى نظر ، فلو قلنا إن حافظًا « شاعر النيل » ، لأنه ترجم آلامه وصور أحلامه ، لكان القول مقبولا ومعقولا ، ولو قلنا إن حافظا « شاعر الشعب » لأنه تحدث عن مشاعره وأحاسيسه ، وغنّى له فى أتراحه وأفراحه ، لكان القول كذلك معقولا ومقبولا ، وأما أن يقال إن حافظا « معرى العصر » فذلك مايحتاج إلى مراجعة . فأغلب شعر حافظ سهل ميسور ، ليس فيه من تعقيد الفلسفة أو التفكير المعرى كبير نصيب .

ورشيد نفسه قد عاد بعد ذلك إلى تغيير رأيه أو تعديله ، فبعد أن كان يلقب حافظا بمعرى العصر ، ذهب إلى أن بعض شعره جاء على طريقة المعرّى ، وشتان ما بين الحكمين .

يقول رشيد وهو يتحدث عن ديوان حافظ : « وليس الديوان على أسلوب واحد ، فإن فيه ماجاء على طريقة المعرى فيلسوف الشعراء ، كبعض الحكم والرثاء والشكوى ، وفيه مايحاكى أسلوب أبى نواس كبعض الخمريات ، ومن هذا الشعر مالا يود مثلنا من رجال الدين نشره ، وإن كان لايكاد يخلو كتاب من كتب الأدب ودواوين الشعر العربية عن مثله ، كالقصيدة التى

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٣٩ عدد ٢٠ فبراير (شباط) سنة ١٩٠١

نظمها على لسان الشيخ الصوفى فى معشوقه شكيب [1] ». ورشيد هنا يؤكد كراهيته لتغزل المذكر فى المذكر .

وإذا كان رشيد قد أطلق لقب « معرى الشعر » على حافظ ، فهو قد أطلق عليه قبل ذلك لقب « نابغة العصر فى النظم والنثر [2] » ، وقد سبق لنا أن عرفنا أن رشيداً أطلق مثل هذا اللقب على شوقى ، مع تعديل طفيف ، فهو يقول عن شوقى : « نابغة الشعراء فى مصر ، ولك أن تقول نابغتهم فى هذا العصر » .

وكأن هذه الألقاب التى يخلعها رشيد على الشعراء لا يريد لها صفة الحكم الحقيقى المحدد على الشاعر وشعره ، وإنما هى عبارات تقدير وثناء ، ولذلك قد يشترك أكثر من شاعر — كما رأينا — فى لقب واحد يخلعه رشيد على كل منهما .

على أن رشيدا حاول أن يصور لنا شاعرية حافظ إبراهيم بشىء من التحديد ، حيث نشر فى « المنار » مقدمة ديوانه ، وصدرها بعبارة منه قال فيها : « يعرف قراء المنار مكانة محمد حافظ أفندى إبراهيم فى الشعر ، وأنه يضرب مع فحوله بكل سهم ، ويسابق جياده فى كل فج ، ويمتاز على السابقين الأولين بالمعانى التى جلتها الحضارة والمدنية ، ويتقدم صفوف المتأخرين بالجزالة البدوية [3] .

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٥٩٠ .

(٢) المنار المجلد ٣ ص ٦٤٨ — عدد ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٠٠

(٣) المنار ، المجلد ٣ ص ٤٢٢

ونحن نلحظ شبها بين هذا الحكم وحكم رشيد على البارودى، حيث قال عن البارودى — كما عرفنا : « جرى مع أولئك الفرسان فى كل حَلْبَةٍ ، وضرب معهم بكل سهم . وعارضهم فى كل ضرب من ضروب الشعر » ، وقال عنه أيضًا : « ناهز الجاهليين فى القوة والمتانة ، وخاطر المخضرمين فى الفصاحة والبلاغة ، وبَذَّ المولدين فى الرقة والسلاسة »...

وقد يقال : لامانع من أن يتشابه شاعران أو أكثر فى أمر أو أكثر. وهذا القول يكون مسلما لو أن حافظا أشبه البارودى ، ولكن الذى يبدو أن شاعرية البارودى لها مميزاتها التى تختلف عن ميزات شاعرية حافظ فى كثير من الأمور ، على الرغم من اشتراكهما فى بعض الأمور .

والأستاذ العقاد قد أشار إلى هذه الأمور المشتركة ، ولكنه بعد هذا أبان وجوه الاختلاف بين البارودى وحافظ ، وذلك فى كتابه «شعراء مصر»[1] .

ولم يفت رشيدا أن ينقد حافظا وهو يتكلم عن مقدمة ديوانه ، حيث قال إن حافظا ذكر أن «الشاهنامة» من نظم القاآنى، وإن أبياتها سبعون ألفا، وصحح رشيد ذلك بقوله : « الصواب أن الشاهنامة للفردوسى شاعر السلطان محمود الغزنوى ، وأبياتها ستون ألفا ، وهى بمكان من البلاغة يعز الارتقاء إليه ، وأما القاآنى فهو شاعر متأخر مجيد[2] .

(١) أنظر شعراء مصر ، ص ١٢ — ١٤ وص ١٩ و ٢٠

(٢) المنار ، المجلد ٤ ص ٥٠٧

وحينما صدر الجزء الثانى من ديوان حافظ ، كتب عنه رشيد فى مجلة المنار ، وقال عنه فيما قال : « وهو أرقى من الأول نظما وموضوعا ؛ فإن معظم قصائده فى الأمور العامة ؛ من اجتماعية وسياسية . ومافى معناها كمدح الأستاذ الإمام تغمده الله برحمته.

وبهذا صار شعر حافظ عزيزا شريفا ، واشتهر فى كل قطر يتبوأه أهل العربية ، ولو كان كسائر الشعراء ، لايكاد ينظم إلا فى مديح الأمراء والوجهاء ، لما طار صيته فى البلاد ، ورددت شعره ألسنة الناطقين بالضاد .

فإنه وقد بذ المعاصرين تنقيحا وتحريرا ، لم يبذهم تخييلا وتأثيرا . فإن شعره أقرب إلى عالم الحقيقة منه إلى عالم الخيال . فلولا شرف معناه لما سلم من الابتذال [1].

رشيد يدندن — كما نرى — حول رسالة الشاعر الاجتماعية ، فهو يستحسن من حافظ نظمه فى الامور الاجتماعية . ويستحسن منه أن تكون أمداحه فى مثل الأستاذ الإمام ، لافى الأمراء والوجهاء ، ولذلك كان رشيد يختار قصائد حافظ المتصلة بالأمور الاجتماعية والأمانى القومية وينشرها فى مجلة المنار من حين إلى حين [2] .

ولما مات حافظ فى السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥١ هـ كتب رشيد فى رثائه فصلا وصف حافظا خلاله بأنه : «شاعر النيل

(١) المنار ، المجلد — ١٠ص ٣٠٧
(٢) انظر مجلة المنار ، المجلد ١٢ ، ص ٥٩ ، ٥٥١

الاجتماعى الكبير ، وأديب مصر الشهير » ، وذكر أن عالم الأدب العربى اهتز لموته . فرثاه الشعراء ، وأبنته الصحف ، وقارن بين هذا الاهتزاز وما حدث عقب ذلك من موت أمير من أكبر أمراء البيت المالك حينئذ ؛ حيث لم يشغل موته الناس كما شغلهم موت حافظ .

وكذلك مات غنى من أكبر أغنياء مصر وهو محمد بدراوى باشا عاشور أغنى فلاحى مصر . فلم يهتز لموته عالم العلم والأدب ، ولارثاه الشعراء ولاالأدباء ولا الصحف .

ورشيد يريد بذلك أن ينوه بقيمة الأديب والشاعر ، وأن يبين أن هذا التقدير برهان على حياة الامة فقال :

« والعبرة فى هذا أنه آية بينة على ارتقاء فى الأمة العربية فى آدابها النفسية والاجتماعية ؛ يبشرنا بقرب زوال العظمة الوهمية ، عظمة الألقاب الموروثة والثروة المادية ، وإعقاب العظمة الحقيقية لها ، عظمة العلم والأدب وخدمة الأمة . »

ثم قال إن الشعب المصرى قد ارتقى شعوره المعنوى ، وتمنى له المزيد من الارتقاء .

ثم عرض رشيد فى حديثه عن حافظ بشكواه البؤس حتى صارت تلك الشكوى له عادة ، وذكر أنه كان مسرفا فى الترف ، متوسعا فى التنعم ، لايحب العمل ولا التعب ، ولم يكن يقدر على احتمال أدنى مشقة « وإنما كانت فلسفته فى الحياة أن يكون ناعم البال .

طيب الطعام والشراب ، دائب الفكاهة والدعابة مع الأصدقاء ، ولولا أنه كان يعشق الأدب عشقا لما قرأ فيه كتابا ، ولما نظم بيتا ، ولانمق خطابا .

وقلما كان أحد من الأغنياء ممتعا بنعمة العيش مثله ، ولو أوتى من الرزق أضعاف ماأوتى لأنفقه كله فى سبيل الرفاهة وبلهنية العيش :

حسبك ياسيد رشيد ، لقد كدت تنقلنى إلى الجو الذى نقدت فيه الكاظمى عند رثائك له . ليت جوانب أخرى من شاعرية حافظ وأدبه استبدت بعنايتك ، فشغلتك عن هذا الحديث ، الذى لم أسترح إليه فى مقام الرثاء بخاصة .

وبعد أن ذكر رشيد صلة حافظ بالشيخ محمد عبده ، وترجمته كتاب « البؤساء وثناء الأستاذ الإمام عليه ، ونوه بدعاية حافظ وقوة ذاكرته ، وذكر أنه كان قوى الاستقلال العقلى والوجدانى ، وأنه كان يشك فى أمور كثيرة من عقائد الدين واستل شكوكه الأستاذ الإمام .

بعد هذا كله قارن رشيد بين شعر شوقى وشعر حافظ بقوله إن شعر حافظ « أصبح منظوم هذا العصر لغة فى مفرداته المختارة ، وجمله الفصيحة ، وجمعه بين السلاسة والمتانة ، فهو يفضل شعر أحمد شوقى بذلك فى ذلك ، دون جمال التخيل وقوة التأثر الذى هو روح الشعر ، فبهذا يبذ شوقى جميع شعراء العصر ، على تفاوت

فى شعره ، وتعقيد معنوى فى بعض أبياته يحول دون فهمها فهما صحيحا من أول وهلة »[1] .

وأخالف رشيدا فى تفضيله حافظا على شوقى فى الناحية اللغوية ، فلغة شوقى فى المفردات والجمل لاتقل عن لغة حافظ إن لم تزد عليها فى بعض الأحيان .

ومن اللافت للنظر أنه لما مات شوقى فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١هـ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م رثاه رشيد فى صفحتين ، وقارن بين مصاب الأمة فيه ومصابها فى حافظ ثم قال عن شوقى « فإن شهرة شوقى أكبر ، وعشاق شعره أكثر ، ذلك بأنه طرق جميع أبواب الشعر القديمة والحديثة ، ففتحت له أغلاقها ، وكان له السلطان الأعلى على أرواح عشاقها ، بما أجاد فى كل فن من فنونها ، إلا الهجاء والمجون ، فقد نزه شعره ولسانه عنهما » .

ثم عاد يقول : « كان حافظ يظن — بل يقول منذ ثلث قرن — إن مكانة شوقى من أمير البلاد كانت ترفع شعره إلى أعلى مما يستحقه ، ولكن شعر شوقى علا بعد دولة ذلك الأمير بنفسه ، فوق ماعلا به فى عهده ، حتى علم أن قربه من الأمير كان سببا لوقفة فى استعداده ، حالت دون الوثبة التى وثبها بعد إخراج الحرب العالمية إياه من قفص قصر عابدين ، حتى إن حافظا بايعه بإمارة الشعراء فى الحفلة العامة التى أقيمت له فى دار الأوبرا الملكية[2]

---

(١) المنار ، المجلد ٣٢ ص ٦٢٥ — ٦٣٠ .

(٢) المنار ، المجلد ٣٢ ص ٧١٩ و ٧٢٠ .

إن حديث رشيد عن حافظ يتضمن الكثير من المسائل التى يلزم أن توضع أمام نظر الباحث الأدبى المؤرخ لحياة شاعر النيل ، سواء أقبلها كلها أم عارض فى بعضها ،ومن هذه الناحية تظهر قيمة ماكتبه رشيد عن شعراء عصره ، فالمعلومات التى ذكرها — وهو رجل معاصر — جديرة بالنظر فيها ، والانتفاع منها .

رشيد وتوفيق البكرى :

السيد محمد توفيق البكرى هو نقيب الأشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية على عهده ، وقد ولد سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م) وتوفى فى ١٢ من ربيع الآخر سنة ١٣٥١ هـ (صيف ١٩٣٢م)[١] .

والبكرى أديب شاعر ناثر ، وهو كما نفهم من كتاب « شعراء مصر » قد استقامت له صحة الأسلوب ، وهو وافر الحظ من آداب الجزالة وآثار العربية الصحيحة ، تعلم جوانب من علوم العصر ولغاته ، وجنح إلى القديم واتصل بالحديث ،وكاد يحصر بلاغة البداوة الأولى فى الرجز ، وكان يعارض العباسيين ويتقيل أغراضهم ، وكان عباسيا فى صياغة نثره ، وكان يحاكى المقامات ، ولذلك غلبت الصنعة على نثره[٢] .

ولقد كانت بين رشيد والبكرى علاقة لم تستقر على وضع معين ، وحينما جاء رشيد ليرثيه وصفه أولا بألقاب طنانة

---

(١) جاء فى كتاب «مصادر الدراسة الأدبية ج ٢» ص ٢٠٧ أن البكرى توفى سنة ١٣٥٢هـ — ١٩٣٣ م ، وهذا خطأ . راجع شعراء مصر ، ص ٥٣ والمنار ، المجلد ٣٢ ص ٧١٧

(٢) شعراء مصر ، ص ٥٣ — ٦٥ .

فضفاضة ، مثل قوله عنه : « عين الأعيان . ونادرة الزمان ، والمعنى المفن ، ومزن الأدب المرجحن[1] الذى كان له فى كل جو متنفس ، ومن كل نار مقتبس » .

وهذه ألقاب واسعة ، لا تحدد خصائص أدب ولا مميزات أديب .

ثم أخذ رشيد يذكر — وهو يرثى البكرى — أنه مات بعد مرض عضال طال عليه الأمد ، ودخل من أجله مستشفى « العصفورية » فى بيروت ، وهو يماثل مستشفى الأمراض العقلية — ومستشفى المجاذيب — فى مصر ؛ وذكر رشيد أن البكرى كان صاحب رأى صحيح الحكم فى مسائل الأدب ، ولكن رأيه يأفن فى بعض أمور السياسة . . .

وأشار إلى أن البكرى كان حظيا عند الخديو عباس حلمى الثانى ، وكان وجيها عند اللورد كرومر عميد الاحتلال البريطانى المسيطر على الحكومة المصرية حينئذ ، وأنه نال نقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وزار السلطان عبد الحميد فأنعم عليه برتبة وأوسمة ثم يقول رشيد : «فماذا عسى أن يطلب من المجد الطريف على مجده التليد فوق هذا) .

لست أدرى ، لماذا لم أسترح إلى هذا الأسلوب من رشيد وهو يؤبن البكرى . لقد أشار إلى غمزات فى عقله ورأيه السياسى ،

---

(١) يقال : هو معن مفن — بكسر الميم فيهما — أى عريض ذو فنون . والمزن : جمع مزنة وهى السحابة ، والمرجحن : السحاب الملىء بالماء . ويقال : هذه رحى مرجحنة ، للسحابة المستديرة الثقيلة (الأساس والقاموس) .

وصلته بالخديو ، ومكانته عند أهل الاحتلال ، وتقربه من السلطان ، وتمتعه بحظوظ الجاه فى الدنيا .

ولم يكتف رشيد بما سبق ، بل علق عليه بقوله : « بيد أن هذا كان حملا ثقيلا ، بل أوزارا ثقالا على شاب نحيف الجسم ، عصبى المزاج ، مترف المعيشة ، حريص على بلوغ الغاية من حظوظ الحياة المادية والمعنوية .

وإنما جنت عليه السياسة ، فأفكته عن كل ماكان يرجى منه من خدمة لأدب اللغة التى كان يميل إليها بطبعه ، وإصلاح لطرق الصوفية التى كان متمكنا منها بمنصبه ، وقد اجتهدت فى ترغيبه فيها منذ عرفته عقب استقرارى فى مصر سنة ١٣١٥ ، وسألم بهذا فيما أكتبه من ملخص ترجمته » .

ولم يكتب رشيد هذا الملخص حتى مات فيما أعلم . ولا ننسى أن رشيدا قال هذا عن البكرى فى مناسبة يصفها هو بأنها «إخبار عن وفاة البكرى» .

على أن رشيدا فيه ذكاء كبير ، فقد أراد أن يخفف وقع كلامه السابق فذكر بعد ذلك أن مصر قد قصرت تقصيرا منتقدا فى تشييعه ، فلم يحضره من كان ينبغى له أن يحضره من الكبراء والوجهاء ، ثم يعلل رشيد ذلك بقوله :

« ولكن دولة القلم دخلت فى هذه السنين التى احتجب فيها عنهم (١) فى طور جديد ، صار فيه مثله على كونه من الطراز

(١) يقصد احتجاب البكرى بسبب مرضه العقلى عن أهل مجتمعة .

الأول مرغوبا عنه ، كما سأبينه بعد ، وأبين أنه ليس بعذر في تقصير طبقات مصر العليا في الجفاوة بتشييعه وتأبينه ، ومن لا قديم له يحفظ ، فليس له جديد يفتخر به [١] .

وبعد ثلاثة أعوام مضى رشيد إلى ربه كما مضى البكرى ، ولم يبين لنا رشيد ما كان يريد تبيانه . رحمهما الله معا .

* * *

رشيد وأحمد الكاشف :

كان أحمد الكاشف أحد الشعراء البارزين في مصر خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، والثلث الأول من القرن العشرين ، وهو أحمد بن ذى الفقار بن عمر الكاشف . وأصله من القوقاز ، وقد ولد في شهر المحرم سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٧) م في قرية القرشية بمحافظة الغربية .

وأصيب وهو في الخامسة من عمره باضطراب في أعصابه ، وفي السادسة أصيب بمرض شديد أثر في نظره طول حياته . ودخل « كتاب القرية في الثامنة ، ولم يسترح انظامه ، ثم تعلم مبادىء القراءة والكتابة ، وتعلق بالموسيقى وهو ناشىء . وتلقى دروسا خصوصية في طائفة من المواد ، ثم دخل مدرسة الأقباط بطنطا ، وفي الحادية والعشرين من عمره تطلب الوظيفة في الحكومة ، واستعان عليها بوجهاء القوم .

---

(١) المنار ، المجلد ٣٢ص ٧١٨ .

وفى الرابعة والعشرين اتهموه بالدعوة إلى إنشاء خلافة عربية عرشها وادى النيل .

وللكاشف شعر فى أغراض مختلفة ، بعضه فى الخلافة ودولتها وقادتها ، وبعضه فى شئون مصرية ، وبعضه فى أغراض اجتماعية ، وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يسمع شعره ويرتضيه ، ويقول عن صاحبه : « إنه لشاعر » .

وللكاشف بعض الأمداح فى الأستاذ الإمام منها قوله :

سلاما حجة الإسلام فينا ورضوانا رجاء المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا يؤيد وحى ملهمك المبينا
فلم تترك لمتهم مكانا يرى فيه المزاعم والظنونا
فمابطل يخوض الحرب فردا فما يدعو بآخر مستعينا
جهادا فى سبيل الله يفدى بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثارا وذكرا وقدرا فى قلوب العالمينا (١)

وكان أحمد الكاشف شاعرا متدينا ، وكان يترجم فى شعره عن نزعته الدينية بوضوح ، كأنيقول فى فاتحة ديوانه :

رب ، هذا شعرى وهذا بيانى شهدا لى بصحة الإيمان
لى داع من نظرتى قبل أن أتلو كتابا إلى اليقين هدانى
من يكن قام بالعقائد تقليدا فإنى استقمت بالبرهان

(١) الإسلام والنصرانية ، ص ٢٦٠ . وقد ذكرت هنا بعض الأبيات فقط .

مسلما عشت :لا لإسلام أمى وأبى والأمير والسلطان

أنا لو كنت ناشئا ومقيما بين قوم من عابدى الأوثان

لم أجد غير دين أحمد أولى باتباع من سائر الأديان

ولقد كتب رشيد كلمة عن ديوان الكاشف سنة ١٩٠٣م وصف فيها الشاعر بقوله : « شاعر قوى السليقة بعيد من الصنعة » . ثم قال عنه : « كان موكولا إلى نفسه ، مسترشدا بوجدانه وحسه ، يبتلى فيستسلم لدواعى الأحزان ، ويتحمس فيسلك مسالك الشجعان ، ويعشق ، فيسترسل فى طاعة الغرام .

ولم يصبر على مرارة التعليم ، ولم يسلس قياده لنظار المدارس ، فاكتفى ببعض المبادىء ، ورضى من ثمرة العلم والأدب بالشعر يوحيه الذوق ، وتنظمه السليقة ، وهو دموى المزاج حاده . محب للفخر والعلو . ويرى أن الشعر كاف فى رقى صاحبه إلى ذرى المعالى ، وحسبانه فى عداد النابغين [1] .

ولقد كتب رشيد رضا إلى الكاشف يقول له : « وإن فى شعرك روح التأثير ، وأحب أن يكون للمنار حظ منه ، فحارب به البدع والخرافات والعادات السيئات ، واترك سنة الشعراء فى الغزليات والخمريات [2] .

---

(١) المنار ، المجلد ٦ ص ٣٩٠ . عدد ١٠ أغسطس (آب) سنة ١٩٠٣ .

(٢) ديوان أحمد الكاشف ، ج ١ ص ٢٠ .

وهكذا يأبى رشيد إلا أن يؤكد مذهبه الذى يطالب به ، وهو أن يكون الشعر فى خدمة المجتمع ، وألا يتعود الشاعر قصره على الغزليات واالخمريات .

وكان الكاشف يضطر أحيانا إلى أن يقول شعرا فى بعض الناس ليعاونوه على شئون الحياة ، ولكنه لايثابر فى هذا المجال ، فيثور ويعود إلى الشعر الحر الذى لا يخضع لمديح أو رياء . ويظهر أن رشيدا كان يعاتب الكاشف إذا مارآه يقول الشعر فى رجاء أو رياء ، وكان الكاشف يدافع عن نفسه ، وقد تدل على ذلك رسالة خطية عثرت عليها وقد كتبها أحمد الكاشف بخط يده إلى رشيد ، وهذا نصها :

« ما أجمل العيش بين الضال والسمر .

سلام على السيد . . .

أرجو أن تعلم فيما علمت أنى ظلمت ظلما ما أكبر نفعه ؛ وهل أذم سمرا عدت منه بكبرى العظات وأخرى التجارب . قد زادنى ما رأيت حبا إلى ما اخترت ، وثباتا على ما اعتدت . والدنيا أحقر من أن أتكلف الاستشفاع إليها بشر الجنايات على نفسى .

راجع قصيدتى الماضية لتقابلها بالآتية ، ففى الأولى عبودية الرجاء ، وفى الأخرى حرية اليأس ، وشتان بينهما ، والسلام .

أحمد الكاشف

بالقرشية

كما يظهر أن الكاشف كان يلجأ إلى السيد رشيد رضا أحيانا ليستعينه فى قضاء بعض ما يريد ، وقد تدل على ذلك رسالة خطية عثرت عليها ، وهى بخط الكاشف ، وموجهة منه إلى رشيد ، وتاريخها (٩ من رجب سنة ١٣٢٢هـ) وفيها يتحدث الكاشف عن شعره ، وما ينشره منه ، وعن تطلعه إلى وظيفة مدرس للعلوم العربية فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التى يرأسها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

ثم يرجو الكاشف رشيدا أن « يتوسط » له لدى الأستاذ الإمام فى تعيينه كاتبا فى الجمعية ، مع التجاوز له عن شروط استحضار « مسوغات التعيين » من شهادة وغيرها ، وهذه الرسالة وسابقتها تلقيان بعض الأضواء على صفحات من تاريخنا الأدبى والاجتماعى ، وهذا نصها :

« وإذا الفتى أهدى إلىَّ صنيعه من جاهه فكأنها من ماله

سلام ورضوان على السيد العظيم . .

هل قرأتم القصيدة النونية المنشورة فى واعظ الجمعية الماضية ؟. أنا صاحبها .

وهل بلغتم ما أرمى إليه فيها ؟ . وظيفة تدريس النحو والصرف والإنشاء والتاريخ وتقويم البلدان باللغة العربية ، فى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية .

لم أظفر إلى الآن بخبر عن هذه القصيدة ، ولا بنسمة القبول من تلقاء الرئيس الإمام ، فلم أيأس ، وقلت : ربما كان السكوت

لاطمئنان الوظائف بأصحابها ، وإن الإمام لأرفع من أن أقول له : هات عذرك ، وأجل من أن أسأله : علام الحرمان ؟ .

وقد استوجبت نجدتك ، واستحققت نصرك ، فما رأى الحكماء فى الأكفاء رأى الملوك والأمراء .

قرأت فى مؤيد البارح إعلان احتياج الجمعية إلى كاتب مبين ، وحاسب أمين . فقلت : ما أصدق هذين الوصفين على ، وأحب هذين العملين إلى ، لولا شروط (الرفتية) ، وهى كلمة لا أعترف بمداولها حتى تعرب ، وشهادة (حسن السلوك) . ولو عرض على المحسن الكبير كل ماله على أن أنعته ببعض أخلاقى ، وأضعف جوانب نفسى لأبيت .

ولا أظننى أصغر عند الإمام حتى يكبرنى العمدة وأشياخ البلد .

و (الشهادة العلمية) : وقد تلقيت العلم لذاته ولذته ، قبل منفعته ، فما تطاعت إلى هذه الأوراق .

وأغرب الأمور أننى على هذا الذكر الجميل والنزعة المحمودة — لم أقتن شهادة .

وتعرض الطالب للاختبار فى الحساب والإنشاء وقواعد النحو ؛ وما كان لمن علمه الله فى صحيفة الكون ، فأخذ من ثمرات القرائح ما صح به قلبه وعقله ، أن يُسأل فى أمثال المعرب والمبنى ، وأنواع الكسر ، وأشكال الزاوية .

فهل لكم الاستشفاع بجاهكم لدى الرئيس الإمام ، لإعفائى من هذه الشروط ، والخروج بى عن حدود هذا النظام ؛ ولكل قاعدة شواذ ، فإن أصر على الاختبار مع وعد الاختيار ، فابعثوا إلى بالخبر اليقين ، ولكم ملء فمى در من الشكر .

٩ من رجب سنة ١٣٢٢هـ أحمد الكاشف

بالقرشية

حسن لى ولكم أن يطلع الإمام على كتابى هذا [1] .

ونستطيع أن نعرف ـ مما سبق من حديث عن الصلة بين رشيد رضا وأحمد الكاشف ـ الحوافز التى جعلت رشيدا ينوه بالكاشف ، ومنها :

أولا : الكاشف له صلته بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وله أمداحه فيه ؛ ورشيد ألصق الناس بالأستاذ الإمام .

ثانيا : استعان الكاشف برشيد فى بعض أموره ، وملأ الكاشف فمه درا بشكر رشيد .

ثالثاً : الكاشف يميل فى شعره إلى الناحية الدينية ، ورشيد داعية دينى يشجع قول الشعر فى الدينيات .

رابعا : الكاشف كان يميل إلى إقامة خلافة عربية أو إسلامية ورشيد كان كذلك .

---

(١) هذا السطر حاشية فى آخر الرسالة ، وقد كتبت عن هاتين الرسالتين فصلا فى مجلة الرابطة الإسلامية ، عدد أكتوبر سنة ١٩٦٣ . وفيه تحدثت عما تضمنته الرسالتان من دلالات على ملامح الكتابة عند أحمد الكاشف .

رشيد ومحمد الهراوى :

الشاعر الهراوى هو محمد بن حسين بن محمد الهراوى المولود سنة ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٥ م فى قرية «هوية رزنة» بمصر ، تلقى العلم فى بعض مدارس القاهرة والاسكندرية ، ولم يتم تعليمه ، وعين بوزارة المعارف سنة ١٩٠٢ ، ثم نقل إلى دار الكتب المصرية ، وكان عضوا فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، وله جملة كتب فى أدب الأطفال ، وتوفى فى شهر المحرم سنة ١٣٥٨ — مارس سنة ١٩٣٩ م [١] .

وأغلب شعر الهراوى تأديبى تهذيبى وطنى ، فهو يوافق رغبة رشيد وميله إلى استخدام الشعر لصالح المجتمع ، ومن أمثلة هذا الشعر للهراوى قوله :

قل للذى يطلب العلياء بالأمل ... أقصر ، فليس العلا للعاجز الوكل
تقول : أهلى وأوطانى ، وما عملت ... كفاك للأهل والأوطان من عمل
أمدرك أنت غايات تؤملها ... بغير سعى على الأيام متصل ... إلخ

وقوله :

ربوا بنيكم ، علموهم ، هذبوا ... فتياتكم ، فالعلم خير قوام
والعلم مال المعدمين إذا همو ... خرجوا إلى الدنيا بغير حطام
وأخو الجهالة فى الحياة كأنه ... ساع إلى حرب بغير حسام ... إلخ

---

(١) الأعلام الشرقية ، ج ٤ ص ١٣٤ .

وله قصيدة وجهها إلى شباب الإسلام سنة ١٩٣٣ م ، وفى مطلعها يقول :

قل للشباب المسلمين تحية .من مسلم ثبت على إيمانه
ويزيده فى الله حسن عقيدة ماجره الإلحاد من خسرانه
الغرب مجلبة الخسار جميعه والشرق مفتتن به عن شانه

وفى ختامها يقول :

فخذوا سبيل الدين فهو كفيلكم ليرد سيل الغرب عن طغيانه
والدين للدنيا وللأخرى معا وسعادة الدارين فى قرآنه[1]

إذا كان الهراوى فى شعره بهذه الروح فليس غريبا أن تتوطد العلاقة بينه وبين رشيد رضا ، ولقد جرى رشيد مع الهراوى على عادته فى توزيع الألقاب على الشعراء ، فلقبه بلقب «شاعر الشرق والإسلام » ؛ ولعل رشيدا لاحظ فى إطلاق هذا اللقب أن الهراوى كان يقول الكثير من شعره فى الإسلاميات ، وكان يلقى كثيرا من شعره فى أحفال جمعية الشبان المسلمين ، وهو من جهة أخرى يدعو إلى «الجامعة الشرقية » لتقف فى وجه طغيانالغرب ، وفى الدعوة إلى هذه الجامعة يقول :

أدعو شباب الشرق من أجناسه وعلى اختلاف الشرق فى أديانه
أدعو لجامعة تضم شتاته من صينه الأقصى إلى تطوانه
إن لم يكن فى الدين جامعة له كبرى ، ففى آلامه ولسانه[2]

(١) المنار ، المجلد ٣٣ ص ١٢٨ و ١٢٩ .
(٢) المرجع السابق .

ولقد ترجم الهراوى عن علاقة الصداقة الطويلة المدى بينه وبين رشيد ، حين قال عن رشيد فى حفلة تأبينه :

فلقد كان لى حفيا ، وكانت ... بيننا عروة الوداد المتين
عقدت بيننا المودة قربى ... زاد توثيقها توالى السنين [(١)]

وهذه المودة توافرت لها أسبابها ، فكل من الرجلين يدعو إلى الإسلام ، ويستنهض الشرق ليقف فى وجهه الغرب ، ويستخدم الكلمة المنثورة أو المنظومة فى نبيل المقاصد ، ويشارك فى النشاط الدينى لجمعية الشبان المسلمين .

* * *

رشيد والكاظمى :

الكاظمى هو الشاعر العربى العراقى عبد المحسن بن محمد بن على بن المحسن ، ينتهى نسبه إلى الإمام موسى الكاظمى ، وقد ولد سنة ١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م ، فى حى « الدهانة » بالعراق ، ونشأ فى الكاظمية من أعمال الزوراء ، وتعلم العربية والفارسية ، ثم اشتغل بالتجارة والزراعة ، ثم عاد إلى رياض الأدب والشعر ، وحفظ الكثير منه ، ثم قال شعرا كثيرا ، وكان يلقب « شاعر العرب » .

وتعرف إلى السيد جمال الدين الأفغانى فى بغداد ، وأخذ عنه بعض مبادئه ، وتتلمذ على السيد إبراهيم الطباطبائى [(٢)] أحد أعلام الشعر بالعراق فى منتصف القرن التاسع عشر .

---

(١) المنار ، المجلد ٣٥ ص ١٨٩ .
(٢) ولد سنة ١٨٣٢ م وتوفى سنة ١٩٠١ م .

وسافر الكاظمى سنة ١٣١٥ هـ إلى إيران والهند ، بعد أن لاحقته حكومة العراق ، بسبب نقده لها ؛ ثم وفد على مصر سنة ١٨٩٩ م ، ولاذ بكنف الشيخ محمد عبده ، وضعف بصره جدا فى أواخر عمره ، وكان رقيق الحال ؛ وتوفى سنة ١٣٥٤ هـ — مايو سنة ١٩٣٥ م [١]

وقد توثقت العلاقة بين رشيد والكاظمى لجملة أسباب منها :

١ — الكاظمى مغترب مهاجر مثل رشيد .

٢ — الكاظمى قد اتصل بجمال الدين الأفغانى ، وجمال الدين من أساتذة رشيد .

٣ — لاذ الكاظمى بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ورشيد هو أقرب تلاميذ الإمام إليه .

٤ — قال الكاظمى الشعر فى مدح سعد زغلول . وله كتاب عنوانه « معلقات الكاظمى فى سعد زغلول » ، وسعد تلميذ وفى للأستاذ الإمام أستاذ رشيد .

٥ — قال الكاظمى الشعر فى أهداف اجتماعية وإصلاحية ، وهذا يرضى رشيدا

٦ — لجأ الكاظمى بسبب رقة حاله المادية إلى رشيد يستعين به ماليا ، وعندى مجموعة من رسائل الكاظمى إلى رشيد تؤكد هذه الناحية .

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٦٧٦ . والأعلام الشرقية ، ج ٤ ص ٨٥ .

وقد نشر رشيد للكاظمى جانبا من شعره فى مجلة «المنار» مثل قصيدته الطويلة التى مدح بها مصر ، ومطلعها :

إلى كم تجيل الطرف ،والدار بلقع .·. أما شغلت عينيك بالجزع أدمع ؟

وقد نشرها موزعة على ثلاثة أجزاء من المجلد الثالث [1] .

وقد تبحبح رشيد فى الأوصاف التى أطلقها على الكاظمى ، فقال عنه : «شاعر العرب المطبوع ، وعلم الفصاحة المرفوع » ، وقال عنه وهو يرثيه : « شاعر العرب المرتجل المفلق » وقال عنه : « الشاعر المفلق ، العذب المنطق ، الذى ناهز المقدمين ، وخاطر القرمين » ، وهذا تعبير سبق لرشيد أن أطلق قريبا منه على البارودى ، وعلى توفيق البكرى .

ولى عتاب على السيد محمد رشيد رضا ، لأنه عرض بالكاظمى وهو يقول فيه لأول مرة كلمة الرثاء أو التأبين ؛ وإذا رجعنا إلى المقال الذى كتبه رشيد لرثاء الكاظمى فى الجزء الأول من المجلد الخامس والثلاثين من مجلة «المنار» وجدنا فيه مايلى :

١ — صرح رشيد بأنه أعان الكاظمى ماديا وأدبيا خلال ثلث قرن ، وعرض نفسه للمرض من أجل الكاظمى .

٢ — عرض بالكاظمى من جهة أنه كان يقصد رشيدا للاستعانة المادية .

---

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ٣٢٨ و ٣٥٤ و ٣٩٤ .

٣ ـ قال رشيد عن الكاظمى : «إنما يجود بالشعر حيث يرجى به النوال الجزل » .

٤ ـ أخذ عليه مدائحه للملك فيصل الأول والأمير عبد الله بن الحسين بن على وهما متعاونان مع بريطانية .

٥ ـ وصف رشيد الكاظمى بالتلون ، لأنه ترك البيت الهاشمى (بيت الحسين بن على) ، وانتقل إلى مدح عبد العزيز بن سعود حين أقبلت عليه الدنيا وسيطر على الحجاز .

٦ ـ صرح رشيد بأن الكاظمى كان يطلب أجرا لقصائده التى يقولها فى القضية العربية .

٧ ـ قال رشيد إنه لم يستطع أن يصرف الكاظمى عن التكسب بشعره .

٨ ـ ذكر رشيد أن الكاظمى كان يتكسب من كتابة الأحجبة والتمائم للنساء ، وعاونه فى ذلك توفيق الرافعى .

٩ ـ ذكر رشيد أن الكاظمى عشق أخت زوجته وتزوجها .

١٠ ـ قال عن الكاظمى أنه كان يطرق أبواب الكبراء الواسعة والضيقة ويشكو الحاجة مستجديا .

١١ ـ قال إن الكاظمى مدح سعد زغلول لينال رفده .

١٢ ـ ذكر رشيد أن الكاظمى لم يكن يتحدث فى السنوات الأخيرة من حياته إلا عن مصائبه وأمراضه وحاجته ، حتى صار مملولا .

ساق رشيد كل هذا عن الكاظمى فى أول كلمة له يقولها فى رثاء الشاعر ، ثم عقب على ذلك كله بقوله : «نذكر هذا للعبرة والموعظة ، ونسأل الله تعالى لنا وله العفو والمغفرة والرحمة الواسعة [1] » .

ليت صاحب «المنار» تأنى قليلا ، فبدأ أولا بكلمة التأبين والرثاء ، ثم عاد بعد حين قليل أو طويل ، ليحدثنا حديث العبرة والموعظة .

والعجيب أن التناقض يبدو من رشيد فى رثائه الكاظمى ، فبينا رشيد يقول عن الكاظمى : «لقيناه فلقينا الأدب الصحيح والأخلاق الحسنة» ويقول عنه : «فيه الإباء وعزة النفس» . ويقول عنه : «وكان بالمدائح ضنينا» إذا هو يتهم الكاظمى بما يلى :

١ – يتهمه بعدم الوفاء لأنه لم يرث الأستاذ الإمام خوفا من الخديو.

٢ – يصفه بالكذب وادعائه ماليس فى قلبه .

٣ – يصفه بجمود العاطفة ، وعدم التأثر بما يحزن .

٤ – يصفه بالمراءاة والنفاق لرشيد .

٥ – يتهمه بعدم الوفاء لأنه لم يرث شقيق رشيد : المرحوم حسين وصفى رضا .

٦ – يتهمه بأنه لايقول الشعر إلا طامعا فى أجره .

٧ – يصفه بالاستجداء من كل من يظن به قدرة مالية .

فأين إذن الأخلاق الحسنة ، والإباء ، وعزة النفس ، والضن بالمدائح ؟ .

---

(١) المنار ، المجلد ٣٥ ص ٧٧ .

ورشيد – كما رأينا – يعيب على الكاظمى أنه لم يرث الأستاذ الإمام ، ولم يرث شقيق رشيد : حسين وصفى رضا ، ويقول عن الكاظمى والأستاذ الإمام : «وكان أنكر ماعددته عليه من كنوده عدم رثائه له[1] ، وكان يعتذر لنا بوجده وكمده : ثم علمنا أنه إنما كان يخشى غضب الخديو عليه إذا هو رثاه . إذ سعى له صاحب المؤيد عند سموه براتب من الأوقاف[2] » .

ولقد نستطيع أن نقول للسيد رشيد – رحمه الله –: ولماذا لم ترث أنت شيخك الجسر ؟ . لقد اكتفيت فى الإخبار عن موته بخمسة أسطر فقط فى نهاية الجزء السابع من المجلد الثانى عشر من مجلتك « المنار »[3] ، وحقه عليك يقتضيك التبسط فى الحديث عنه .

ولكأن القصاص الإلهى للناس بالمرصاد فى الصغير والكبير من شئون العباد .

لقد قسا رشيد على عبد المحسن الكاظمى حين رثاه ، وما هى إلا شهور حتى جاء عباس محمود العقاد فقسا على رشيد رضا حين تحدث عنه بعد وفاته[4] ، ومضت السنون تلو السنين ، ومات العقاد فقسا طه حسين على العقاد حين تحدث عنه فى «التلفزيون » عقب وفاة العقاد بقليل . . .

ثم ماذا يكون بعد هذا ؟ . . . الغيب يعلمه الله ؟ .

---

(١) أى عدم رثاء الكاظمى للشيخ محمد عبده .

(٢) المنار ، المجلد ٣٥ ص ٧٤ .

(٣) المنار ، المجلد ١٢ ص ٥٦٠ .

(٤) صحيفة روز اليوسف ، عدد ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

رشيد واللغة

رشيد رضا اللغوى

عناية رشيد باللغة :

ظل السيد محمد رشيد رضا أكثر من نصف قرن يخدم اللغة العربية بالبحث فيها والكتابة عنها والحث عليها ، وهو يرى أنه لا أمة دون لغة حية ، وأن نجاح الأمة التام وارتقاءها الكامل يتوقفان على وحدة لغتها ، لأن اللغة هى مناط الجنسية ، ومعقد الارتباط عند الأمم الراقية ، فلغة الأمة مقومة لها ، ويرى فى مطلع القرن العشرين أن العرب بحاجة إلى إحياء موات لغتهم الشريفة بالاستعمال ، حتى يحيوا لأن الأمة لاتحيا دون لغة ، ولذلك جعل رشيد من مقدمات الإصلاح إحياء اللغة[1] .

وهو يرى أن الأمة التى لاتتلقى العلوم بلغتها لاتكون أمة علم ، ويقول فى مقصورته :

لايرتقى الشعب بلا علم ولا حياة للعلوم إلا باللُّغَى

ولذلك يطالب بعد إحياء اللغة العربية بنقل جميع العلوم والفنون إليها بالتدريج ، وجعل التعليم بها فى بلاد العرب دون سواها ، حتى يحقق التعليم هدفه المرجو النافع للبلاد والعباد ،

---

(١) مجلة المنار ، المجلد الأول ، ص ٧٦٩ ، والمجلد ٣ ص ٤٢٤ . والمجلد ٦ ص ٥ ، والمجلد ١٢ ص ١١٢ .

(٢) ريحتمن أن يكون معنى العجز هنا هو : أن الحياة العلوم تكون بتعلم اللغات

وهو إحياء الشعائر الدينية بتهذيب الأخلاق وإصلاح الأعمال ، وتقوية الرابطة الجنسية والوطنية[1] .

ويغرم رشيد باللغة العربية ويتحمس لها فيقرر أنها مادت اللغات السامية . وأن هناك بقايا منها في اللغة الهيروغليفية وهي اللغة المصرية القديمة ، لأن أقدم حضارات التاريخ هي مدنية الكلدانيين والبابليين في العراق ، والمصريين في وادي النيل ، والفينيقيين في سواحل سورية . وقد ثبت لدى بعض العلماء المشتغلين بالعاديات والآثار القديمة أن جماعات من بلاد العرب استعمروا هذه البلاد كلها . وقد أثبت المرحوم أحمد كمال باشا — وهو أعلم المصريين باللغة الهيروغليفية — أن معظم مفردات هذه اللغة تتفق مع اللغة العربية بالنص ، أو بنوع من التحريف ، أو القلب أو الإبدال[2]

ولذلك جعل رشيد من أهداف مجلته «المنار» نشر محاسن اللغة العربية باقتناص أوابدها ، وتقييد شواردها ، والتحلي بفرائدها على سبيل التدرج في الاستعمال[3] .

وقد تطلع رشيد فوجد الحكومة العثمانية مهملة للغة العربية ، مغلبة عليها اللغة التركية فغضب لذلك ، وفي فبراير سنة ١٩٠٩ م طلب من مجلس المبعوثين العثماني ثلاثة أمور هي إصلاح نظارة الأوقاف ، وإصلاح المحاكم الشرعية ، وجعل اللغة العربية محترمة في جميع مدارس الحكومة[4] .

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٢٦٠ .
(٢) خلاصة السيرة المحمدية ، ص ٩ .
(٣) المنار ، المجلد الأول ، ص ١٢ ، ١٣ .
(٤) المنار ، المجلد ١٢ ص ٨٠ .

وحينما رحل إلى الآستانة عقب صدور الدستور العثمانى، ليتحدث مع المسئولين هناك فى إنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد ، فرح فرحا كبيرا حينما وافق العثمانيون على المشروع ، وعلى أن يكون التعليم فى المدرسة باللغة العربية ، وكتب رشيد رسالة خطية — هى بين يدىَّ — بتاريخ ٩ من المحرم سنة ١٣٢٨ إلى شقيقه حسين وصفى رضا ، ومما جاء فيها قوله :

« وكنت أريد أن أكتب للمهدى كتابا مطولا فى الموضوع ، وأبشره بأن ناظر الداخلية صرح من عند نفسه بما كنت أرجأت التصريح لهم به ، وهو أن التعليم فى مدرستنا — دار العلم والإرشاد — سيكون كله باللغة العربية » .

وهو يقصد بالمهدى الشيخ محمد المهدى .

وكذلك فرح رشيد حينما رأى صفوة من العرب الأحرار ينشئون فى الآستانة «المنتدى الأدبى» الذى رأسه عبد الكريم قاسم الخليل ، وكتب رشيد ينوه بمكانة اللغة ، ويبين أن الارتقاء الحقيقى للأمة منوط بارتقائها ، ويذكر أن لجنة قد تألفت لمعاونة هذا المنتدى برياسة محمد باشا الشريعى ، وفيها أمثال أحمد تيمور ، وطنطاوى جوهرى ، وشبلى شميل ، ومحمد المهدى ، وعبد الستار الباسل ، ورفيق العظم ، وحسن عبد الرازق (١) .

ولم يقتصر رشيد على العناية بأمر اللغة العربية فى البلاد العربية بل نراه ، حينما رحل إلى الهند يقترح على مدارسها التى ليست بعربية أن تتسع عنايتها بتعليم اللغة العربية ونشرها .

---

(١) المنار ، المجلد ١٤ ص ٦٣٥ .

ولو رجعنا إلى مجلة « المنار » لوجدنا فيها كثيرا من المقالات اللغوية ، إلى جوار ما يقتضيه تفسير القرآن الكريم في المنار من تعرض لمسائل لغوية كثيرة ، ولو ذكرت كل ما نشر في المنار عن الجوانب اللغوية لطال المقال وامتد المجال ، فأكتفي ببعض الأمثلة :

١ ـ في المجلد الرابع ، صفحة ٨٢٧ مقال في مهاجمة مشروع التعليم باللغة العامية . وفي ص ٨٧٦ كلمة عن مناظرة بين الفصحى والعامية .

٢ ـ في المجلد السادس صفحة ٥٠٦ كلمة عن وجوب تعلم الفصحى .

٣ ـ في المجلد التاسع ، صفحة ٤٤٧ بحث لرشيد عن القياس في اللغة ومناقشة مع جبر ضومط ، وفي صفحة ٥٢٩ تتمة للحديث .

٤ ـ في المجلد العاشر ، صفحة ٨٦٦ مناقشة لغوية مع محمد الخضري ، وفي صفحة ٩١٠ مناقشة لغوية للسكندري .

٥ ـ في المجلد الثاني عشر ، صفحة ٥٠١ مقال عن العربية والتركية . وفي ص ٩٠٤ كلمة عن وجوب تعلم العربية .

٦ ـ في المجلد الثالث عشر ، صفحة ١٩٦ مقال عن الخط العربي .

٧ ـ في المجلد الرابع عشر ، صفحة ٤٤١ محاضرة لمحمود سالم بعنوان « عليكم باللغة العربية » .

٨ ـ في المجلد الثامن والعشرين ، صفحة ٤٣٣ مقال بعنوان « كيف تنهض اللغة العربية » وفي صفحة ٥١٣ تتمة للبحث ... الخ

ومن مظاهر عناية رشيد بالبحوث اللغوية أنه كتب إلى شقيقه حسين بتاريخ غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٢٨ من الآستانة فى رسالة خطية بين يدى يقول :

« نقلت (الحضارة) عن (الأزهار)[١] طائفة من الكلمات التى وضعها نادى دار العلوم بدلا من الكلمات الأعجمية المشهورة ، ولم أقرأها كلها ، ولكن يحسن أن ينشر فى المنار كل ما يضعونه من هذا » .

وكان رشيد يتذرع بوسائل مختلفة إلى إثارة الوعى اللغوى عند قراء المنار ؛ ومن هذا القبيل أنه نشر الخطبة التى افتتح بها الزمخشرى كتابه الجليل « أساس البلاغة » وفيها ألفاظ لغوية كثيرة تحتاج إلى الكشف عن معانيها فى معاجم اللغة ، ومنها هذه الكلمات :
« مداره العرب — الجياد القرح — بيضة الحنيفية — أسنة أسلهم — متعاورات أقوالهم — قراضبة نجد — تراجزت به السقاة — المماتنة — طرائق قددا — المنطيق المفلق — الإيجاف والإيضاع » .

وقال رشيد فى آخرها : « نشرنا هذه الخطبة لتكون هاديا لطلاب البلاغة إلى منهاجها ، ومرشدة مريدى الفصاحة إلى ينابيعها وأثباجها ولم نفسر ألفاظها الغريبة ، ونشرح مغازيها العجيبة ، لنبعث همة التلامذة إلى المراجعة والمكاشفة ، ونحملهم على المباحثة والمشارفة ، وننصح لهم بأن يحفظوها ، ثم يقلدوها ويحتذوها ، فهكذا فليكتب الكاتبون ، وهكذا فليسمع السامعون ، وإلا فلا[٢] »

---

(١) الحضارة والأزهار من مجلات عهد رشيد .
(٢) المنار ، المجلد ٤ ص ٦٣ . عدد ٧ مارس ١٩٠١ .

ومن مظاهر عناية رشيد باللغة أننا نراه يتحدث فى رحلته إلى الحجاز عن الجندى الذى يرافقه للحراسة : فيقول : « لم أستفد من حديث هذا الأعرابى الجندى ، ولا من حديث من قبله فائدة لغوية تذكر ، على أننى أكثرت الكلام مع هذا ما لم أكثر مع الآخرين ، ورأيته أفصح منهم ، وذكرت له أبياتا من الشعر العربى فرأيته لا يفهم جميع مفرداتها .

ثم يستدرك رشيد ويذكر أن الأعرابى أشار إلى شىء أبيض فى الجبل ، وسأل رشيدا عنه ، فلم يعرف : فذكر له الأعرابى أن اسمه : نهفهر ، وهو الحجر الصغير الذى يؤخذ باليد ، ويدق به الجوز ونحوه .

وأخذ رشيد عقب هذا يذكر من أقوال المعجمات ما يتعلق بمادة الصخر والحجر والفهر[1] . هذا رجل كأنه محب للغة العربية هائم بها ، على الرغم من شواغله الكثيرة الأخرى .

* * *

الدين واللغة :

من عجيب صنع الله تعالى للغة العربية أنه ربط بقاءها ببقاء القرآن الكريم ، والقرآن باق بمقتضى قول الحق عزَّ من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وفى كتابى « وسائل تقدم المسلمين » قلت هذه العبارة :

« يجب أن نذكر الصلة الوثيقة — التى يجب أن تزداد على الدوام توثقا — بين العروبة والإسلام . وما عقدته يد الله الحكيمة القوية لا يجوز أن تحله يد الإنسان أو يد الشيطان .

(١) المنار ، المجلد ٢٠ ص ١١٤ .

وقد أراد العليم الخبير أن تكون العروبة وعاء الإسلام ، وأراد فى الوقت نفسه أن يكون الإسلام روح تلك العروبة ، والعامل المهم فى تحريرها وتكريمها وتعظيمها وتخليدها على الأيام ، فقد شاء الله أن يكون نبى هذا الدين رجلا عربيا من صميم العرب ، وأصدقهم فى العرب نسبا ، وجعل الله مبعث هذا النبى ومبدأ دعوته العالمية الباقية فى أرض عربية وواد عربى هو أشبه بمركز الدائرة بين بلاد العروبة .

وأنزل الله دستور هذا الدين المتعبد به ـ وهو القرآن المجيد المحفوظ ـ بلسان عربى مبين ، وفصله بيانا عربيا غير ذى عوج ، وجعل تفسير هذا الدستور الإلٰهى الخالد تفسيرا عربيا فى لغته وبيانه ، وهذا التفسير هو الحديث الشريف[1] » .

من هذا نستطيع أن نفهم الارتباط بين اللغة العربية والدين الإسلامى ، ولقد كان أبو منصور الثعالبى موفقا حين صور التسلسل المفضى من حب الله تبارك وتعالى إلى حب اللغة العربية ، تصويرا جميلا رائعا ، فى مفتتح كتابه « فقه اللغة وسر العربية » فقال :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التى تنزل بها أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها .

ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، أعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام

(١) وسائل تقدم المسلمين ، ص ١٢١ .

خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هى أداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ؛ ثم هى لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة ، وسائر أنواع المناقب ، كالينبوع للماء ، والزند للنار » .

ورشيد رضا يرى أن القرآن الكريم هو حجة الله البالغة على دين الحق وهو الإسلام ، ولا بقاء للإسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية ، ويروى اتفاق علماء الإسلام من العرب والعجم على وجوب حفظ اللغة العربية ونشرها ، لأن الدين والعلم يقويان بقوة اللغة العربية ، ولأن وحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة ؛ ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم إلا لغة الدين ، وهى العربية .

ثم يقرر أن ضعف الدين والعلم كان يضعف اللغة العربية . والله تعالى قد أمرنا بتدبر القرآن لنتذكر به ، ونعتبر ، وننفذ ما فيه من أحكام ، وهذا لا يتم على وجهه إلا بفهم العربية الفصحى ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وكذلك جعل الله تعالى القرآن معجزا ، ولا نستبين وجوه إعجازه إلا بفهمه ، ولايمكن فهمه إلا بفهم العربية الفصحى ، فمعرفة اللغة العربية من ضروريات دين الإسلام التى يدعى إليها جميع المسلمين بدعائهم إلى القرآن[1] .

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٩ — ٣١ .

وهكذا يربط رشيد بين تعلم الدين وتعلم العربية بهذا الرباط المتين الوثيق ، ثم نراه ينتقل إلى بيان أن الاجتهاد فى الإسلام يتوقف — فيما يتوقف عليه — على إتقان اللغة العربية وفهم أساليبها وخواص تراكيبها والملكة الراسخة فى فنونها ، للتمكن من فهم نصوص الكتاب والسنة ، وهما فى الذروة العليا من هذه اللغة[1] .

وينعى رشيد على الذين يدّعون الإصلاح الدينى دون اتخاذ أسبابه ، ويدّعون الاستقلال فى فهم القرآن والسنة والاجتهاد المطلق فى أحكام الشريعة ، وهم لم يعدوا لذلك عدته ، ولا سلكوا طريقته ، إذ لم يحفظوا القدر الكافى من مفردات اللغة العربيـة ، ولم يطبعوا على سليقة البلاغة المضرية ، ولم تستحكم لهم ملكة البيان بالتمرس والصناعة[2] .

ويلح رشـيد إلحاحا واضحا وكريما فى تأكيد العلاقة بين الدين واللغة ، فيقول مثلا : للغتنا العربية علينا من الحق ما للغة الإنكليزية على الإنكليز ، والفرنساوية على الفرنساويين ، ولها حق آخر علينا هو أقدس من سائر الحقوق ، يوجب علينا إحياءها حتما ، وهو حق الدين الذى لا يمكن حفظه إلا بها ، وهو ركن سعادتنا الدنيوية والأخروية[3] .

---

(١) الخلافة أو الإمامة العظمى ، ص ٨٧ .

(٢) يسر الإسلام ، ص (هـ) .

(٣) المنار ، المجلد الأول ، ص ٥٧٣ .

ويسمى رشيد اللغة العربية لغة الإسلام « الراقية العالية : التى تحقق رابطة الإخاء والمودة »[١] ، ويرى أن الإسلام لا حياة له إلا بحياة اللغة العربية ، وإنما حياتها يجعلها لغة الخطاب والعلم عند أهلها[٢] . وأن محاربة اللغة العربية محاربة للإسلام[٣] .

وكذلك قال رشيد : « ولكن نمو الإسلام ، وفهم ماجاء به من الحكم والمعارف التى ترقى النوع البشرى ، يتوقف على معرفة العربية حق المعرفة ، وفهم المسلمين للقرآن ، وكونهم أمة واحدة يتحدون فى مقومات الأمم التى يمكن الإتحاد فيها ، وأهمها الدين واللغة ، وهذا الإصلاح الاجتماعى الذى جاء به الإسلام ، وهو السعى فى وحدة أمم الأرض ؛ باتفاقهم فى اللغة والدين هو الذى توجهت إليه أخيرا أفكار فلاسفة أوربا ودولها القومية[٤] » .

وأكاد أجد فى هذا الكلام ريح التوجيه من رشيد للمسلمين بأن يجعلوا لغة الإسلام لغة العالمين ، كما أنزل الله دينه على يد رسوله ليكون رحمة العالمين .

ومما يقرب من هذا قوله : « ولما كان اتحاد الأمة لا يتم إلا بوحدة لغتها ، كان من مقاصد الإسلام جعل لغة القرآن لغة لجميع المسلمين ؛ وعلى هذا جرى المسلمون فى خير القرون بالعمل ، فصارت العربية لغة المسلمين فى المشرق والمغرب من القرن الأول[٤] .

---

(١) المنار ، المجلد ١٦ ص ٦٠

(٢) المنار ، المجلد ١٣ ص ٦٠٣ .

(٣) المنار ، المجلد ٤ص ٤٩٦ .

(٤) المنار ، المجلد ١٧ ص ٥٣٤ .

وإذا كانت اللغة العربية هى لغة الإسلام ، فمن وظائف علماء الدين نشر لغة الدين ، يجعلها لغة التخاطب ولغة العلوم لتستغنى الامة بها عن اللغات الأجنبية ، إلا نفرا يترجمون وينقلون[1] .

ويحذر رشيد من إهمال اللغة العربية ، ومن التهاون فى التمكن لها بين المسلمين ، لأنهم لن يستطيعوا التعارف السليم بغير لغة يتفاهمون بها ، ولقد طاف رشيد كثيرا من بلاد الهند فى رحلته ، فلم يدخل بلدا منها إلا وجد فيه كثيرين يتكلمون معه بالعربية ، على حين لا يكاد يوجد فيها أحد يعرف التركية ، حيث لا يوجد داعية تحفزهم لتعلمها ، وأما اللغة العربية فداعية تعلمها الدين[2] .

وينعى رشيد على المدارس الموجودة فى مصر على عهده ، لأنها غير قائمة على أساس العروبة والإسلام ، فهذه المدارس تجذب المتعلمين والمتعلمات فيها إلى التفرنج ، وهى تفتنهم بلغة غير لغتهم ، تأخذهم بآداب غير آدابهم ، وتعودهم عادات غير عاداتهم ، كما تخفض مقام ملتهم وعروبتهم فى أنفسهم[3] .

ولقد عنى رشيد عناية ملحوظة فى مطالبة الحكومة العثمانية بأداء واجبها الإسلامى نحو لغة الإسلام : اللغة العربية ، وعبر رشيد عن هذه المطالبة بأساليب كثيرة ، فتارة يقول إن تركية لو نشرت اللغة العربية فى البلاد التى فتحتها لانتشر فيها الإسلام انتشارا عاما طبيعيا[4] .

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٤٤٧ . (٢) المنار ، المجلد ١٩ ص ١٦٥ .
(٣) المسلمون والقبط ، ص ١٢٤ .
(٤) الخلافة أو الإمامة العظمى ، ص ٨٧ .

وتارة يوجه الدولة العثمانية إلى ذلك الواجب برفق فيقول:
« يود كل مسلم عثمانى أو محكوم من دولة غير إسلامية لو تكون الدولة العلية فى أعلى درج العزة . وأقصى غايات القوة ؛ فيعود للإسلام مجده على يديها ، ويشتد أزره بساعديها ، ويكون الترك والعرب وسائر العناصر الإسلامية فى هذا المجد سواء .

وما كان أقرب هذه الأمنية لو استن من جاء بعد السلطان سليم ياوز — عليه الرحمة — من الملوك بسنته السياسية ، فعمموا اللغة العربية ، وجعلوها اللغة الرسمية ، ووجهوا عنايتهم إلى ضم سائر الممالك الإسلامية إليهم[1] » .

وتارة ينقد رشيد رضا الدولة العثمانية لتقصيرها فى نشر اللغة العربية ويطالبها بالعناية بها[2] ... إلخ .

وتارة يهاجم ، وذلك حينما رأى الكيل قد طفح ، والسيل قد طغى ؛ فيقول إن الترك قضوا على اللغة العربية ، وحرمتها حكومتهم ، لتقطع كل صلة للأتراك بدين القرآن ، ويقول إن الحكومة الكمالية التركية أمرت خطباءها بأن يخطبوا فى المساجد بالتركية ، تمهيدا للصلاة بها ، لخلع ربقة الإسلام[3] .

ومن الإنصاف للتاريخ أن أقرر أن هذه الغيرة الإسلامية على اللغة العربية ، لم تكن عند رشيد رضا وحده ، بل كان هناك أعلام

---

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ١٢١ . ولنلاحظ أن هذا الكلام نشر فى ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٠ .

(٢) المنار ، المجلد ١٢ ص ٩٢٦ .

(٣) تفسير المنار ، ج ٩ ص ٣١٠ و ٣١٣ .

آخرون يرون الرأى نفسه ، ويدعون الدعوة ذاتها ومن هؤلاء مثلا الشيخ على يوسف الذى نجده يقول : « مسألة اللغة العربية هى مسألة الدين الإسلامى بعينه ، فإذا فرط المسلمون فى لغتهم الفصحى (لغة القرآن والحديث والشريعة) أضاعو دينهم بأقرب مما يطلبه المرسلون المسيحيون منهم[١] .

بل كانت الرابطة بين الإسلام والعربية حقيقة واضحة فى أذهان كثير من غير المسلمين ، فجورجى زيدان مثلا يقول : « إن المسلمين لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وسائر كتب الدين[٢] » .

لكنى أرى أن السيد محمد رشيد رضا قد عنى بالحديث عن ارتباط الإسلام باللغة العربية عناية لم تكن لمعاصريه من أمثاله[٣] ، وهى عناية تستحق التقدير والشكر من كل غيور على دين الإسلام ولغة الإسلام .

وكان رشيدرضا يجتهد من ذات نفسه حين يقول بوجوب تعلم العربية شرعاً على المسلم حسبما فهم من روح الإسلام وتعاليمه ، وكان فى أول الأمر يقول إنه لابد فى الإصلاح الذى يعيد مجد الإسلام من تعميم اللغة العربية ، واحتج لذلك ، ولكنه لم يستطع حينئذ التصريح

---

(١) اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، ص ٦٤ نقلا عن المؤيد فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٠١م

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ نقلا عن الهلال ، عدد فبراير ١٩٠٢ م .

(٣) انظر مثلا المنار ، المجلد ٤ ص ٤٩٥ والمجلد ١٢ ص ٧٥٩ ، ٩٠٦ والمجلد ١٣ ص ٥٩ و ١٤٩ والمجلد ١٥ ص ٤٤ ، ٦٥ و ٥٨٣ ... ألخ .

بأنه واجب دينى لأنه لم يكن قد اطلع على رأى لأحد الأئمة الأربعة يصرح بذلك[١].

ولكنه حينما وجد نصا فى هذا الإمام الشافعى فرح به وأخذ يعلق عليه ؛ ويستشهد به . ونص الإمام الشافعى المشار إليه قد ذكره فى كتابه « الرسالة فى أصول الفقه » وفيه يقول :

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداعبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى ؛ وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير . وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك .

وما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيرا له ، كما كان عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتى البيت وما أمر بإتيانه ، ويتوجه لما وجه له : ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب إليه لا متبوعا » .

وعلق رشيد على كلام الشافعى بأن مذهبه لم يخالفه فيه أحد من أئمة المسلمين ، فكان ذلك كالإجماع[٢] .

ولقد تحدثت عن نص الشافعى فى كتابى « الأئمة الأربعة » حيث أبنت كيف يقرر الشافعى أن لسان العربية يجب أن يكون مقدماً على كل لسان ، لأنه لسان القرآن ، ولسان الرسول .

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٤٩٥

(٢) تفسير المنار ، ج ٩ ص ٣١٢ والمنار ، المجلد ٢٩ ص ٦٦٢

ولا يجوز أن يكون لسان المسلمين تابعا لأى لسان ، بل يجب أن يكون كل لسان تبعا للسانهم العربى القرآنى المبين

وذكرت أيضاً أن الشافعى يرى أن عقد الزواج لايجوز بغير العربية للقادر على التكلم بها[1] .

إن مسألة وجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين قد شغلت حيِّزاً كبيرا من مجلدات المنار وتفسير المنار ، وهى تدل على الغيرة المحمودة التى كانت تبدو دائماً من رشيد على لغة القرآن الكريم .

* * *

بين الفصحى والعامية :

يدرك كل عاقل أن اللغة الموحدة هى العنصر الأول فى تكوين القومية ، والأمة العربية أحوج من غيرها إلى اعتزازها بلغتها العربية الفصحى لسببين : الأول أنها انقسمت إلى دول وأقطار وشعوب ، وفى كل صقع[2] من أصقاعها نشأت لهجة عامية لا يفهمها إلا أهل هذا الصقع ، ولا يسهل استعمالها إلا عليهم ، والقدر المشترك بين هذه الأصقاع هو الفصحى ، لغة القرآن ولغة الأدب المشترك .

والسبب الآخر هو ارتباط هذه اللغة بالدين الذى تدين به أكثرية العرب ، فلو ضاعت الفصحى من بينهم لا ستغلقت أمامهم الأبواب لفقة قرآنهم وحديثهم وتاريخهم .

---

(١) الأئمة الأربعة ، ص ١٧٤ .

(٢) الصقع : الناحية .

ومن أجل هذا نرى أعداء العروبة والإسلام معا يدعون إلى بعث العامية خلال الديار العربية بأساليب شتى ووسائل متعددة ، لتتفرق الأمة الواحدة ، وتتكاثر اللهجات المختلفة ، وتستعجم الألسنة الفصيحة ، ويتسع البعد بين العرب المسلمين وإدراكهم إعجاز القرآن وتعاليم الإسلام .

ولقد تكررت الدعوة إلى العامية فى ظروف كثيرة ، وجهات كثيرة ، واشترك فى الدعوة إليها أعداء خبثاء ومقلدون جهلاء ، ومدعون للتجديد سخفاء ؛ وهنا نتذكر كلمة الدكتور زكى مبارك التى قال فيها : « بلغ الجهل ببعض كتاب العصر أن يصدق ما أشار إليه ولكوكس[١] من أن اللغة العامية لغة مصرية أصيلة ، يتكلمها المصريون منذ عهد الهكسوس .

على أن هذا لا يمنع الاعتراف بأن لغة مصر القومية هى العربية الفصيحة ، لأنها لغة للدرس والتأليف . ولغة المحاكم والدواوين منذ أجيال طويلة

وقد رأينا بعض الكتاب المشهورين يبدئون ويعيدون فى هذه المسألة لأنهم رأوها موضع عناية أحد المستشرقين ، وكل ما يهتم به المستشرقون يجب أن يهتم به الشرقيون فى فهم بعض الناس[٢]

(١) أحد المستشرقين .

(٢) زكى مبارك ، ص ٩٥ .

والمراجع لتراث رشيد رضا الأدبي يجد أنه قد وقف دائما بجوار اللغة العربية الفصحى ، وقاوم كل نزعة إلى الحيف بها أو الانتقاص منها شكلا أو موضوعا ، وما أكثر هذه النزعات على عهد رشيد .

ولقد أصدر رشيد مجلته «المنار» فى مطلع عام ١٨٩٨ م ، وما كادت تعرف طريقها إلى القراء حتى وجد رشيد من أعداء لغة القرآن والإسلام من يكيد لها بمحاولة إخراجها إلى اللغة العلمية ، ثم بإخراج هذه اللغة العامية عن صور حروفها العربية ، لتكون تلك المحاولة ضربة أولى تليها ضربات .

ولم يسكت رشيد بل نراه فى «المنار» عدد ٢٨ من ذى القعدة سنة ١٣١٥ هـ — ١٩ من إبرايل سنة ١٨٩٨ م يكتب مقالا بعنوان « صدمة جديدة على العربية » ، وفيه يتحدث عن مكانة اللغة العربية ، ووجوب العناية بها ، ومضاعفة الرعاية لها ، ثم أشار إلى أن هناك من يعملون على إماتة هذه اللغة الشريفة ، وعلى إحياء اللغة العامية المصرية ، وجعلها لغة كتابة ، وتكتب بحروف افرنجية ثم يقول متفجعا على الفصحى ، ومعرضا بدعاة العامية :

« لهفى على اللغة العربية المقدسة . ألم يكفها تحقيرا وامتهانا أن المصريين ينشئون الجرائد باللغة العامية ؟. كان فى الأمل أن كثرة الجرائد باللغة الفصيحة تكون من أنجح وسائل إحيائها ، فقامت جريدة (الحمارة) و (اللجام) و (الغزالة) و (الشيطان) تعارض

(الإسلام والمقتطف والهلال والمؤيد والأهرام والمنار) ، بل سقطت مجلة (البيان) الفصيحة ، ونهضت الحمارة باللجام ، واخجلتاه » ؟

ثم يشير رشيد إلى أن شخصا مجهولا نشر كراسة يدعو فيها إلى استعمال الحروف الافرنجية فى كتابة هذه اللغة العامية المصرية ، لتكون الأمة – فى زعمه – عزيزة الجانب متحدة الكلمة ، ويعلق رشيد رضا على هذا بقوله :

«فليت شعرى ، ماهى العلوم والآداب المودعة فى هذه اللغة العامية التى ينتج حفظها فى الكتابة الأفرنجية هذه العزة والمنعة ، ويمنحها هذا الاتحاد فى الكلمة ؟ ومع من يكون هذا الاتحاد ؟ هل هو مع سائر إخوان المصريين فى اللغة من الحجازيين والسوريين والمغاربة والعراقيين . أم غيرهم[1] » ؟

ويورد رشيد «الغوائل» التى سماها الأثيم صاحب الكراسة «فوائد» لدعوته ، وهى أربع : تسهيل التجارة وتعميم التعليم ، وحفظ اللغة العربية العامية ، وقلة نفقات الطبع ، وتوحيد اللسان بين الوطنيين والأجانب ، وذلك مما يقوى الوطنية ! . ويسخر رشيد من هذه الفوائد المدعاة .

وفى العدد التالى من المنار – وهو بتاريخ ٥ من ذى الحجة سنة ١٣١٥ هـ ٢٦ إبريل سنة ١٨٩٨ – واصل رشيد الحديث فى موضوعه فذكر أن الساعين فى محو اللغة العربية الصحيحة من الوجود قد استنبطوا لهذه الغاية حروفا لإحياء اللغة العامية المصرية ، وهذه الحروف أفرنجية

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ١٠٣ .

تقرب متعلمها من اللغات الأجنبية ، وتبعده عن لغة قرآنه ودينه وأسلافه ، وتقطع النسبة بينه وبين مشاركيه فى الدين واللغة من أهل البلاد الحجازية المقدسة ، وسائر البلاد العربية التى تكتنف البلاد المصرية ، وترجو أن يلمع نور إحياء العربية من ربوع مصر وأكنافها ، فيستضىء به كل من ينطق بالضاد[١] .

ويذكر رشيد أن الكراسة الأثيمة جاء فى أولها أن الذى استنبط هذه الحروف هو « ولهلم سبتا بك أمين الكتبخانة الخديوية ، اللغوى الألمانى المحقق الذى توفى سنة ١٨٨٣ » وأنه ألف كتابا بالألمانية فى صرف هذه اللغة العربية المصرية ونحوها ، وأنه كان محبا للمصريين ، غيورا على مصلحتهم ؛ ويعلق رشيد على ذلك بأن آثار هذه المحبة وهذه الغيرة تشبه آثار العداوة والبغضاء ، و يتساءل مستنكرا :

« متى وجد غربى يسعى فى خير الشرق للشرق » ؟ . ويبين رشيد مكائد هؤلاء الغربيين ، فالغربى «لا يعمل عملا إلا لمنفعة وطنه وأمته»[٢] .

ويرد رشيد على دعوى أن كتابة هذه اللغة تؤدى إلى تسهيل هذه التجارة ، إذ يسهل على الأوربيين تعلم هذه اللغة بحروفها الأجنبية ، فيسهل اتجارهم مع المصريين ، فيقول رشيد : «إن سهولة المعاملة التجارية على الأوربيين وتعميمها فى القطر هى نكبة

---

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢١ .

شديدة على المصريين ، بل هى جائحة تتلف عليهم ثمار أعمالهم ، بل تنتزع منهم جميع ما بأيديهم من مال وعقار ، وتجعلهم أجراء للسادات الذين يمتلكون بلادهم بما لهم من المهارة فى الكسب ، والحذق فى استعمار الأرض ، ثم يعم بلادهم الفجور والخمور التى تسلبهم ما ينقده لهم السادة المالكون من الأجور على أعمالهم اليومية ، وتكون فائدتهم أنهم خرجوا من كل شىء وفقدوا كل شىء[1] .

ورشيد هنا لاذع فى رده : رائع فى تفنيده لحجة خصمه ، فهو لم يكتف بالجانب الأدبى : بل انتقل إلى الجانبين السياسى والاقتصادى ، فاستخرج منهما حجرين ألقمهما صاحب هذه الدعوة .

ثم يرد رشيد على دعوى أن هذه الطريقة تعمم التعليم فيقول إن الغرض من التعليم هو نشر العلوم والفنون ، فأى علم وضعت فيه مصنفات بهذه العامية ؟ وأى فن دونت فيه الدواوين بها ؟ ولكن « يوجد فى اللغة العربية الصحيحة ألوف وألوف من كتب العلوم والفنون فى اللغة وآدابها ، وفى الدين من عقائد وأخلاق وشريعة ، وفى جميع الفنون القديمة والحديثة .

ثم ينفى اقتدار الأوربيين على إبراز علومهم — لو أرادوا ذلك مخلصين — فى قوالب هذه العامية السخيفة ، وإلباسها هذه الخلقان .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

« كيف وهم يزعمون أن اللغة العربية (سيدة اللغات) لاتفى ببيان مخترعاتهم ، وقاموسها المحيط لايحيط ببعض مكتشفاتهم ، وأنها هى التى قصرت ببنيها عن التوسع فى العلوم والفنون العصرية [١] ؟

ثم يسارع رشيد بتفنيد هذا الزعم قائلا : إن اللغة العربية ماقصرت ، ولكن قصرت الهمم ، وإن الأمم لاترتقى بلغاتها ، ولكن اللغات ترتقى بالأمم » .

ثم يشير رشيد إلى أن محاولة تعليم هذه اللغة العامية بهذه الحروف الأوربية ستستغرق عشرات من السنين ، وستحرم من طلب العلوم النافعة ، إذ تأخذ زمنا من وقتها ، ثم يورى ويعرض بالصحف العامية التى كانت على عهده ، وهى الحمارة ، واللجام ، والغزالة ، والشيطان ، قائلا :

« فإذا قيل إنه لايمكن تعلمها هى (اللغة العامية) إلا بمثل هذه الحروف السهلة ، قلنا إن نهيق (الحمارة) وصلصلة (اللجام) ونزيب (الغزالة) ويغومها (صوتها) يكذب هذا القول ، فإن لم يقنع قائله سلطت عليه (الشيطان) فهو أولى بإقناعه من الحيوان [٢] .

ويدعى صاحب الفكرة أنها تؤدى إلى حفظ اللغة العامية ، لأن اللغات الأجنبية كما يقول صاحب الدعوة الأثيمة — ستشيع فى

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

المدارس ، فيضطر أغلب السكان إلى تعلم لسان أجنبي ، فلا تبقى اللغة العربية بعد ذلك سواءٌ أكانت معربة أم غير معربة .

ويرى رشيد « أن اللغة العربية معرضة للتلاشي والإمحاء من القطر المصرى الذى يتبعه سائر الأقطار : لأن من سنة الله تعالى فى الكون أن الضعيف يقلد القوى ، والمغلوب يحتذى مثال المتغلب فى سائر شئونه » .

ويدلل رشيد على ذلك بشواهد من تاريخ العربية . ثم يقول : « كانت اللغة العربية سائرة على سنن الطبيعة مع فتوحات الإسلام ، فعارضها ما أوقف سيرها فى بلاد الفرس وغيرها . ثم أرجعها ، القهقرى ، ولو كان لها أنصار عارفون بعلم طبيعة الكون . لأمكنهم إزالة تلك العوارض ، وجعلها لغة جميع من أظله لواء الإسلام » .

إن هذه الوقفة من رشيد تضمنت غضبة كريمة للغة الفصحى . وحملة شديدة الوطأة على دعاة اللغة العامية . وقد بدا فيها رشيد ساطع الحجة صادق الغيرة قوى العارضة (٣).

وتمضى على هذه الوقفة أيام ، ويظهر أجنبي آخر يدعو إلى جعل اللغة العامية المصرية لغة التعليم ، وهو المستر « ويلمور » المستشار فى محكمة استئناف مصر الأهلية الذى ألف كتابا فى هذا الشأن ، وانبرى رشيد لمحاربة الفكرة فكتب فى « المنار » عدد ٢٦

---

(١) العارضة : البيان .

يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٠٢ يذكر بالدعوة الأثيمة السابقة ، ويربط بها اللاحقة ، ووصف العامية بالسخافة ، ووصف الفصحى بالشرف ، وأوجب العناية بها لأنها لغة الدين والعلم والأدب ويعاود وصفها « باللغة المقدسة » .

ويحذر رشيد من المعاول التى هيئت لتقويض أركان العربية وهدم بنيانها ، ويدعو إلى مقاومة الهادمين لها ، ومناصرة المستمسكين بها ، واقترح أن يتعود متعلمو اللغة النطق بالكلام العربى الصحيح ، واستنجد بمشيخة الأزهر الشريف ، وطلب مساعدتها على ذلك ، ليكون العلماء هم القدوة فى إنقاذ لغة الدين من مخالب المغتالين ، « وذلك بأن تلزم المدرسين والمتعلمين بالنطق بالعربية الصحيحة فى الدروس ثم فى غير الدروس » ، ووعد رشيد بحملة يقوم بها على معلمى العربية فى المدارس لتقصيرهم فى هذا المجال[1] .

وفى العدد التالى من «المنار» عدد ٩ من فبراير (شباط) سنة ١٩٠٢م يعود رشيد إلى مناصرة الفصحى ومهاجمة العامية ، ويشير إلى جمعية تألفت من الشبان المصريين الذين أتموا دراستهم فى انجلترة ، ومن بينهم الشيخ عبدالعزيز جاويش وقد عقدت هذه الجمعية جلسة أحضرت فيها المستر « ويلمور » وناقشته فى دعوته ، ويثنى رشيد على هذه المناقشة ، ثم يعقب قائلا : « ولكن كل هذا لايغنى عن اللغة العربية شيئا إذا لم تنهض لنشرها وتعميمها ولو بين أهلها .

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٨٢٧ — ٨٣٢ .

ثم يشير إلى تفكير بعض الفضلاء فى تأليف جمعية لإحياء اللغة العربية ، ويرجو أن يكون ذلك قريبا[١] ، ولعله قصد بهذه الجمعية مجمعا لغويا عربيا .

إن رشيدا هنا يبدو « كالدرويش » المستهام الذى أولع بحب الفصحى ، وشغل نفسه بها ، وتحمس لها تحمسا شديدا جعله يطالب مدرسيها بالتكلم بها فى الدروس وفى غير الدروس ، والظاهر أن هذا التحمس كان « رد فعل » للدعوات الأثيمة المجرمة التى توالت داعية إلى تسويد العامية والقضاء على العربية الفصحى ، فأخذ رشيد مع آخرين يقاومون ، وطمحوا إلى المطلب العسير ، وإن كان جميلا وجليلا — وهو أن يتكلم أهل العربية بها فى كل مكان ، ليكونوا رسلا لنشرها وتمكينها من ألسنة الناس وأسماعهم هنا وهناك .

ولذلك أخذ رشيد يحارب كل نزعة إلى العامية ، ويؤيد كل خطوة إلى تسويد الفصحى ، فهو مثلا يتحرز من استعمال اللفظ العامى ، وإن اضطر لذكره وضعه بين قوسين كقوله : ... واثنان لحمل المتاع (العفش) ..... [٢] .

ويخرج جورجى زيدان قصة « فتح الأندلس » ، وهو صديق لرشيد ، فيكتب عنها رشيد ويثنى عليها ، ولكنه ينقد كاتبها لكلمات وعبارات عامية فيها ويتلمس رشيد عذرا لذلك

(١) المرجع السابق ، ص ٨٧٦ — ٨٧٩ .

(٢) المنار ، المجلد ٢٠ ص ١٠٨ .

هو أن الكاتب أراد تيسير كتابته للعوام ، ثم يعود فيقول :
«وعندى أن سلامة عبارته كافية فى الوصول إلى هذا المرام ، وصحة العبارة لاتحول بين المعنى والإفهام[1] » .

ورشيد يفرح حين يجد نظارة المعارف المصرية تحظر على معلمى العربية التكلم بالعامية التى يسميها « الكلام العرفى البلدى » فى أثناء الدروس ، وتلزمهم أن يجعلوا شرح الدروس بالكلام العربى الفصيح ، ثم يقول : « وأجدر بشيوخ الأزهر الأفاضل ونحوهم من معلمى المدارس المدينية أن يكونوا هم السابقين إلى هذه السنة الحسنة ، وعسى أن يتداركوا مافاتهم من السبق فى البداية ، بالسبق والتبريز فى النهاية[2] » .

ويتسع أفق رشيد فى نظرته إلى قضية العامية والفصحى ، فيقرر أن أغلب الكلمات العامية لها أصل فى الفصحى ، ويقترح جمع الكلم المحرف على ألسنة العامة ، وردّه إلى أصله الصحيح ، ليسهل ضبط طرق التحريف ، فنستفيد من هؤلاء العوام ما يعز علينا أن نستفيده من معاجم اللغة التى تفسر اللفظ فى الغالب تفسيرا لايحدد المعنى .

وينتهز رشيد الفرصة فيدعو إلى وضع معجم أو معاجم تحدد المعانى تحديدا واضحا بالصور والرسوم على الطريقة التى تليق بمعارف هذا العصر ، وقد سبقنا إليها الأوربيون[3] .

وهذا الاقتراح خطوة عملية مجدية فى خدمة العربية من جهة ، ورد العامى إلى الفصيح من جهة أخرى .

---

(١) المنار ، المجلد ٦ ص ٣٩٢ .
(٢) المنار ، المجلد ٢ ص ٢٦ . وانظر كتاب المنار والأزهر ، ص ٢٠٦ .
(٣) المنار ، المجلد ١٠ ص ٩١٤ و ٩١٥ . عدد أول فبراير (شباط) سنة ١٩٠٨م .

ولقد هم رشيد — كما يخبرنا — بأن ينظر فى المجموع من الكلم المعرب والمولد ، ويرجعه إلى قواعد عامة إذا أمكن ، ولكنه لم يجد سعة فى وقته لذلك ، وهو يشير إلى أن كتاب « المعرب » لأبى منصور الجواليقى قد يكون فيه غناء يكفينا فى هذا المطلب العناء [١] .

* * *

ومع هذه الغيرة الصادقة من رشيد على الفصحى ، ومع تقريره أنه يجهل كثيرا من كلام « العامية [٢] » نجده يستعمل « المولد » ، كأن يقول : « الدولة كانت قد صادرت بيتها مرتين [٣] » .

وكلمة « صادرت » من كلام كتاب الدواوين ، وهى من المولد الذى ليس من كلام العرب الأولين : وقد أورد أمير البيان شكيب أرسلان شواهد لاستعمال هذه اللفظة فى كثير من الكتب بمعنى : « فورق على مال ضمنه » ، ثم يقول : « وهكذا : هذه اللفظة تدور كثيرا فى أخبار ديوان الخلافة [٤] » .

ويستعمل رشيد بعض الألفاظ العامية : كقوله : « فوالله إننا عجبنا أنه لم يعطه بخشيشا » : وكلمة « بخشيش » لفظة تركية هى مصدر لقولهم : « بخشى ايشمك » أى أعطى ، ويذكر شكيب أرسلان أن مقابلها فى العربى : « الحلوان » ، وما يعطى للخادم يسمى « النُّخل » أو « النُّخلان » بضم النون فيهما [٥] .

(١) المرجع السابق ، ص ٩١٠ .
(٢) المنار ، المجلد ٨ ص ٣٦ .
(٣) المنار والأزهر ، ص ١٣٦
(٤) السيد رشيد رضا ، ص ٢٨ . فى الهامش .
(٥) المرجع السابق .

ويقول رشيد : « دعانى رجل وجيه من معارف والدى إلى سيران فى بستانه مع شيخنا [١] » . وكلمة « السيران » فى عرف السوريين تفيد معنى الخروج للتنزه والطعام فى البساتين والضواحى ، وهى كلمة تركية فيما يظهر ، مأخوذة من « سير ايشملك » بمعنى النزهة فى التركية [٢] .

ورشيد يستعين أحيانا بالجملة العامية ، مثل قوله : « وإذا عمل عملا قبيحا صب عليه سوط عذاب ، أو كما يقول بعض العامة فى بلاد الشام : لعّب العصا بجلدو . . . » . ومثل قوله : « فلا يسمخرن أحد من بسطائنا وجهلائنا ، فإن لهم فى الأمم الأوربية أمثالا وأمثالا من البسطاء (وكلنا فى الهوا سوا) ... [٣] » . ومثل قوله عن صديقه إحسان الجابرى : « وإحسان بك يكتب فى مذكراته كل مامر به أو عرض له ، حتى الذرة وأذن الجرة [٤] » .

رشيد رضا فى قضية العامية والفصحى رجل عربى غيور على لغته ، عامل على بثها وتسويدها ، محارب للذين ينتقصونها أو يهضمونها حقوقها ، مقاوم للدعوة إلى العامية لما فيها من خطر على العروبة والإسلام ، ولما وراءها من نوايا خبيثة ماكرة ، وهو ذو أفق واسع يريد أن ندرس العامية لنفيد منها ، ولنرتفع بها إلى مستوى الفصحى .

* * *

---

(١) المنار والأزهر ، ص ١٧٢ .

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٩٦ . فى الهامش .

(٣) المنار ، المجلد الأول ، ص ٥٩ و ٦٩ .

(٤) السيد رشيد رضا ، ص ٥٠٦ .

رشيد والمجمع اللغوى :

عرفنا فى « عصر رشيد رضا » أن أول مجمع لغوى فى القاهرة أُنشئ سنة ١٨٩٢ م ، وكان يسمى « مجمع البكرى » ، ثم ظهر نادى دار العلوم منذ سنة ١٩٠٧ م بجهوده فى خدمة اللغة العربية ؛ ثم أُنشئ مجمع دار الكتب بسعى لطفى السيد سنة ١٩١٦ م ؛ وفى سنة ١٩٢٢ م تأسس مجمع لغوى برياسة أدريس راغب ؛ وفى سنة ١٩٣٤ م بدأ مجمع اللغة العربية .

وكذلك تأسس المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩١٩ م .

ومنذ مطلع القرن العشرين نرى رشيدا يدعو إلى إنشاء مجمع لغوى ، فهو مثلا يذكر أنه ينبغى لنا أن لانجدد فى اللغة إلا ما نحتاج إليه ؛ ولا نجده فى كتبها ، ثم يشير إلى أن هذا العمل لايترك للأفراد ، بل يجب أن يكون برأى جمعية من العلماء يبحثون فى ذلك ويجعلون له نظاما ، وينشرون مايرونه فى الصحف ليعم الاستعمال ، ويؤمن الاختلال ، ولا يجوز الخروج عن شىء من النظام الحاضر فى مملكة اللغة إلا بعد اجتماع أهل العلم والرأى ؛ ووضعهم لها نظاما جديدا بعد المشاورة والمذاكرة[1] » .

وحينما بدأ نادى دار العلوم جهوده اللغوية فرح بها رشيد ، وحرص على أن ينشر مايضعه أعضاء النادى من بحوث أو مصطلحات .

وعاود رشيد الكتابة عن « المجمع اللغوى المأمول » ، وفى يوليه سنة ١٩١٦ م كتب فى المنار يقول : « طالما تشوقت أنفس أهل العلم

(١) المنار المجلد ٩ ص ٤٤٨ .

والأدب من المشتغلين بالتصنيف والإنشاء والترجمه بلسان العرب إلى إنشاء مجمع لغوى للتعاون على خدمة اللغة العربية بالطرق التى تقتضيها حال هذا العصر ، وطالما تحدثوا بهذا فى أنديتهم وأسمارهم ، وكثر ما هموا ولم يفعلوا ، وما أقدموا ثم أحجموا ، وما بدأوا ثم لم يثبتوا ، وقد كان عدم تيسر المكان اللائق بهذا العمل من الموانع العائقة » .

ثم يذكر رشيد أنهم فى احتفالهم بمرور أربعين سنة على مجلة « المقتطف » دارت مذاكرة فى شدة الحاجة إلى إنشاء مجمع لغوى ، وأن أحمد لطفى السيد مدير دار الكتب السلطانية ذكر أن أحمد زكى باشا كان قد اقترح عليه تخصيص مكان لذلك فى الدار ، وذكر لطفى السيد أن فيها مكانا لائقا كانت الصحف قد ذكرت أننا أعددناه لراغبات المطالعة من السيدات ، ولكن لايغشى الدار واحدة منهن .

وسر الجميع بذلك ، وتمنى رشيد أن يبشر قراءه قريبا بتأسيس هذا المجمع بالفعل [1] .

وفى « المنار » عدد ٣٠ يوليه (تموز) سنة ١٩١٧ م زف رشيد إلى قرائه بشرى تأسيس « المجمع اللغوى المصرى » بالفعل فى دار الكتب برياسة الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر الشريف ، وكان رشيد أحد أعضاء هذا المجمع منذ البداية ، ونشر رشيد قانون المجمع ، وأول مادة فيه تقول : « غرض هذا المجمع خدمة اللغة العربية ، وخصوصا وضع معجم واف بحاجة الزمن ،شامل اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات [2]

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص ١١٠ — ١١٥ .
(٢) المنار ، المجلد ٢٠ ص ٦١ — ٦٤ .

ولكن هذا المجمع لم يدم طويلا .

وفى أوائل سنة ١٩٢٢ م تألف مجمع لغوى برياسة إدريس راغب ، وكان رشيد رضا عضوا بارزا فيه ، ويظهر أنه انقطع عنه بعد قليل ، بدليل أننى وجدت بين أوراق رشيد رسالة تاريخها ٢٩ من يوليه سنة ١٩٢٣ م موجهة من رئيس هذا المجمع إلى رشيد يخبره فيها أن المجمع قرر بشأن طلب المعجبين برشيد عودته إلى المجمع ، عضوا عاملا فيه بالإجماع كما قرر ضمه إلى لجنة « الشرائع والقوانين » « ولجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية » .

ويقول رئيس المجمع فى رسالته إلى رشيد : « وإنى انتهز هذه الفرصة السعيدة فأعرب لكم عن عظيم سرورنا بعودتكم ؛ ومن فخر المجمع بانتسابكم إليه . ولنا فى فضلكم وعملكم وجليل مساعدتكم أعظم رجاء فى رفع مناره وإعلاء شأنه » .

ويفهم من رسائل رشيد إلى شكيب أرسلان أنه كان يمثل «الوسطية فى المجمع بين متشددين ومتوسعين ، يقول رشيد لشكيب بتاريخ ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٣١ م وهو يشير إلى مسائل لغوية :

« وأخبرك بأن هذه المسائل كلها قد كانت موضوع مناقشات طويلة عندنا فى المجمعين اللغويين اللذين ألفناهما هنا ، ولا سيما الأول : فقد كان من المتشددين فى المحافظة على النقل والقواعد حفنى بك ناصف ، والشيخ أحمد الاسكندرى ، ومن الواقفين على الطرف المقابل الدكتور صروف ، وكنت أنا والشيخ أحمد إبراهيم فى الوسط[1] » .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٦٢٣ .

وفى صيف سنة ١٩٢٥ م قرر المجمع العلمى العربى بدمشق ضم رشيد رضا إلى أعضائه ، وقد عثرتُ على رسالة خطية بتاريخ ٦ يوليه (تموز) سنة ١٩٢٥ من الأُستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى إلى رشيد تدور حول هذا الموضوع ، ونصها كما يلى :

« حضرة الأُستاذ العلامة الشيخ رشيد رضا المحترم » .

قدم أحد الأعضاء[١] لمجمعنا العلمى العربى فى جلسته العامة التى عقدت فى حزيران سنة ١٩٢٥ اقتراحا يتضمن انتخاب حضرتكم عضوا مراسلا فيه ، فتقرر بإجماع الآراء الموافقة على هذا الاقتراح ، لما تعهده فيكم من الخدم الجلى للعلم والآداب ، وما نشرتم من الكتب والآثار الممتعة باللغة العربية الشريفة .

وقد رأينا أن نشعركم بقرارنا لتتكرموا بإرسال ترجمة حياتكم الشريفة ، وصورة من صوركم الشمسية ، ومقالة فى الموضوعات التى يقع اختياركم عليها[٢] ، تطبع فى رسالة على حدة ، ثم تتلى فى جلسة عامة على الأعضاء ، وتوزع — يوم الاحتفال بقبولكم العضوية — هذه النسخ على الحاضرين ، كما هى سنة المجمع التى قرر مؤخرا العمل بها .

فإن صادف ذلك منكم قبولا أرجو الإجابة على ما قررناه ، لازلتم أنصارا للعلم والأدب سيدى .

١٥ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هـ — ٦ تموز سنة ١٩٢٥ م

رئيس المجمع العلمى

محمد كرد على

(١) يغلب على الظن أنه الشيخ عبد القادر المغربى .

(٢) فى رسالة خطية بتاريخ ١٤ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٢٥ يقترح الشيخ المغربى على رشيد أن تكون مقالته للمجمع عن مقصورة ابن دريد .

وحين أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م لم يكن محمد رشيد رضا من أعضائه ، مع أنه كان أهلا لذلك ، وقد دخل المجمع منذ بدايته أصدقاء لرشيد وزملاء شاركهم فى الجهود المبذولة لخدمة اللغة العربية . وهو لايقل عنهم جهدا ، إن لم يزد على بعضهم ، ومن هؤلاء : أحمد لطفى السيد ، ومحمد كرد على ، وأحمد الإسكندرى وعبد القادر المغربى ، وحسين والى .

مهما يكن من أمر فإن رشيدا لم يكن بعيدا عن الحركات المجمعية اللغوية الأولى ، بل كان سباقا فى الدعوة إلى إنشاء المجمع اللغوى، واشترك فى أكثر من مجمع أنشئ لخدمة اللغة العربية .

من آراء رشيد اللغوية :

يرى رشيد أن اللغة ملكة لسانية ، وأن الملكات إنما تكون بمزاولة العمل ، فمن زاول كلام قوم زمنا طويلا تصير لغتهم ملكة له ينطق بها بغير تكلف ، والملكات تتفاوت فى أفراد من تكون لهم[1] .

ويتسع أفق رشيد وتعمق نظرته اللغوية حين يقرر أن للألفاظ دُوَلاً كدول الأشخاص ، يعز بعضها فى زمن ، ويذل فى زمن آخر ، إذ تدول العزة إلى غيره[2] ، وكأنه يريد بذلك أن الحظ يواتى لفظا فتتداوله الألسنة ، وتكثر الأقلام من استعماله ، ثم يخمد ذكره فيقل استعماله ويأفل نجمه ، على حين يسطع نجم لفظ آخر أو ألفاظ

(١) المنار ، المجلد ٦ ص ٧٨٤ .

(٢) المنار ، المجلد ٧ ص ٦٢٠ .

أخرى ، فإذا تردد لفظ فى الاستعمال صار مأنوسا معروفا ، وإذا قل استعمال لفظ أصبح غريبا ، وتختلف الألفاظ وضوحا وغموضا بالنسبة إلى الناس باختلاف استعمالها وإهمالها .

ورشيد دقيق النظرة اللغوية حين يلاحظ أن الألفاظ تتطور معانيها وتتغير ، ومن أمثلة ذلك أنه كتب مقالا بعنوان « اصطلاحات كتاب العصر [1] » يورده عقب افتتاحية أورد فيها كلمات : الطبيعة ، الطبيعى ، النواميس الطبيعية ، قوى الطبيعة ، الكفر .

ويقول فى أول المقال : « من القضايا المسلمة أنه لامشاحة فى الاصطلاح ، ولا مندوحة عن مراعاة مايتواطأ عليه الجمهور ومجاراة الناس على مايصطلحون عليه فى كل زمان ومكان » .

ثم يشير إلى أن أهل العصر قد استعملوا ألفاظا لغير ماتدل عليه فى أصل اللغة ، أو فى عرف العصور السالفة ، ثم يشرع فى تحديد المراد بالألفاظ السابقة فى عصره ، فيذكر أن كلمة « الطبيعة » معناها فى اللغة هو الخلقة أو الفطرة ، ولكن السابقين استعملوها بمعنى الهيئة التركيبية ، أو المزاج الخاص بالبدن ، أو القوى المدبرة . . . إلخ .

ثم يقول : « وأما لفظ (الطبيعة) اليوم فهو كثير الدوران على ألسنة الكتاب فى الفنون العلمية والأدبية ، حتى الشعراء المترسلين ، ويجرونه على معناه اللغوى ، وهو المخلوقات أو الحالة التى هى عليها » .

---

(١) المنار ، المجلد الأول ص ١٤ — ١٩ .

ويتحدث عن كلمة « الطبيعى » ويشير إلى أنها تستعمل فى عصره بمعنى مقابل « الصناعى » ويورد معانى أخرى لكلمة « الطبيعى » قديما . ويتحدث عن « النواميس الطبيعية » ، ويرى أن الناموس ، محرف عن كلمة « نوس » اليونانية بمعنى الشريعة ، ويذكر أن كثيرين يقولون « شريعة الطبيعة » و « الشرائع الطبيعية » . ويرى أن يترجم لفظ « نوس » بالسنة ، فيقال : « سنة الطبيعة » ، وقد يعتاض عن هذا بكلمة « سنة الكون » أو « السنة الإلهية » .

ويحدد معنى « القوى الطبيعية » بأنها « عبارة عما تسند إليه الآثار الطارئة على الأجسام من حركة أو سكون » .

ويتعرض رشيد للتطور اللغوى الاستعمالى الذى طرأ على كلمة « الكفر » ، ويرى أنها كانت تطلق بمعنى الستر ، ثم على المخالفة مطلقا ، ثم استعملت للذم والسب ، ثم أطلقها البعض على المخالفة فى الدين ، ثم صارت تطلق على الملاحدة ، واندعه يصور لنا هذا التطور بعبارته حيث يقول :

« وأما لفظ الكفر فيطلق فى عرف الكتاب اليوم على الملاحدة كما ألمحنا إليه فى عرض كلامنا آنفا ، فمهما أطلقنا لقب الكافر أو اسم الكفر فى كلامنا فنريد به ماذكرنا ، ولا نطلقه على المخالفين لنا فى الدين من أصحاب الملل الأخرى ، لأنهم ليسوا كفارا بهذا المعنى . بل نقول بعدم جواز إطلاقه عليهم شرعا ، لأنه صار فى هذه الأيام من أقبح الشتائم ، وأجرح سهام الامتهان ، وذلك مما تحظره علينا الشريعة باتفاق علماء الإسلام .

ولا يصدنك عن قبول هذا القول إطلاق ماذكر فى العصر الأول للملة على كل مخالف ، فإنه لم يكن فى زمن التشريع يرمى به لهذا الغرض ، بل كان من ألطف الألفاظ التى تدل على المخالف من غير غمزة ولا ازراء ، فضلا عن إرادة الشتم والإيذاء المخالفة لمقاصد الدين وآدابه .

ذلك أن معنى الكفر فى أصل اللغة الستر والتغطية ، وكانوا يسمون الليل كافرا ، لأنه يغطى بظلامه الأشياء ، وأطلقوا لفظ الكافر على طلع النخل وأكمام النور (الزهر) لما ذكر ، وعلى البحر لأن الشمس تغيب فيه بحسب الظاهر ، وعلى ثوب كانوا يلبسونه فوق الدرع يقولون له كافر الدروع ، وقد سمى القرآن العظيم الزراع كفارا ، كما هو المشهور فى تفسير قوله تعالى : (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) ، وأمثال هذا فى اللغة كثيرة .

ويظهر منها أن حقيقة الكفر تغطية المحسوس بالمحسوس ، ثم أطلق على من لم يذعن للدين ، ومن لم يشكر النعمة تجوزا . وكل مانقل من العبارات المستعملة من هذه المادة يومئ إلى ماذكرنا (راجع الأساس وغيره) .

وحيث قد اختلفت الحال وتغير الاستعمال فلا ينبغى إطلاق اسم الكفر على صاحب دين يؤمن بالله » .

ولا أتعرض هنا لبحث الموضوع من الوجهة الفقهية ، ولكنى أستشهد بالنص لأبين أن رشيدا كان يلاحظ مايعرض للفظ من أطوار فى الاستعمال .

ويعود رشيد إلى الحديث عن «اصطلاحات كتاب العصر[1]»، فيتكلم عن كلمة «التعصب» بادئا بذكر معانيها فى أصل اللغة، فيذكر أن مادتها تدل على اللىّ والشد وضم المتفرق، وأن العصبة قرابة الرجل وقومه، وأن التعصب ميل أفراد العصبة بعضهم إلى بعض وتشددهم فى المدافعة عمن يتصل بهم بجامعة العصبية التى كان مناطها عند العرب القرابة والعشرة.

ثم يذكر أن كلمة «التعصب» لم تكن تطلق على التشدد فى الدين والغلو فيه، بل كانت العرب تسمى هذا تحمسا، ولكن كتاب هذا العصر أخذوا يطلقون كلمة «التعصب» على الإفراط فى التشدد فى الدين إلى درجة يؤذى بها المتعصب مخالفه فيه، واستحسن رشيد أن يسمى هذا «تحمسا».

ويذكر أنهم أيضا يطلقون كلمة «التعصب» على الميل للجنس والإفراط فى الحماية له.

وهكذا أخذ السيد محمد رشيد رضا منذ سنة ١٨٩٨ م يبذل جهدا فى تتبع الأطوار التى تمر عليها الكلمة فى الاستعمال والدلالة، وهذا يذكرنا بما حاوله اللغوى العربى الأب أنستاس مارى الكرملى[2] من تتبعه الأطوار التى تمر بها بعض الكلمات، مثل كلمة «المال» التى

---

(١) المنار، المجلد الأول، ص ٦٦.

(٢) هو بطرس جبرائيل يوسف عواد، ولد ببغداد سنة ١٨٦٦ م ورسم كاهنا باسم الأب أنستاس مارى، وتوفى سنة ١٩٤٧، وله كتب لغوية كثيرة وهو من أوائل الأعضاء فى مجمع اللغة العربية، (مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما ج ٢ ص ٥١).

كانت تدل على الأرض ، ثم انتقلت إلى معنى ماينبت على الأرض ، ثم أطلقت على الحيوان الذى يرعى ماينبت على تلك الأرض ، ثم انتقل المال إلى معنى العبد والأمة ، ثم انتقل إلى معنى كل شىء يقتنى ، ثم انتقل إلى معنى النقد[1] .

وإن كنت ألاحظ أن جهد الأب أنستاس أكبر فى هذا المجال من جهد السيد رشيد ، ولا غرابة فى ذلك فالكرملى قد خصص أغلب جهوده للبحوث اللغوية .

ونلاحظ عند رشيد رضا اللغوى أنه حين يتتبع ماطرأ على الكلمة من تغير أو تطور يحاول أن يربط بين استعمال المتقدمين لها واستعمال المتأخرين ، فهو مثلا يتعرض لكلمة « وظائف[2] » ، وهى جمع «وظيفة » بمعنى العمل فى الحكومة ، فيذكر أنها من الاستعمال المولد ، لأن أصل الوظيفة من الشىء مايقدر له فى كل يوم من رزق أو طعام أو شراب ، أو علف للدواب ، ويقال : وظفه توظيفا ، أى ألزمه الوظيفة ، وقد وظفت على الصبى كل يوم حفظ آيات من كتاب الله عز وجل .

ثم يقول رشيد : «فإطلاق أهل العصر (الوظيفة) على أعمال الحكومة له وجه وجيه » .

* * *

(١) النقود العربية ، ص ١٥٢ — ١٥٤ . وقد طبع الكتاب سنة ١٩٣٩ .

(٢) المنار ، والمجلد ١٠ص ٥٩٦ .

بين القياس والسماع :

من طريقة رشيد رضا اللغوية أنه لايجنح إلى التأويل لتصحيح الاستعمال للكلمة إذا لم تكن مسموعة من العرب الأوائل ، وهو يرى أن « نقتصر على مايصح بالنقل الواضح وبالقواعد المعروفة فقط[1] ».

وهو يوجب على كل كاتب أن يتبع أئمة اللغة وفنونها فيما قرروه ، فلا يقيس على السماعى ، ولايخرج فى القياس عن حدوده ، ولايدخل الكلمات العامية فى كتابته إلا ماكان منها عربى الأصل ، لأن أكثر كلام العوام فيه تحريف يسهل تصحيحه .

وإنما يجب ذلك لأن التساهل وترك الأمر فوضى للكاتبين بدعوى العناية بالمعانى ، مما يفسد اللغة ، ويجرىء الجهلاء والضعفاء على الإكثار من الغلط والدخيل ، ويثنى همة غيرهم عن التحصيل والإتقان[2] .

وإذا كان هناك بعض الكبار من العلماء قد خرجوا على القياس المقرر فى كتب اللغة وفنونها ، فرشيد لايرى الاقتداء بهم ، حيث لايصح أن تطلق الرخصة فى ذلك ، تجنبا لوقوع الفوضى فى اللغة مما يفضى إلى إضاعتها .

وهنا يرى رشيد أن تقرير مايصح من القياس ومالايصح يجب أن يناط بمجمع لغوى ، لتكون هناك قاعدة مضبوطة يرجع فيها إلى أصل[3]

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٦١٨ .
(٢) المنار ، المجلد ٩ ص ٥٣٠ .
(٣) السيد رشيد رضا ، ص ٦٣١ .

ومع أن رشيدا يميل إلى مخالفة المتقدمين فى بعض ماقالوا إنه سماعى ، نجده لايجيز لنفسه الانفراد بذلك واستعماله لغير ضرورة ، ويتمنى أن يوفق الله علماء هذه اللغة لتأليف جمعية تنهض بهذا العمل[1] . وهو يقصد بالجمعية هنا المجمع اللغوى .

ولقد جرى خلاف بين رشيد رضا وشكيب أرسلان حول جمع كلمة «مكتوب» فشكيب يجيز جمعها على «مكاتيب» ، ويستند فى ذلك إلى أن كثيرين من كتاب العرب تسامحوا فى هذا الجمع ، وأن العرب قد قالت : مشائيم فى جمع مشئوم ، وأن الأستاذ مصطفى جواد اللغوى العراقى يرى أن جمع مفعول على مفاعيل لما لايعقل جائز مطلقا[2] .

أما رشيد فيجمع كلمة (مكتوب) على (مكتوبات) ، لأن هذا هو المسموع ، ولم يسمع من العرب الخلص جمع (مكتوب) على (مكاتيب) .

وإذا كان جمع مفعول على مفاعيل سماعيا لاقياسيا ، فسواء أقل المسموع منه أم كثر ، لايستعمل منه إلا ماسمع ، ورشيد لم يجد فى كتب اللغة ولا فى استعمال الفصحاء من المتقدمين استعمال كلمة «مكاتيب» جمعا لكلمة «مكتوب[3]» ، ولكنه يخضع لقرار المجمع اللغوى إذا جعل جمع مفعول على مفاعيل قياسيا .

---

(١) المنار ، المجلد ٩ ص ٥٣٣ .

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ١١٩و١٢٠ .

(٣) السيد رشيد رضا ، ص ٥٤٩ .

والحق هنا فى جانب رشيد ، لأنه يوافق المأثور من قواعد العربية من جهة ، ولأنه من جهة أخرى يغار على اللغة العربية ، ويخشى إذا فتح هذا الباب أن يتسع الخَرق على الراقع ، فتأتى الفوضى فى اللغة ، وشكيب الذى خالف رشيدًا فى هذا الجمع قد قال إن الصواب ماقاله رشيد من جمع المكتوب على المكتوبات[1] .

وينبغى ألا يتوهم متوهم من موقف رشيد هنا أنه يريد تجميد اللغة أو تضييق مجالها ، لأنه فى الواقع لا يمنع التوسع المعقول فى الاشتقاق عن طريق القياس وفى إضافة الثروة المناسبة إلى اللغة ، فهو مثلا يذكر كلمة « أبر » الرجل الكلب — كنصر وضرب — أى أطعمه الإبرة فى الخبز ، ثم يقول :

« وهكذا كانوا يشتقون من الأسماء الجامدة ما تعرض له الحاجة . ويجب أن يكون هذا مقيسا ، كما هو مقتضى الطبع فى كل لغة حية . ومنها لغة العامة ، فإنهم يشتقون بالسليقة من غير تكلف ولا مواضعة .

يبدأ باشتقاق الكلمة من تعرض له الحاجة إليها ، من غير أن يفكر أنه زاد فى اللغة كلمة أو كلمات ، ويسرى ما يشتقه بين الناس كأنه قديم لا يلتفتون إلى حدوثه ، ولا يسندونه إلى أول من تكلم به[2] » .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ١١٩ .

(٢) المنار ، المجلد ١٠ ص ٣٨٤ .

فهو يجرىء هنا على إعطاء اللغة حياة عن طريق التوسع فيها حسب الحاجة ، وينبغى — حسب شرط رشيد — أن يكون هذا بارتضاء المختصين بالبحوث اللغوية .

ومن مظاهر الحيوية اللغوية عند رشيد أن نجده يقول من رسالة له إلى الشيخ جمال الدين القاسمى بتاريخ ١٥ من شعبان سنة ١٣٣١هـ : « ... تلك المعاملة التى يجوز له — أطال الله حياته — أن يسميها (ولْدَنَةً) أو (تَوَلْدُناً) أو ما شاء ... » .

ومن مظاهر هذه الحيوية ما نلمحه فى قوله :

« أردت أن أكتب : (هذا معقول مقبول) ، ومن العادة أن أرسل ما كتبته إلى المطبعة من غير أن أقرأه ، ثم أصححه بعد جمع المطبعة له : فلما عرض علىّ هذا لتصحيحه رأيت كلمة : (معقبول) فعلمت أنى نَحَتُّ من الكلمتين كلمة واحدة بغير شعور ؛ ولسبق القلم فى مثل هذا سبب نفسى ليس هذا بيانه .

وكلمة (معقبول) جديرة بالاستعمال إذا قررت مجامع اللغة جعل النحت قياسيا للحاجة إليه فى هذا العصر[1] » .

وهكذا نجد رشيدا فى طريقه اللغوى يمشى معتدلا ، فهو لا يقبل الفوضى فى اللغة ، وهو لا يرتضى الجمود فيها ، ونلمح مما سبق أنه كان يعلق أكبر الآمال فى إصلاح اللغة وإحيائها على المجامع اللغوية .

* * *

(١) تفسير المنار ، ج ٨ ص ٥١٣ ومجلة المنار ، المجلد ٢٤ ص ٦٥٥ .

القرآن معجمه الأساسى :

نفهم من كتابة رشيد أنه كان يرجع إلى جملة معاجم منها : القاموس المحيط للفيروز أباوى ، وشرحه للزبيدى . ولسان العرب لابن منظور ، وأساس البلاغة للزمخشرى . والتهذيب للأزهرى ، والمصباح الفيومى ، والمخصص لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبى [١] .

واقد بدأ رشيد منذ فتوته يراجع ما يريد فى « المصباح المنير » ولعل هذا أكسبه بصرا بتحديد المصطلحات الفقهية ، لعناية صاحب المصباح بهذا الجانب من معانى الكلمات ، ثم أخذ رشيد يقوى فى الثقافة اللغوية بصورة لم يفته أن ينوه بها حيث قال :

« وكنت أراجع مالا أفهمه من اللغة فى المصباح المنير ، وأنا لا أعلم من علم الصرف شيئا ، ثم عُرفت بسعة الاطلاع فى اللغة ، فكان أستاذنا الجسر يسألنى عن بعض الغريب فى بعض مجالسه الخاصة حيث لا توجد معاجم يراجعها .

واتفق أنه لم يسألنى عن شىء إلا وكنت عالما به ، وإنما أذكر هذا فى هذه الترجمة للترغيب فيه ، فالاطلاع على اللغة ضرورى ، وسبيله المراجعة عند الحاجة ، وكان لى من سليقة اللغة أننى قلما كنت ألحن فى قراءتها [٢] ».

ويذكر رشيد أن أستاذه بالمدرسة الوطنية « توفيق الأيوبى » طلب إلى رشيد وإلى زميله سعيد كرامة وعبد الغنى الأدهمى أن يطالعوا فصلا

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٢٠٢ و ٤٠٣ . والمنار والأزهر ، ص ١٤١ .

(٢) المنار والأزهر ص ١٤١ .

من كتاب « غرر الخصائص » للوطواط. ثم شهد الأستاذ لرشيد بأنه أصح منهما قراءة ، مع أنهما كانا يعرفان النحو منذ سنين ، على حين لم يتلق رشيد منه إلا القليل.

ولما سمع الشيخ عبد الكريم عويضة أول لجنة من رشيد – بعد تلقى الكثير من النحو – قال لرشيد : إنى أرى أن النحو يفسد عليك سليقتك[1] !.

ومع كثرة المعاجم التى رجع إليها رشيد كان يجعل القرآن الكريم معجمه الأول ، فإذا قال القرآن أو عبر ، فلا كلام بعد لمعجم ، وهذا رشيد يحاور صديقه شكيبا حول كلمة « أودية » فيقول رشيد : وحسبى أن كلمة أودية هى استعمال القرآن ، وإن زعم الجوهرى أنه جمع غير قياسى[2] » .

فكلمة « الوادى » يجوز جمعها على « الوديان » كما ذكر ذلك صاحب شرح القاموس فى استدراكه على الأصل ، ومع ذلك يؤثر رشيد جمعها على « الأودية » لأن القرآن قد استعمل الجمع كذلك ، فى قوله فى سورة الرعد : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها »

ويقول رشيد لشكيب وهو يذكر طائفة من أخطائه اللغوية : « فمنها قولك فى خونة الغرب ثم الشرق » (خزاهم الله) ، والمعروف فى القرآن وغيره ، خزى فلان خزيا ، وأخزاه الله[3] .

---

(١) المنار والأزهر .

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٦٠١.

(٣) السيد رشيد رضا ، ص ٥٧٨ .

فرشيد هنا يجعل القرآن الكريم فى طليعة ما يستند إليه ،والقرآن لم يستعمل الفعل من مادة « الخزى » إلا ثلاثيا لازما . كقوله فى سورة طه : (من قبل أن نذل ونخزى) . أو رباعيا متعديا كقوله فى سورة آل عمران : (ربنا إنك من تُدخِلِ النَّار فقد أخْزَيته) وقوله فى سورة هود : (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) . . . الخ [١] .

ويعود رشيد فيحدث صديقه أمير البيان عن أخطائه ، فيقول له : « ومنها قولك : (الرجوع للقرآن) : والقرآن يعدى هذا الفعل بإلى وهو مكرر فيه كثيرا [٢] ،فيجب جعل الرجوع إليه بلغته ، ولقد راجعت شيخنا [٣] مرة فى كلمة فعل (نصح) استعمله فى مقال له متعديا بنفسه فقلت له : ورد فى اللغة نصحه ونصح له ، والثانى هو استعمال القرآن فكيف ترى ؟ .

قال : صححها فإنى لا أخالف القرآن ولو إلى صواب [٤] » .

* * *

ومادام حديث المعاجم قد لقى مجالا هنا فقد يكون من المناسب أن أعود فأذكر أن السيد محمد رشيد رضا كتب فى سنة ١٩١٢ م ما يفيد الدعوة إلى « المعجم اللغوى المصور » ؛ حيث تعرض لحكم التصوير

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٣١ .

(٢) استعمل القرآن فعل « رجع » و « يرجع » و « ارجع » متعديا بإلى فى أكثر من خمسين موضعا . انظر المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

(٣) يقصد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

(٤) السيد رشيد رضا ، ص ٥٧٩ . وقد ورد فى القرآن قوله : « ونصحت لكم مرتين فى سورة الأعراف .

الشمسى فى الإسلام ، ثم قال : « للتصوير الشمسى – ولغير الشمسى – منافع فى هذا الزمان كثيرة. فى العلوم كالطب والتشريح والتاريخ الطبيعى ؛ وفى الصناعات ، وفى السياسة والإدارة والحرب ، وفى اللغة ، فإن كثيرا من أسماء النبات والحيوان لا تعرف مسمياتها فى اللغة العربية ، لعدم تصويرها ، وكتب اللغة لا تزيد فى تعريفها على كلمة (نبات م) و (حيوان م) أى معروف .

وما كل معروف عند أناس يكون معروفا عند غيرهم ، ولا كل معروف فى زمن يبقى معروفا فى جميع الأزمنة ، إلا إذا اتصلت سلسلة العلم به . وكان العلم مقرونا بالعمل والتطبيق .

ثم إن نقل الأسماء من قطر إلى آخر سهل ، وقد يكون نقل المسميات متعذرا أو عسرا ، كنقل الأسد إلى القطب الشمالي ، أو نقل القط والدب الأبيض إلى خط الاستواء ؛ ولكن نقل صورة هذه المسميات سهل[1] .

وهذا الاتجاه من رشيد فى ذلك الوقت المبكر يدل على بصر بوجوه الإصلاح اللغوى .

* * *

شرح المفردات

من المظاهر اللغوية فى كتابة رشيد أنه – فى كثير من الأحيان – يستعمل مفردات تحتاج إلى شرح ، أو يحسبها تحتاج إلى شرح ، ثم يتبعها بشرحها فى صلب الكلام بين قوسين ، وحسبى هنا أن أورد

---

(١) المنار ، المجلد ١٥ ص ٩٠٤ عدد ٩ ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩١٢ .

أمثلة على ذلك أخذتها كلها من المجلد الأول من مجلة « المنار » ولها أشباه ونظائر فى غير هذا المجلد ، وهذه هى الأمثلة :

١ – « ولا تنشأ فيه الحانات والمواخير (أى مواضع الريبة) ... » ص ٥٨ .

٢ – « وتهذار وهذيان (كلام لا يعقل ولا يفهم كالذى يصدر من المريض) . . » ص ٨٢ .

٣ – « أما والله لقد طاشت سهامهم : وامتلخت أحلامهم (انتزعت عقولهم) . . » ص ٨٥ .

٤ – « والتكهن (الإخبار عن شئون الإنسان الخفية الماضية ، والمستقبلة) . . » ص ٩٧٠ .

٥ – « من الرجال وفنذوك النساء (أى مجونهما) . . » ص ٩٨ .

٦ – « فأنى يمكن بقاء هذا الهذر والخطل والكلام المعسلط (الذى لا نظام له) . . . . » ص ١٢٦ .

٧ – « لكن صاحب المؤيد الأغرأغرق (بالغ) . . » ص ٣٣٠ .

٨ – « الجهل والغباوة والتوكل والتناوة (ترك المذاكرة والمدارسة) . . . » ص ٣٤١ .

٩ – « التمكن من إنشاء نواشط (جمع ناشط وهو الطريق ينشط يخرج من الطريق الأعظم يمنة ويسرة) . . . » ص ٣٤٩ .

١٠ – « وابلا عاما غدقا (كثيرا) . . » ص ٣٨٥ .

١١ – « وسائر ما أسأره (أبقاه) . . » ص ٣٨٩ .

١٢ – « وقد بعث كاتب سر الجمعية (السكرتير) . . » ص٣٩١

١٣ – « كما يفعل المتطرزون (المتأنقون فى الملبس) » . ص ٤٠٢

١٤ – « شأن المتنوقين والمتورنيس (المبالغين فى التنعم والتطيب) . . . » ص ٤٠٢ .

١٥ – « ولنبدد جيوش الأسى بالأسى (جمع أسوة) . . » ص ٤٥٧ .

١٦ – « عدة شهداء من أفراطنا (أجدادنا) . . » ص ٤٥٨ .

١٧ – « واظلوا يرسفون رسفان (مشى المقيد) . . » ص ٥٨٧ . . الخ .

* * *

وألاحظ على هذه العادة طائفة من الملاحظات :

١ – لاشك أن هذه الكلمات المفسرة تدل على اطلاع لغوى واسع واستعمال الكثير منها يدل على جهد كبير يبذله رشيد فى البحث عن الكلمة أو على الأقل فى تهيئة المكان المناسب لها ، وتذكرها عند مجيء وقتها ومكانها .

٢ – وضع هذه الشروح فى صلب الكلام يشغل القارىء بها ، ويعوقه بعض الشيء عن متابعة الموضوع الذى يطالع فيه ، ولو وضعها رشيد فى الهوامش لجمع بين الفائدتين : الأولى تزويد القارىء بمعانى الكلمات الغريبة التى استعملها رشيد ، والأخرى عدم تعويقه عن متابعة المطالعة .

٣ — فى الوقت الذى يفسر فيه رشيد بعض الكلمات الغريبة يترك مثيلات لها أو ما هى أشد منها غرابة ، دون تفسير ، ومن أمثلة ذلك أنه قال : « ووقفت الأرجل عن السعى حتى كأنها مقطورة (أى محبوسة فى المقطرة ، وهى خشبة مثقوبة توضع فيها أرجل المحبوسين) . . » .

وفى الصفحة التى وردت فيها هذه العبارة[1] ذكر رشيد الكلمات التالية وتركها دون تفسير : « الجياد القرح — الزرابى — الماعون — تذفيف على جرح الأمة — بقية وشل » .

والقرح جمع قارح ، وهو ما انتهى سنه من الدواب ، والزرابى جمع زربى بكسر فسكون وهو كل مابسط واتكئ عليه ، والماعون كل ما انتفعت به ، والتذفيف الإجهاز على الجريح والوشل الماء القليل الذى يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره ، أولا يكون إلا من أعلى الجبل ، ويطلق الوشل أيضا على الماء الكثير ، فهو من الأضداد[2] .

وبعد صفحات من النص السابق نرى رشيدا يقول : « وبماذا يكون ترميج (إفساد السطور المكتوبة) ما سطر فى ألواح النفوس من الخرافات » . وبعد هذا بسطور معدودة يقول :

« فتتحول نفقات الأفراح والأحزان من الولائم والوضائم وما يتبعها إلى التعليم والتربية[3] . « ويترك كلمة الوضائم » دون تفسير ، وهى جمع لكلمة « الوضيمة » والوضيمة هى طعام المآتم كما ذكر الزمخشرى فى « أساس البلاغة » .

* * *

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٣٧ .

(٢) أنظر القاموس المحيط . (٣) المنار ، المجلد الأول ، ص ٣٩ .

ويبدو لى أن رشيدا قد كسب هذه العادة ــ عادة شرح المفردات فى أثناء كلامه ــ من كثرة مراجعته كتب اللغة ومعاجمها ، فهذه المراجعة الكثيرة هيأت له ثروة لغوية كبيرة دفعته إلى الانتفاع بها فى كتابته ، فاستعمل ألفاظا كانت مغمورة أو مطمورة ؛ فأسهم بذلك فى حركة الإحياء اللغوى التى بدت تباشيرها على عهده .

وقد أكسبته هذه الثقافة اللغوية أيضا دقة فى التعبير وتفننا فيه أحيانا ، كقوله : « وصعود بعض الأمم أعلى درجات الارتقاء ، وهبوط بعضها إلى أسفل درك الانحطاط ؛ ووقوف البعض بين بين » فإلى جوار المقابلة الموجودة فى العبارة نجد أنه استعمل كلمة « درج » مع الصعود ، وكلمة « درك » مع الهبوط .

وهذه تفرقة لغوية لا يلتفت إليها الكثير . فقد جاءت كلمتا « درجة » و « درجات » فى القرآن الكريم مرات كثيرة ، وكلها تدل على الارتفاع الحسى أو المعنوى . وجاء فى « معجم مقاييس اللغة » لابن فارس أن الجنة درجات والنار دركات ، ولذلك قال القرآن الكريم : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ، وقال « القاموس » إن الدرجات هى الطبقات من المراتب ، وجاء فى «أساس البلاغة » : استدرجه رقّاه من درجة إلى درجة ، ومن المجاز قولهم : لفلان درجة رفيعة ، وامش فى درجات الحق ، وعليك بالنحو فإنه مدرج البنيان ، ويقال درّجه[1] إلى هذا الأمر ، أى عوده إياه ، كأنما رقاه من منزلة إلى منزلة .

---

(١) بتشديد الراء المفتوحة .

وقد جاء فى « القاموس المحيط » أن الدرك ـ بفتح الراء ـ هو أقصى قعر الشيء ، وجاء فى « أساس البلاغة » : بلغ الغواص درك البحر ، وهو قعره . ومنه درك النار .

* * *

وهذه الثقافة اللغوية عند رشيد عودته أيضا النقد اللغوى والتدقيق فيه . فهو يقرأ عبارة للأستاذ محمد فريد وجدى يقول فيها : « ثم لما اتسع نطاق العمران ، واستدعت الأحوال تدوين شريعة كاملة لجميع الأصول والفروع . اقتضت الحاجة أن ينبغ المشرعون الأولون من المسلمين كالأوزاعى . والشعبى ، وسعيدبن المسيب ، وأبى حنيفة ، والشافعى ومالك ، وأحمد » .

فيعلق رشيد على العبارة بقوله : « هؤلاء لم يكونوا إلا رواة للحديث ومستنبطين منه ومن الكتاب . أى مبينين ما يفهمونه منهما للناس ، وناقل الشريعة ومفسرها لا يسمى شارعا ولا مشرعا ، كما تقول الجرائد الآن ، وإنما الشارع والمشترع (أو المشرع) هو واضع الشريعة ، ويطلق الشارع فى كتب المسلمين على الله تعالى ، لأنه واضع الشرع ، وعلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه مبينه على الله تعالى ، ولم يعرف إلا منه[1] » .

وهذا التتبع اللغوى الناقد يقوم به رشيد مع نفسه ، فهو فى العدد السادس من المجلد الأول من « المنار » يقول : « والذى نستلفت إليه

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ٣٧٦ .

أنظار هذا الفريق » ، ولما أعاد طبع هذا المجلد علق على كلمة «نستلفت» بقوله فى الهامش : « لم تسمع هذه الصيغة ، وورد لفته عن رأيه كضرب: صرفه[١] » .

وهو فى بحثه عن « مناسك الحج » يقول : فنجمع بهذا الذكر بهذه الكيفية بين سنة إبراهيم الذى أقام الدين الحق فى هذه المعاهد وبين التعهد لله تعالى[٢] » ولكنه حينما نشر هذا البحث فى كتاب ، قال : « بهذه الصفة » بدل « بهذه الكيفية[٣] » .

وما دام الأمر كذلك عند رشيد فلم لا يتتبع شيوخه وأساتذته ؟. فهو مثلا يورد عبارة لجمال الدين الأفغانى يتحدث فيها عن ضعف الشرقيين ، وهى : « واستبدالها بما أوقعهم فى ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها أبدا » .

ويعلق رشيد عليها بقوله : « استعمل (استبدل) هنا بما هو شائع عند المتأخرين عامة ، والذى فى القرآن العزيز أن الباء بعد استبدل وتبدل تدخل على المبدل منه ، لا على البدل ، فليتنبه له الكتاب[٤] » .

وفى سنة ١٩٠١ م أرسل شيخ الأزهر خطابا إلى وكيل الداخلية فى مصر بشأن اعتداء وقع من رجل نمسوى على مؤذن[٥] ، ووقع فى

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ١٠٠ .
(٢) المنار ، المجلد ١٦ ص ٦٨٢ .
(٣) مناسك الحج ، ص ٣٩ .
(٤) المنار ، المجلد ٣ ج ٢٥ عدد ٤ نوفمبر ١٩٠٠ .
(٥) المنار ، المجلد ٤ ص ٥٥١ — ٥٥٥ .

الخطاب أخطاء لغوية ونحوية ، فحرص رشيد على نشرها فى المنار وتصحيحها ، ومع أنه قال إنه من المحتمل أن كاتبا كتب هذا الخطاب ووقع عليه شيخ الأزهر : نجد طريقة النقد تدل على أن لرشيد غرضا من وراء تتبعه لهذه الأخطاء .

ومن هذا القبيل أن رشيدا يعود بعد حين فينقد تقريرا كتبه الشيخ محمد شاكر عن الدراسة فى معهد اسكندرية الدينى ، فيخطئه فى نحو عشرين كلمة ، ثم يقول : « فى تساهل العلماء بإيراد المفردات والأساليب العامية ؛ ووضع الكلم فى غير مواضعه جناية على اللغة لأن الناس يقلدونهم فيما يكتبون [1] » .

ولا يكتفى رشيد بتلقف مثل هذه الكلمات من كتابة معاصريه والتخطئة لها ، بل يتتبع السابقين بنقده أيضا ، فهو مثلا يذكر قصيدة للشريف الرضى ، وفيها قوله عن النساء الراميات للجمرات ، الذابحات للأضحيات :

ألعقر القلب راحوا أم لعقر البدنات ؟ .

ثم يعلق على هذا البيت بقوله : « ذكر ضمير (راحوا) وقلما يأتى فى الفصيح إلا لنكتة ، كتذكيره فى السلام على امرأة إبراهيم صلى الله عليه وسلم فى سورة هود [2] ؛ وإردة إذهاب الرجس عن نساء

---

(١) المنار ، المجلد ٨ ص ٩١٦ .

(٢) يقصد رشيد قوله تعالى : « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد » . وقد علق كتاب « الفتوحات الالهية » — وهو حاشية الجمل على تفسير الجلالين — على هذه الآية بقوله : « قوله : عليكم ، خطاب لها وله » ج ٢ ص ٤١١ .

النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب[1] ، لشمول الخطاب للخليلين في الخطابين » .

ثم أراد رشيد أن يعتذر عن الشريف فقال عقب ذلك : « ولعل الشاعر هنا يعني أنهن يخرجن مع رجالهن[2] » .

ورشيد لايسلم لغيره بنقده في سهوله ، بل هو يدافع عن رأيه في حرص وقوة ، مع أن لديه شواغل كثيرة لاتهيئ له الكثير من الفرص التي يتفرغ فيها للمساجلات اللغوية ، ولعل كتاب « السيد رشيد رضا » الذي يعمر برسائل رشيد إلى شكيب أرسلان خير ما يعطينا صورا واضحة لجدل رشيد اللغوى ، وقد قدمت نماذج منه .

ولقد كتب رشيد ذات يوم كلمة « التهويش » بمعنى الخلط ، في مقالة لمجلة « المنار » وكان في الآستانة . وكان أخوه حسين وصفى رضا يشرف على المجلة حينئذ ، فحذف حسين كلمة « التهويش » ووضع مكانها كلمة « التشويش » ، فكتب إليه رشيد رسالة بتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٢٨ يقول فيها :

« ومما وقعت عليه عيني بالمصادفة كلمة (التهويش) ، فعلمت أنك صححت بها كلمة (التشويش) . وإني أكتب هذا عالما منذ سنين بزعم صاحب القاموس أن الجوهري أخطأ فيها وأنها من كلام العامة[3] .

---

(١) يقصد رشيد قوله تعالى وهو يخاطب نساء النبي : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

(٢) المنار ، المجلد ٢٠ ص ٣٢٠ .

(٣) في القاموس : « والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ، ووهم الجوهري ، والصواب التهويش » .

وإنما المخطئ فيها مجد الدين [1] ؛ ولا أحب كلمة (التشويش) ، وإن كانت تجىء بمعناها ، ولعل سبب نفرتى منها استعمال عامتنا لها بمعنى إغراء الكلاب ؛ وهو استعمال عربى أيضا .

وقد تذكرت بهذه الكلمة ضبطك كلمة الغزالى بالتشديد عدة مرات فى السنة الماضية أو التى قبلها ؛ وهو خلاف ما كنت حققته أنا فى أول ترجمته [2] » .

* * *

لغويات رشيد وشكيب :

فى الجزء الأول من كتابى « أمير البيان شكيب أرسلان » تحدثت عن « شكيب اللغوى » وعقدت فصلا بعنوان « بين شكيب ورشيد [3] » عرضت فيه لما كان من مساجلات لغوية بين الرجلين . وكان نصيب شكيب فى هذا الفصل أكثر من نصيب رشيد . وهنا أعقد فصلا عن « لغويات رشيد وشكيب » نرى فيه جانباً من جوانب الثقافة اللغوية عند رشيد ؛ وإن كنت أرى أن المساجلات اللغوية بين رشيد وشكيب تصلح أن تكون موضوع بحث مستقل إذا أريد فيها الاستقصاء أو التوسع .

---

(١) يقصد مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط . ولنلاحظ أن مادة « شوش » لم تذكر فى « معجم مقاييس اللغة » ، ولا فى أساس البلاغة ، ولا فى النهاية لابن الأثير .

(٢) يراجع أيضا فى ضبط اسم « الغزالى » كتابى : « الغزالى والتصوف الإسلامى » ص ٢٣ — ٢٦

(٣) أمير البيان ، ج ١ ص ٤٤٥ — ٥٠ .

بدأت العلاقة اللغوية بين رشيد رضا وشكيب أرسلان بإرشاد شكيب لرشيد إلى مراجعة كتب اللغة عند الكتابة ، وكان هذا فى أول العهد بالتعارف بينهما ، حيث زار رشيدٌ صديقَه ببيروت فى أول عهده بطلب العلم ، وكان شكيب سابقاً فى الطلب ، واجتمع الصديقان فى فندق كوكب الشرق ، فرأى رشيد مع صاحبه كتاب « لسان العرب » فى حجرته ، يراجع فيه ، وكانت هذه أول مرة يرى فيها رشيد هذا الكتاب[1] .

وافترق الصديقان فتراسلا ، وكان للغة نصيب كبير فى رسائلهما فكلما قابل شكيب فى كلام أخيه لفظة لا يجد لها أصلا فى اللغة — أو يظنها كذلك — يعترض عليه ، ويسأله عن الوجه الذى عنده فيها ، وكان رشيد يفعل مثل ذلك مع شكيب[2] ، فتمت بينهما من وراء ذلك مطارحات ومساجلات لغوية يصورها كتاب « السيد رشيد رضا » من جهة رشيد ، وتصورها مجموعة رسائل شكيب إلى رشيد ، وهى ملحقة بالجزء الثانى من كتاب « أمير البيان شكيب أرسلان[3] ، وفى هذه المطارحات فوائد لغوية جليلة لطلاب العربية .

ويمكن أن نقول إن كلا من الرجلين محب للغة العربية ، غيور عليها ، يدمن القراءة فيها ، يعتز بقواعدها وأصولها ، يحرص على ربط حاضرها بماضيها ، يريد لها أن تحيا وتقوى وتذيع ، يجعل القرآن

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٦٠٤

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

(٣) أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ٢ ص ٦٢١ — ٨٤٧ .

مثلها الأعلى فى البيان ، لايتهجم على القول فيها دون بينة ، بل يراجع ويستدل .

ولكن رشيدا أكثر اعتدالا فى آرائه اللغوية من شكيب ، فشكيب يريد التوسع اللغوى ولو كان فيه شئ من الخروج على أقوال السلف أو بعض قواعد الماضين ، ما دامت الحاجة تمس إلى هذا التوسع : ورشيد لايعارض هذا التوسع : ولكنه يضع من حواه قيودا وحدودا . ولا يبيحه للفرد من الأفراد ، ولا يتركه فريسة للرغبات والأهواء ، بل يطالب أولا وقبل كل شئ بالمستند اللغوى الذى يدعم هذا التوسع ، فإن كان هذا التوسع لا يوافق القواعد المسموعة ، فلابد من مجمع لغوى ثقة يكون إليه المرجع فى هذا التوسع .

وهذا هو رشيد يستحسن مع صديقه أن تتكرر بينهما المساجلات اللغوية بمثل ما بدأت به ، من الإنصاف فى العلم ، وعدم اتهام أحد لأخيه بالحط من قدره ، وعدم الحرص على تسويغ الرأى بالتأويل والاحتمال والتماس المخرج ولو بشواذ الأقوال [1] .

ولكن رشيدا يلاحظ على صاحبه كرمه فى التوسع اللغوى ، فيقول له : « إنك ترى من السعة والسماحة فى مخالفة المنقول فى المعاجم ، ومخالفة بعض القواعد ، مالا أراه أنا على اطلاقه إلا أن يقرر مجمع علمى لغوى شيئاً منه ، فيكون قاعدة : تحول دون الفوضى ، فى اللغة ،

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٤٠٤ .

كتعدية الأفعال ولزومها ، والتضمين ، ووراء ذلك ما هو أوسع منه ، ولايمكن تحديده ، وهو الرخص [١] » .

ويكتب شكيب فى جريدة « الأخبار [٢] » ومجلة المجمع العلمى العربى مقالات يدلل فيها على أنه ليس للغة قاموس محيط بها كل الإحاطة ، وأن هناك ألفاظاً عربية فصيحة لم تقيدها المعاجم ، ويتوسع نوعاً من التوسع فى هذه المقالات [٣] ، فيكتب إليه رشيد موافقاً على أن المعاجم لم تحص المفردات السماعية فضلا عن القياسية .

ولكنه يرى أن المنقول عن فحصاء القامدين قسمان : الأول ما خالف القياس ،وهذا لايمكن قبوله على علاته وعده من اللغة بغير سماع يؤيد صحة أصله على الشذوذ عند العرب ،إلا أن ينعقد مجمع لغوى يقرر بعض ذلك.

والقسم الآخر مالا يخالف قياساً مقررا ، ولكنه لم يسمع ، فالراجح فى هذا عند رشيد أنه من أصل اللغة المسموع الذى لم تنقله هذه المعاجم ، وربما نقله غيرها ، وكل ما ينطق به عوام العرب إلى هذا العهد ، مما لم يسر إليهم من الأعاجم من المفردات ، فهو مما تناقلوه عن العرب الأولين ، على تحريف أو تصحيف فى بعضه أو أكثره [٤] .

ولكن ماذا يصنع رشيد وصاحبه يرى الأخذ باللغات الضعيفة وبالشاذ ، وكما يؤخذ فى الشرع بالرخص يحسن عنده أن نأتى

---

(١) السيد رشيد رضا ، من رسالة بتاريخ ٢ من سبتمبر سنة ١٩٣١ .

(٢) الجريدة التى كان يصدرها أمين الرافعى بهذا الاسم .

(٣) لمعرفة المزيد عن هذه المقالات يراجع فصل « المعاجم ليست كل شىء » من كتاب أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ص ٤٣٨ — ٤٤٤ .

(٤) السيد رشيد رضا ، ص ٦٢٩ .

باللغات الضعيفة فى بعض الأحايين ، لنثبت أنها موجودة ، وإن كان المشهور خلافها ! .

لا يملك رشيد إلا أن يقول لصاحبه : « جملة القول أننا انتهينا من هذه المسألة بأننا على خلاف مذهبى فيها ، فكثير من الاستعمال جائز على مذهبك بوجه من الوجوه التى ذكرتها ، وهو غير جائز على مذهبى » . ويقول له أيضاً : « الشىء الذى لا أعرفه من خواص الكتاب ترك الفصيح الذى لا خلاف فيه إلى الشاذ أو غير الفصيح ، أو ما لا يصح إلا بضرب من التوسع أو التأويل ، من غير حاجة إلى إلى ذلك[1] » .

فلنستعرض بعض الأمثلة من هذه المساجلات اللغوية :

وجد رشيد فى كتاب مخطوط لشكيب كلمة « أجاوب » مستعملة بمعنى أجيب ، فأصلحها لأن المجاوبة بمعنى المحاورة ، فاعترض عليه شكيب ، فرد عليه رشيد بأنه قد راجع جميع ماعنده من كتب اللغة فى المادة ، وخرج من مراجعته ، بأن المجاوبة ليست نصاً فى الإجابة عن الأسئلة : وإنما هى المحاورة بين شخصين ، أو أشخاص فى موضوع ما ، فإن كان يدخل فى عمومها ما قد يختلف فيه المتجاوبان ، ويسأل فيه أحدهما الآخر ، أو يعترض عليه ، أو يسمع جوابه ، فهذه الجزئية من أفراد مدلول العام تسمى جواباً .

وأما المجاوبة فهى المراجعة بينهما .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٦٢٣ و ٦٢٤

ولا ينسى رشيد أن يلجأ إلى معجمه الأعلى وهو القرآن الكريم ، فيستشهد بقوله تعالى : « ماذا أجبتم المرسلين » ، وقوله : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم » .

فيرد شكيب على رشيد في رسالة بتاريخ ١٦ تموز (يوليه) سنة ١٩٣١ ، وفيها يقول : « في كتاب طبقات النجاة للأنبارى هذه الجملة : (أردت أن أسمع منه هل تنبأ أولا ، فجاوبنى جواب مغالط ، وقال : هذا شيء كان في الحداثة) .

وفي كتاب طبقات الأمم لصاعد بن أحمد الطليطلى الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ هذه الجملة : (ومنها رسالة جاوبه بها . . .) إلخ .

ويرد رشيد على ذلك قائلا : « وأما مافيه من عثورك على استعمال بعض المولدين لكلمة (جاوب) فكنت أظن أن ماتقدم من مجاوبتنا ، أو تجاوبنا ، في هذه الكلمة يغنى عن رجوعك إليها ، وذكر هذا الاستعمال الذى لايعد حجة عند علماء اللغة[١] » .

فالنصوص التى أوردها شكيب لتسويغه استعمال الكلمة ليست حجة عند رشيد ، لأنها من كلام المولدين ، وليست من كلام العرب الذين يحتج بالسماع منهم .

وكانت النتيجة أن شكيبا اعترف لصاحبه بأنه محق فيما ذكر عن كلمة « المجاوبة »[٢] .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٩٨ و ٦٠٣ و ٦٠٤ و ٦١٣ .

(٢) أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ٢ ص ٧٦٠ .

وكان رشيد يستعمل كلمة « الدعاية » مثل قوله : ولكن بدعة التشيع كانت قد سرت وانتشرت فى المسلمين بالدعاية السرية[1] » . فسأله شكيب عن صحة الكلمة فأجابه بأنها قد وردت فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ؛ فى قوله : « أدعوك بدعاية الإسلام » كما فى كتاب « بدء الوحى » من أول صحيح البخارى ، وهى ككلمة « الدعوة » الكثيرة الاستعمال فى كل مايدعى إليه ، فأحب رشيد رضا استعمال كلمة « الدعاية » فى الدعوة الخاصة بالمذاهب العامة من سياسية ودينية ، واتبعه فى استعمالها كثير من الكتاب[2] .

ونحن نلاحظ هنا الدقة اللغوية عند رشيد . حيث يود أن يفرق بين الدعوة المطلقة والدعاية الخاصة لمذهب سياسى أو دينى ، فيجعل للأولى كلمة « الدعوة » ; وللأخرى كلمة « الدعاية » .

وكان من وراء هذا السؤال والإجابة عليه أن عنى شكيب بالتوسع فى بحث الكلمة ، فذكر أنها تصلح لمقابلة مايسميه الإفرنج « بروباجندا » ، وأن صاحب « لسان العرب » أورد عبارة « أدعوك بدعاية الإسلام » . وقال بعدها : « وفى رواية » : « أدعوك بداعية الإسلام » والداعية هنا مصدر بمعنى الدعوة كالعافية والعاقبة .

وأورد ماقيل من أن كلمة « دعاية » قد تكون خطأ فى النسخ وأن أصلها « دعاوة » ولا يجوز غيرها ، لأن الفعل واوى ،

---

(١) السنة والشيعة ، ص ٥ ، وانظر ص ٣٢ و ٥١ حيث كرر رشيد استعمال الكلمة .

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٣٤٥ . وقد استعمل رشيد الكلمة منذ أوائل القرن العشرين

والدعاية بالياء . ورد على هذا الاعتراض بأن نسخ البخارى لا تحصى ، وعلماء الحديث كثيرون ، فلو كانت خطأ لأصلحوها ، ثم أورد شكيب طائفة من الكلمات من قبيل « الدعاوة والدعاية » ، ومنها سنت السانية تسنو سنوا — إذا استقت — وسناية وسناوة . وهو فى صيابة قومه وصوابة قومه . والنقاوة والنقاية من كل شيء . والنفاوة والنفاية من كل شيء . وداهية . هواء ودهياء ، والقصوى والقصية . ورغاوة اللبن ورغايته . وجباوة الخراج وجبايته ، « وهلم جرا مما لايحصى[1] » .

ولقد مرت الأيام والأعوام بعد سؤال شكيب لرشيد عن كلمة « الدعاية » ، وإذا رشيد فى رسالة منه إلى صاحبه بتاريخ ٣٠ من يونيه سنة ١٩٣٢ يتذكر كلمة « الدعاية » التى تخطر بباله دون مناسبة . فيذكر مرة أخرى أنهاوردت فى أصح الروايات فى كتب النبى صلى الله عليه وسلم[2] إلى الملوك ، كما فى البخارى وغيره ، ثم يقول : « وأنا الذى روجتها فى الاستعمال ، فهى من شواهد حجتك على الذين ينكرون كل مالم يرد فى كتب المعاجم المتداولة ، ونقل رواة الصحاح من الحديث أوثق من رواة اللغة ، وقد ورد دعاوة بالفتح فى دعوة النسب ، وقلبت الواو فى الكسر ياء لمناسبة الكسرة ، وهذا القلب جائز لاواجب كما ورد فى القوام والقيام[3] » .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٣٤٥ .

(٢) يلاحظ أن رشيدا فى كثير من الأحيان يكتفى بذكر حرف (ص) عند الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) السيد رشيد رضا ، ص ٦٥٩ — ٦٦٥ .

وعلق شكيب على كلام رشيد فذكر أن ابن سيده فى «المخصص[1]» يقرر أن الواو تدخل على الياء. والياء تدخل على الواو إما لمعاقبة عند القبيلة الواحدة من العرب، وإما لافتراق القبيلتين فى اللغتين، ثم يسوق ابن سيده عشرات من الكلمات التى جاءت بالواو والياء: مثل: الصواغ والصياغ، والمواثق، والمتأوب والمتأيب، ودوخه وديخه، وطوحته وطيحته، وحكوت وحكيت... إلخ[2].

وهكذا نجد أن سؤالا من شكيب عن كلمة «الدعاية» أدى إلى هذه الفوائد اللغوية.

* * *

واستعمل رشيد كلمة «الفيلق» مذكرة، فخطأ رشيد فى ذلك، وأورد له النصوص من شرح القاموس، وفقه اللغة، ولسان العرب، ومستدرك التاج، والمخصص على أنها بمعنى الكتيبة، والداهية الشديدة، والكتيبة المنكرة، والمرأة الصخابة[3]، وأنهم اتفقوا على تأنيثها[4].

---

(١) المخصص، ج ١٤ ص ١٩.

(٢) السيد رشيد رضا، ص ٦٦٨ — ٦٧٠.

(٣) كذلك جاء فى أساس البلاغة: «ورماهم بفيلق شهباء، وهى الكتيبة المنكرة، وبلى فلان بامرأة فيلق».

(٤) السيد رشيد رضا، ص ٤٠٢. ولكنى وجدت فى معجم مقاييس اللغة هذا النص: «والفيلق: العجب أيضا» ج ٤ ص ٤٥٢.

ورد شكيب على رشيد بأنه لم يقل عن كلمة « الفيلق » إنها غير مؤنثة ، بل أراد أن يقول إن تذكيرها لايستحق التخطئة ، وقال لرشيد « إنك مولع بالتخطئة[1] » . مع أن رشيدا قد ذكر لصاحبه أنه لوعثر على رواية شاذة تؤيد التذكير فإن هذا لايعد مخرجا ، لأن المقام مقام مايستعمله فصحاء الكتاب ، لامقام تحرير ماورد من الروايات فى الكلمة .

واستشهد شكيب بقول ابن الأبار القضاعى البلنسى فى سينيته :

وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم   حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا

فرد عليه رشيد بأن ابن الأبار من المولدين ، وعلماء اللغة متفقون على أن المولدين لايحتج بعربيتهم ، فلا يكون البيت شاهدا ، وأضاف أنه حينما ذكر لصاحبه تأنيث كلمة « الفيلق » أراد الاستعمال الحر الفصيح الثابت عن العرب الذى يحب لصاحبه أن يختاره فى كتابته ، من غير بحث عن الشذوذ المحتمل فيه ، وعن استعمال المولدين له ، فأصل كلمة « الفيلق » الداهية ، ولما وصفوا به الجيش جعله نقلة اللغة وصفا لكتيبة منه يلاحظ فيها هذا الوصف.

ومن هنا يمكن أن يقال : إن هذا اللفظ صار من أسماء الجيش وهى كثيرة ، فيصح تذكيره بإرادة الجيش ، مع صرف النظر عن الأصل ، بل ربما تساهل بعض علماء اللغة أنفسهم ، فقالوا مثل هذا ، ولكن الأصل الصحيح هو تأنيث « الفيلق[2] » ؛ وينبغى أن

---

(١) أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ٢ ص ٦٨٢ .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٦١٣ .

نلاحظ أن رشيدا يعترف بأنه ذكر التخريج السابق لتذكير كلمة « الفيلق » لكي يغلق باب النقاش فيها ، لا لأنه يراه من الصواب[١]

* * *

وهناك كلمات وتعبيرات كثيرة أخذها رشيد على شكيب ، والمساجلات حولها بين الرجلين مبثوثة فى كتاب « السيد رشيدرضا » وكتاب « أمير البيان شكيب أرسلان » .

وكما آخذ رشيد شكيبا ، آخذ شكيب رشيدا ، فاعترض عليه فى استعماله كلمة « القداسة » واعترف له رشيد بأنها سرت إليه من استعمال المعاصرين[٢] .

واعترض شكيب على كلمة « الإعدام » التى استعملها رشيد بمعنى القتل ، ورد رشيد بأن معنى الكلمة فى أصل اللغة هو إفقاد الشىء ، إذا كانت مصدرا للفعل المتعدى ، وقد ورد : لاأعدمنى الله فضله ، والعُدْم — بضم فسكون — الفقد ، وكثر فى فقد المال[٣] .

ويلوح لى أن رشيدا لم يسترح تماما إلى استعمال كلمة «الإعدام» ، فقد كتب رده السابق فى أواخر سنة ١٩٢٢ م ، ولكنه فى كتابه « المنار والأزهر » الذى ظهر سنة ١٩٣٥ قال هذه العبارة : « وحكم

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٦١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

على بالقتل (الإعدام) مرتين أو أكثر[1] . فوضع كلمة « الإعدام » بين قوسين ، كأنه لم يرتض استعمالها .

واعترض شكيب على رشيد ، لأنه جمع « الوادى » على «الوديان» والصواب « الأودية » ، وأبدى رشيد سروره للاعتراض ، وإن يكن قد ذكر أن شرح القاموس استدرك بأن الوادى يجمع أيضاً على وديان ، ولكنه عاد فاعترف بأن كلمة « أودية » هى استعمال القرآن ، ومادام الأمر كذلك فهى آثر لديه ، واعترف أيضاً بأن الكلمة سرت إليه من استعمال العامة[2] .

ورشيد يؤكد فى أكثر من موطن أن سريان الأخطاء من استعمال العامة إلى العلماء والأدباء له قوته وشدته ، فهو يقول لصاحبه : « إننى أعترف بأنه يقع فيما أكتب كثير من الغلط ، ولا سيما فى المكتوبات الشخصية ، ومن هذا الغلط ما أعرف أنه غلط ، ويسبق إليه قلمى لكثرة استعماله فى الكلام العادى ، ولكثرة قراءة مثله فى الجرائد وغيرها ، ولكن هذا الغلط يكون قليلا أو نادرا فيما أتحرى تصحيحه ، ولا سيما عند طبعه[3] » .

ورشيد حينما يرى كلمة لشكيب فيها قوله : « فما يؤثر على الأمة الإسلامية » يعترض عليه بأن تعدية التأثير بعلى من أغلاط الجرائد التى يجتنب مثلها الأمير شكيب ، ثم يقول رشيد : « ولكنها مما

---

(١) المنار والأزهر ، ص ١٦٣ .

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٦١٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٦ .

كثر استعماله قولا وكتابة ، حتى صارت تجرى بها الأقلام كالألسنة ، ولايتذكر الكاتب العالم بها أنها من الخلط[١] » .

ومن العجيب أن رشيدا نفسه قد عدى « التأثير » بعلى : فقال : « والخلاصة أن الحرب ليست لأجل الدين ؛ ولكنها مؤثرة حتى على رجال الدين[٢] » .

وإن كان رشيد قد أعاد طبع المجلد الأول من « المنار » الذى وردت فيه هذه العبارة ثم علق عليها عند الإعادة بقوله : « ولم يرد : أثر عليه ، فيما أعلم ، وقد سرى إلى هذا من الجرائد المصرية[٣] » .

* * *

بين رشيد والشنقيطى :

كان لرشيد صلات بكثير من أعلام اللغة فى عصره ، وكانت لهذه الصلات ثمرات لغوية وأدبية ؛ ومن بين هؤلاء الأعلام الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطى ، الذى يصفه رشيد بأنه « العالم اللغوى الراوية الشهير » ، وبأنه « عالم جليل » ، وبأنه « إمام أهل اللغة والأدب ، ومفخر العجم والعرب » ، وبأنه « بقية السلف فى الصدق ، والبعد عن التملق والنفاق » ، وبأنه « علامة اللغة وإمامها »[٤] .

---

(١) المنار ، المجلد ٢٥ ص ٧١٧ .

(٢) المنار ، المجلد الأول ص ١٧٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) تفسير المنار ، ج ٦ ص ٤ . والمنار ، المجلد ٣ ص ٦٥٥ ، والمجلد ١٩ ص ٥١١

والصلة بين رشيد والشنقيطى بدأت فى وقت مبكر ، عقب هجرة رشيد إلى مصر ، ويروى لنا رشيد أن الشنقيطى زاره فى بيته يوم ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣١٧ هـ ، وأنشده ، بيتين لأعرابية عشقت فتى فى مكة وهما :

للناس بيت يديمون الطواف به ولى بمكة لو يدرون بيتان
فواحـــد منهمـا لله أعظمه وآخر لى به شغل بإنسان

ثم قال الشنقيطى لرشيد : « بيتك عندى هو البيت الثانى فى مصر ، والبيت الأول هو بيت الأستاذ الشيخ محمد عبده » ..

وسر رشيد بهذه العبارة حتى قال : « فحسبى هذه الكلمة فخرا أنها من رجل هو بقية السلف فى الصدق والبعد عن التملق والنفاق[1] ».

.. ونشر رشيد للشنقيطى بعض شعره فى « المنار » ، ومنه قصيدة يصور فيها غرامه بالبحث عن الكتب واقتنائها[2] .

ويقول رشيد عن الشنقيطى : « وجد فى مصر عالم من علماء اللغة فى طبقة الأئمة الحفاظ الذين وضعوا لها المعاجم ، ودونوا الدواوين ، وهو الشيخ محمد محمود الشنقيطى ، فلم يعرف له فضله أحد من علماء الأزهر ، ويرشد الناس إلى الانتفاع بعلمه ، إلا مفتى الديار المصرية الشيخ محمد عبده ، وكان ينبغى لشيخ الأزهر أن ينتدبه لقراءة أشعار العرب وأراجيزهم فى الأزهر ، وقراءة بعض

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ٦٥٥ ، وقوة الرابطه بين الشنقيطى والأستاذ الامام كانت من أسباب صداقته لرشيد .

(٢) المنار ، المجلد ٣ ص ٩٠ .

الكتب النافعة ، ككتاب سيبويه ، وكتاب الكامل للمبرد ، ويأمر العلماء ونجباء المجاورين بالتلقى عنه ؛ إذا كانوا يودون إحياء اللغة ، ولا يحيا الدين إلا بإحياء لغته [١].

وإذا كان رشيد يتحمس هذا التحمس فى الدعو إلى الانتفاع بما لدى الشنقيطى من فقه اللغة . فالغالب على الظن أنه قد انتفع بهذا الفقه ، فكانت صلته بالشنقيطى من عوامل التوسيع لثقافته اللغوية ؛ لأن الصحبة هنا تؤدى إلى تلاقح الأفكار وتبادل الآراء

ولقد تهيأت أمام رشيد فرصة ينتفع بها لغويا من صحبة الشنقيطى ، ويزيد فيها من ثقافته اللغوية ، فحينما سافر الأستاذ الإمام محمد عبده سفره الأخير إلى تونس والجزائر وصقلية وأوربة ، أناب رشيدا عنه فى تصحيح كتاب « المخصص » لابن سيده ، مع الشيخ محمد محمود الشنقيطى [٢].

بين رشيد وجبر ضومط :

جبر ضومط هو أحد رواد البحث اللغوى فى العصر الحديث ، وكان أستاذا للغة العربية فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وعضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وأحد عشاق اللغة العربية ، وقد ولد فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٥٨م ، فى بلدة « برج صافينا [٣] » فى عكار بلبنان ،

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٤٤٥ .

(٢) المنار ، المجلد ١٩ ص ١٢ .

(٣) ويقال لها « صافينا البرج » ، انظر كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها ، (مقدمة يعقوب صروف للكتاب) .

وتخرج فى كلية بيروت الأمريكية سنة ١٨٧٦م . وتعلم العبرانية والسريانية » .

واشتغل بالتدريس ، ثم هاجر إلى مصر سنة ١٨٨٤م ، ثم سافر إلى انجلترة ، ثم عاد إلى لبنان ، وله مؤلفات كثيرة أغلبها فى علوم اللغة ، وله مجموعة قصائد .

وقد توفى فى ١٩ من يناير سنة ١٩٣٠م [١] .

ولجبر ضومط كتاب عنوانه « الخواطر فى اللغة » طبعه فى المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٦ يدل على عمق بحثه فى اللغة العربية ونشأتها وأصولها ، ويقرر الدكتور يعقوب صروف أن هذا الكتاب على صغره « جمع أكثر المبادىء الأولية التى تمشت عليها اللغة فى نشوئها ، وهو بحث مبتكر فى العربية على ما أعلم [٢] » .

وله أيضاً كتاب بعنوان « فلسفة اللغة العربية وتطورها » يضم المقالات التى كتبها فى تاريخ اللغة العربية ، ونهضة المتكلمين بها ، وفلسفة نشوئها وتطورها ، ووسائل ترقيتها ، وكان قد نشر هذه المقالات بين سنة ١٨٨٨م وسنة ١٩٢٨ فى مجلتى المقتطف والهلال .

وفى هذا الكتاب مقالة بعنوان : « انتقاد فتاة مصر [٣] » وهو بحث نقد فيه قصة وضعها الدكتور يعقوب صروف ، وكانت هذه المقالة

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ص٥٥٣ — ٥٥٦ . ومقدمة كتاب فلسفة اللغة العربية وتطورها .

(٢) فلسفة اللغة العربية وتطورها ، المقدمة ، ص (د) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤ — ٣٣ .

سيما فى حوار لغوى بين ضومط ورشيد رضا ، وكان ضومط قد نشر هذه المقالة فى مجلة « المقتطف » سنة ١٩٠٦ .

ولعل الذى فتح باب ذلك الحوار هو رشيد رضا ، فقد قدم جبر ضومط إليه كراريس تتضمن كتابه « الخواطر العراب » ليرى فيها رشيد رأيه قبل استكمال طبعها فأشاد بها رشيد فى كلمة نشرتها مجلة « المنار » ولكنه قال فى آخرها إن فى الكتاب « مالا يكاد يخلو منه كتاب حديث كاستعمال بعض الألفاظ أو الجمل استعمالا غير صحيح أو غير فصيح [1] » .

وكأنما ضاق جبر ضومط وهواللغوى الكبير بهذه الغمزة ، فبدأ يعرض بتمسك رشيد بالسماع فى باب اللغة . وكان رشيد قد كتب عن ديوان « الشوقيات » لأحمد شوقى ؛ فوصفها بأنها « أعصى منظوم العصر على الانتقاد السديد : معان عالية ، وعبارات زاهية ، وأفكار دقيقة ، فى أساليب رشيقة » .

ولكنه استدرك على شوقى أنه استعمل مالا يخلو عنه كلام المولدين — ولاسيما المتأخرين — من كلمة لم تنطق العرب بها ، أو لفظة وضعت فى غير موضعها ، واستشهد رشيد باستعمال شوقى كلمة « احتار » ، وقال إنها سرت إليه من مثل ابن الفارض القائل :

وما احترت حتى اخترت حبيك مذهبا فواحيرتى إن لم يكن فيك حيرتى

والشيخ عبد الغنى النابلسى القائل :

حكم حارت البرية فيها وحقيق بأنها تحتار

(١) المنار ، المجلد ٧ ص ٢٧٧ ، عدد ١٥ يونية (حزيران) سنة ١٩٠٤

ومن هنا سمى ابن عابدين حاشيته المشهورة : « رد المحتار إلى الدر المختار » .

ويقرر رشيد أن ابن الفارض قد أوقعه فى الخطإ الغرام بالتجنيس ، وتبعه ابن عابدين فيه ، وأما النابلسى فلعلها سرت إليه من استعمال ابن الفارض ، وكذلك شأن شوقى وغيره [١] .

وتناول جبر ضومط قصة « فتاة مصر » بالنقد كما ذكرنا ، وفى خلال هذا النقد قال عن حالة الانتقاد اللغوى :

« وكثيرون من منتقدينا يأتون فى هذا النوع من الانتقاد بالمبكيات المضحكات ، ولا أحاشى جلة من أكابر علمائنا وكتابنا معًا . والغريب أن بعضهم يكاد ينكر القياس ، فلا يجيز فى الاستعمال إلا ما نص عليه فى كتب أمهات اللغة ، فإن لم ينص الصحاح والفيروز ابادى أو لسان العرب على (احتار) مثلاً فإنهم يؤاخذون من يستعملها ، ولو تابع فى استعمالها كثيرين من أكابر الشعراء والفقهاء .

وكاد العلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المشهورة يهوى فى مهواة هؤلاء الأقوام ، فإنه على سعة علمه لم يرقه على مايظهر استعمال بعضهم (احتار) ، مع معرفته أن قد استعملها قبله الإمام ابن الفارض المشهور ، وبعض غيره من أكابر الفقهاء كصاحب الكتاب المسمى : برد المحتار على الدر المختار . وكنت أعجب من تضييق هاته الفئة كل هذا التضييق [٢] » .

---

(١) المنار ، المجلد ٣ ص ٥٦٧ ، عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠

(٢) فلسفة اللغة العربية وتطورها ، ص ٢٨ . والمنار ، المجلد ٩ ص ٤٤٤

وناصر جبر ضومط جانب القياس الذى هو أصل من أصول اللغة العربية .

ونقل رشيد فى « المنار » خلاصة ما كتب جبر ضو ط ، وعلق عليه بأن أبنية الأفعال سماعية ، فلا يصح أن تأتى من كل مادة بكل بناء وإن سمع مثاله من مادة أخرى ؛ فإذا علمنا أنهم استعملوا من مادة « الحيرة » : حار وحير وتحير واستحار فقط ، اكتفينا بها ، ولم نزد عليها : أحار إحارة ، وحاير محايرة ، واحتار احتيارا ، وتحاير تحايرا ، وحيرر حيررة ، وتحيرر تحيررا ... إلخ .

وبعد أن يظهر رشيد براعته فى تشقيق المادة ، يذكر أنه قام فى زمانه أناس يرون أنه يجب أن يتصرف كل كاتب فى اللغة كما يشاء ويختار ، فيدخل فيها من العامى والمخترع والدخيل ما يستحسنه بلا قيد ولا شرط ، ولو كان هذا لأصبحنا بعد زمن غير طويل والمصرى لايفهم كتاب العراق ، والحجازى لايفهم كتاب المراكشى ، بل لصارت اللغة غير العربية المدونة فى الكتب ، ولاحتجنا إلى معجمات جديدة ، وإلى نحو وصرف وبيان لكل قطر [1] .

ويرى رشيد أن المنتصرين للرأى السابق ثلاثة أصناف : فصنف قليل البضاعة من اللغة ، وصنف يريد إفساد العربية ، وصنف يتساهل ، فى أمر الألفاظ بحجة التعظيم لشأن المعانى ، ثم يقرر أن ضومط من هذا الصنف الأخير ، « ولذلك يوجد فى كتابته من الأغلاط اللفظية مالا تجد مثله فى كلام من لا يدانية فى فنون العربية » .

---

(١) المنار ، المجلد ٩ ص ٤٤٧

ويحترس رشيد فينفى عن نفسه تهمة الجمود فى اللغة ، فيأخذ الطريق الوسط الذى عرفناه عنه ، ويرى أن نسلك فى اللغة مسلك أهلها فى الاشتقاق من الجوامد ، والتعريب ، والتجوز ، وغير ذلك ، ولكن يجب أن لا نجدد فيها إلا ما نحتاج إليه ، ولا نجده فى كتبها ، ومن الواجب أن يتم ذلك برأى جمعية من العلماء يبحثون فى ذلك ، ويجعلون له نظاماً [١] ، وهو يقصد بهذا المجمع اللغوى الذى يأمله .

ويعود رشيد ليبين ما خالف فيه جبر ضومط القياس ، ولكنه قبل أن يبدأ ذلك يقرر أن الخطأ يقع فيه جميع كتاب العصر ، ولا يستثنى « المنار » ، فالغلط يقع فيها عن سهو أو جهل أو تأثر بأسلوب العامة ، ثم يقول : « ولكن جبر ضومط أفندى لا يحفل بانتقاد اللغة ، بل يكتفى بأن يكون ما يكتب مما يفهمه القارئ ، وإن مزج بالألفاظ العامية التى ليست من اللغة ، وبالأغلاط النحوية وأبق من أساليب العرب » .

وقبل أن أعرض نماذج مما عده رشيد أخطاء لضومط ، ألاحظ شدة رشيد فى الحديث عن صاحبه ، فضومط قد عبر عن رشيد بوصف « العلامة » ، ونقده بعبارة متزنة ، ولكن رشيدا وصف ضومط هنا بالعامية ، والغلط فى النحو ، والإباق من أساليب العرب !! .

وقد أخذ رشيد على ضومط أنه قال : « الاقتصاد على فهم السامع » ، والاقتصاد لايتعدى بعلى ، ولو قال « التوفير » بدل « الاقتصاد » لصحت العبارة ، وكذلك لو قال : « القصد فى كد ذهن السامع » .

---

(١) المنار ص ٤٤٨

وأخذ عليه قوله : « والتقحم فيها على الخراب » . واللغة لا يقال فيها تقحم عليه كما يقال هجم عليه ، وإنما قالوا : تقحم الفرس بصاحبه ، إذا ندبه فلم يضبط رأسه ، وإذا ألقاه صاحبه ؛ فكان ينبغى أن يقول : وتقحمًا أو تقحمها بنا فى الخراب .

وأخذ عليه أنه أدخل « قد » على النفى ، مثل قوله : قد لايعد ، قد لايعقل ، قد لا تخلو ، ولو قال : ربما لايعد ... إلخ لكان أسلم وأصح .

وأخذ عليه استعماله كلمة « مقاسة » والصواب « مقيسة »[1] ...إلخ.

إن رشيدا هنا ما زال وفياً للمبدإ الذى رآه فى أمر القياس والسماع والذى يترجم عنه بقوله : « لا يجوز لنا أن نخالف القواعد والنقل فى اللغة – مفرداتها وجملها وأساليبها – إلاالضرورة يقدرها علماء هذا الشأن بقدرها . وإننى أميل إلى مخالفة المتقدمين فى بعض ما قالوا إنه سماعى ؛ ولكننى لا أجيز لنفسى الانفراد بذلك واستعماله لغير ضرورة ، حتى يوفق الله علماء هذه اللغة لتأليف جمعية تنهض بهذا العمل ، وعسى أن يكون ذلك قريبًا[2] » .

ورأى فى موقف رشيد أنه كان يمثل مع رفاق له من الغيُر على اللغة العربية صخرة المقاومة أمام نزعة التحرر اللغوى التى أخذت أشكالا عديدة فى عصره ، وكان من الواجب وجود هذه المقاومة أمام هذه النزعة : وأمام الدعوة إلى العامية ، وإذا كان يبدو فى هذه المقاومة

(١) المنار ، المجلد ٩ ص ٥٢٩ – ٥٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣٣ عدد ٢٣ أغسطس (آب) سنة ١٩٠٦

لون من التشدد فى بعض الأحيان ، فإنما هذا « رَدُّ فعلٍ » لما كان يراد بالفصحى من كيد .

ومما يدخل نطاق روح المقاومة اللغوية عند رشيد أن نراه فى سنة ١٩٣١م ينوه برقى النقد اللغوى عند الفئة الراقية من كتاب مصر وأدبائها على عهده ، ويقول إنَّ هؤُلاء أرقى فى النقد اللغوى ممن قبلهم من كتاب هذا العصر وأُدبائه ، « بل لم يوجد النقد الدقيق إلا فى هذا العهد من عصرنا[1] » .

ومما يدخل هذا النطاق أيضًا ثناؤُه على إبراهيم اليازجى والشيخ محمد المهدى ، لأن لهما جهودا فى إحياء اللغة والدفاع عنهما ، ويثنى على أحمد تيمور باشا وأحمد زكى باشا ، لأنهما من أوسع علماء اللغة والتاريخ شهرة فى عصره . وهو يرى أن السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده هما إماما النهضة اللغوية فى عصره ، وجمال الدين هو الذى حرض الشيخ على النهوض باللغة فى الأزهر الشريف[2] .

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٦١٤

(٢) المنار ، المجلد ٩ ص ٦٣٣ . والسيد رشيد رضا ، ص ٤٠٢

رشيد والمصطلحات

عنى رشيد عناية كبيرة بوضع المصطلحات العربية مقابل مايفيد معناها من الكلمات الأجنبية ، ونحن نعلم أن الاحتلال الأجنبي لبلاد العروبة حمل معه لغاته ، فنشر الكثير من مفرداتها ومصطلحاتها بين العرب ، كما أن النهضة العلمية والصناعية التى شهدها الغرب دفعت بكثير من أسماء المخترعات والآلات ومستحدثات الحضارة ، فكان لابد للعرب من الوقوف فى وجه هذا التيار اللغوى الأجنبي الجارف ، باختيار ألفاظ عربية مقابلة لهذه الألفاظ الأجنبية الدخيلة ، أو بتعريب مالا يمكن إيجاد مقابل عربى له .

ورشيد رضا يجيز التعريب عند الحاجة إليه ، ويقترح إطلاق كلمة « المحدث » على ما يعرب فى هذا العصر ، وأن يكون للمجمع اللغوى الذى يتمنى تأليفه الحرية التامة فى اتباع سلفنا فى بداوتهم وحضارتهم ، والزيادة عليهم ، ولا تضر كثرة اصطلاحات الفنون المعربة ما دامت الحاجة تدعو إليها ، ولا خطر من التعريب على اللغة ولا على الجنسية ، ولكن يجب علينا فى الوقت نفسه أن نجاهد بكل ما نستطيع لتعميم التعليم بالعربية [1] .

وحينما أقر نادى دار العلوم سنة ١٩١٠ طائفة من الأسماء العربية لمسميات أفرنجية ، حرص رشيد على نشرها فى « المنار » ذاكرا أن

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ٩١٠ — ٩٣١ عدد أول فبراير (شباط) ١٩٠٨ .

الاشتقاق والتعريب ليسا جديدين فى اللغة ، بل هما جائزان ، وواجب أن يصار إليهما عند الحاجة ، ومن هذه الأسماء ما يلى :

١ — استمارة : فى مقابل (استمارة) والكلمة من استأمر ، أى أخذ أمره .

٢ — مدرج : فى مقابل كلمة (انفيتياترو) .

٣ — إضمامة : فى مقابل كلمة (بلوك نوت) ومعنى الإضمامة الأوراق منضمة .

٤ — صبغ : فى مقابل كلمة (بويه) التى تستعمل لصبغ الثياب والورق ، وكلمة (طلاء) فى مقابل كلمة (بوية) التى تستعمل لطلاء المبانى والأوانى .

٥ — نجيرة : فى مقابل كلمة (فراندة) أو (تخت بوش) لأن النجيرة سقيفة من خشب ليس فيها قصب ولا غيره .

٦ — خوان : فى مقابل (ترابيزة) أو (طاولة) إذا كانت للأكل ، وكلمة (مائدة) إذا كان الأكل موضوعاً عليها ، ومنضدة : لما توضع عليها الأشياء ، ومكتب : لما يستعمل للكتابة عليه .

٧ — كنة : فى مقابل : (تراسينه) ، وكذلك كلمة (طنف) وكلمة (شرفه) .

٨ — مرمى : فى مقابل كلمة (جول) .

٩ — ملف : فى مقابل كلمة (دوسيه) .

١٠ — غدان : مقابل كلمة (شماعة) إذا كانت غير مثبتة فى الحائط ، وكلمة (شجاب) للشماعة المثبتة فى الحائط .

١١-بطاقة الزيارة : مقابل كلمة (كارت فيزيت) .

١٢-خيالة : فى مقابل كلمة (سينما توغراف) .

١٣-الحاكى : مقابل (الفوتوغواف) .

١٤-مطبعة الأزرار ، فى مقابل (تايب ريتر) وهى الآلة الكاتبة [١] .

وقد تبدو لنا هذه الكلمات الآن يسيرة هينة المكانة ، ولكننا لو رجعنا إلى عهد وضعها لوجدناها محاولة لها قيمتها وثمرتها ، حيث كان طوفان الكلمات الأجنبية والعامية يغزو حمى الفصحى من كل مكان .

ثم ينشر رشيد مئات من الكلمات العربية العلمية المتعلقة بالناحية الطبية أعدها الدكتور محمد توفيق صدقى ، مع ما يقابلها من الكلمات الإنجليزية ، ليبين أن العربية غنية ، وليفيد بها المعربين والمؤلفين باللغة العربية ، وكان ذلك سنة ١٩١١م[٢] .

ويتحدث رشيد عن كتاب « لطائف السمر » لميخائيل الطقال الحلبى ، فيستحسن منه أنه ذكر فيه كثيرا من مفردات اللغة التى يحتاج إليها الكتاب ، وهم فى غفلة عنها لقلة بحثهم واطلاعهم فى الغالب ومن هذه الكلمات :

الرتة وهى الحبسة فى اللسان ، والرأرأة وهى التردد فى نطق الراء ، والخنخنة وهى التكلم من لدن الأنف ، والقمقمة وهى التكلم من أقصى الحلق ، والليغ وهو عدم الإبانة فى الكلام [٣] .

---

(١) المنار ، المجلد ١٣ ص ٤٥٧ — ٤٥٩

(٢) المنار ، المجلد ١٤ ص ٦١٤ و ٦٧٤ و ٧٥٦

(٣) المنار ، المجلد ١٠ ص ١٤٧ — ١٤٩

ورشيد منذ بداية « المنار » له ولوع بالكشف عن المفردات ، العربية المتعلقة بشئون الحياة ، والتى يغلب على الظن احتياج الناس إليها فى الاستعمال ، ولذلك ، نجده فى المجلد الأول من « المنار » يذكر فى مقال له ستة وأربعين اسما من أسماء الأزياء باللغة العربية االفضحى ، ويفسر كل اسم منها ، وإن كنت قد لاحظت على رشيد أنه لم يذكر المقابل لهذه الأسماء فى الإفرنجية أو العامية ، إلا فى قليل منها[1] .

كما لاحظت أن رشيدا الغيور على العربية ، المولع بالفصحى ، المتحرز من العامى والدخيل كان يستعمل أحياناً كلمات أجنبية مثل « البروغرام » و « الزنبلك[2] » و « التلغراف » و « التليفون[3] » .

ومن مظاهر عناية رشيد بأمر المصطلحات والأسماء العربية التى تقابل المسميات الأجنبية أنه استعمل كثيرا من هذه الأسماء العربية فى وقت مبكر ، وقد تتبعت الأسماء والمصطلحات العربية التى استعملها رشيد فى كتابته مقابل مسميات أجنبية أو عامية وجمعت منها عددا ضخما ، أذكره فيما يلى مبتدئا بمجلدات مجلة « المنار » فى تتابع :

١ — فى المجلد الأول الذى صدر سنة ١٨٩٨ م وجدت الكلمات التالية وأمام كل كلمة مقابلها الأجنبى :

الأمارة النحاسية = اليافطة .

المرقص = البالو .

الفندق = اللوكاندة .

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٥٥٩ - ٥٦٠
(٢) المنار ، المجلد ٩ ص ٣٨٨ و ٤٤٠ .
(٣) المنار ، المجلد الأول ص ٨٠ .

المستشفى — الاستبالية .

الصيدلية — الأجزخانة .

الماخور — موضع الريبة .

البلدة الكبيرة — البندر .

المنطاد — البالون .

السروال — البنطلون .

كاتب السر — السكرتير

المِئْزر — البوخة .

تقويم البلدان — الجغرافيا .

مراقب الجريدة — السينسور .

الجوائب — الأخبار الطارئة[١] .

٢ — فى المجلد الثالث الذى صدر سنة ١٩٠٠ وجدت الكلمات التالية :

حافظة ورق — جزدان .

الترتيب — البروجرام .

عاهل — امبراطور[٢] .

---

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٦٨ و ٨٠ و ٩٥ و ٣٩١ و ٦٥ و ٥٦٨ و ٩٥٩ (على التوالى) .

(٢) المنار ، المجلد الثالث ، ص ٣٦٠ و ٦٠٩ و ٥١٠

٣ — في المجلد الرابع الذي صدر سنة ١٩٠١ وجدت الكلمتين التاليتين :

القناديل — الفوانيس .

المقصورة — اللوج[1] .

٤ — في المجلد السابع الذي صدر سنة ١٩٠٤ وجدت الكلمتين التاليتين :

قلانس — برانيط .

الكوث أو القفش — الشبشب[2] .

٥ — في المجلد الثامن الذي صدر سنة ١٩٠٥ وجدت الكلمات التالية :

النارجيلة — الشيشة .

العطاء — الماهية .

التصوير الشمسي — فوتوغرافيا[3] .

٦ — في المجلد التاسع الذي صدر سنة ١٩٠٦ وجدت الكلمة التالية

حاشية الأمير — المعية[4] .

٧ — في المجلد العاشر الذي صدر سنة ١٩٠٧ وجدت الكلمة : التالية :

دار الكتب — الكتبخانة[5] .

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٦٧٤ و ٩١٨

(٢) المنار ، المجلد ٧ ص ٤٥ و ٦٧٤

(٣) المنار ، المجلد ٨ ص ٤٩ هو ٦٧٦ و ٨٤٤

(٤) المنار المجلد ٩ ص ٤٧٤

(٥) المنار ، المجلد ١٠ ص ٤٦٩

٨ — فى المجلد الثانى عشر الذى صدر سنة ١٩٠٩ وجدت الكلمتين التاليتين :

المعتمد — القنصل .

العدلية — الحقانية[1] .

٩ — فى المجلد الرابع عشر الذى صدر سنة ١٩١١ وجدت الكلمة التالية :

السيارات الكهربائية — الأتومبيلات[2] .

١٠ — فى المجلد الخامس عشر الذى صدر سنة ١٩١٢ وجدت الكلمتين التاليتين :

الكمة — الطاقية .

الكلة — الناموسية[3] .

١١ — فى المجلد السابع عشر الذى صدر سنة ١٩١٤ وجدت الكلمة التالية :

المسرة — التليفون[4] .

١٢ — فى المجلد الثامن عشر الذى صدر سنة ١٩١٥ وجدت الكلمتين التاليتين :

الشحنة — البوليس .

العاديات — الآثار القديمة[5] .

---

(١) المنار ، المجلد ١٢ ص ٢١و٢٧ .

(٢) المنار ، المجلد ١٤ ص ١٩٦ ، ويلاحظ أن أحمد زكى باشا دعا سنة ١٩٠١ إلى استعمال كلمة (السيارة) بدلا من (الأتومبيل) انظر كتاب أحمد زكى الأنوار الجندى ، ص ٥٧ نقلا عن المقتطف ، أغسطس سنة ١٩٠١ .

(٣) المنار ، المجلد ١٥ ص ٤٥٢و ٤٥٥ .

(٤) المنار ، المجلد ١٧ ص ٤٦٢ ، ٤٧٨ .

(٥) المنار ، المجلد ١٨ ص ٢٣٠ و ٢٦٣ .

١٣ — فى المجلد التاسع عشر الذى صدر سنة ١٩١٦ وجدت الكلمات

الجلاوزة والشرطة — البوليس والضابطة .

المصفاة — الفلتر .

اللفيفة — السيجارة[١] .

١٤ — فى المجلد العشرين الذى صدر سنة ١٩١٧ وجدت الكلمتين التاليتين :

الراوية أو المزود — وعاء الماء فى السفر (الترمس) .

البرق — التلغراف[٢] .

١٥ — فى المجلد الحادى والعشرين الذى صدر سنة ١٩١٩ وجدت الكلمات التالية :

الخارتة — الخارطة .

المنظرة — الكشك .

رشاش الماء — الدش[٣] .

وقد علق رشيد على كلمة (خارتة) بقوله :

« الخارتة فى الأصل اسم فاعل من خرت الأرض يخرتها — من باب نصر — إذا عرف طرقها ومضايقها ، ومنه الدليل الخريت ، وهو

---

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص ١٦٢ و ٣١٢ و ٥٧٢ . وكرر واستعمال كلمة المسرة للتليفون ص ٥٦٦

(٢) المنار ، المجلد ٢٠ ص ١٠٩ و ١١٧ وكرر استعمال كلمة المسرة للتليفون ص ١١٦

(٣) المنار ، المجلد ٢١ ص ١٩٧ و ٢١٩ و ٤٣١

العارف بذلك . وفى اللسان عن الكسائى : خرتنا الأرض إذا عرفناها ، ولم تخف علينا طرقها ا هـ . فإذا أطلق لفظ الخارتة على الصحيفة التى يرسم فيها وجه الأرض وما فيها من جبال وبحار وغير ذلك ، كان هذا الإطلاق صحيحا ، باعتبار أن الصحيفة المشتملة على ذلك كالعارفة به ، فهو وصف مجازى يكثر مثله فى العربية [١] » .

١٦ – فى المجلد الثانى والثلاثين الذى صدر سنة ١٩٣١ وجدت الكلمتين التاليتين :

الرثية – الروماتيزم .

الجعة – البيرا .

المصارف – البنوك [٢] .

وكذلك وجدت فى « تفسير المنار » الكلمات التالية :

جِنة النسم – الميكروبات .

المكبرة – الميكروسكوب [٣] .

التلغراف الهوائى – اللاسلكى .

المذياع – الراديو .

أنواط المصارف المالية – بنك نوت [٤] .

---

(١) المنار ، ص ١٩٧

(٢) المنار ، المجلد ٣٢ ص ٣٢ و ٦٢٥

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٢٣٧

(٤) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٤٧٣ و ٣٢٩ ، وكرر استعمال كلمتى التصوير الشمسى الفتوغرافيا والبرقيات للتلغرافات ، ص ٤٧٣

وفى كتاب « السيد رشيد رضا » وجدت الكلمات التالية :

الأمشاج – الدشت (أضبارات المطبوعات الزائلة والمجهولة) .

العكس الشمسى – التصوير الفوتوغرافى .

مثل الطبع – بروفة الطبع .

إيذان – الكمبيالة التى يرسلها المصرف لدفع مستحق من الأموال [1] .

وكأنى أفهم أن رشيدا قد ارتضى تعريب كلمة (الدكتوراه) لأنه يعبر عنها بقوله « شهادة الدكتورية [2] » فنسب إلى كلمة « دكتور » على الطريقة العربية .

ومن الكلمات التى سبق إلى استعمالها رشيد كلمة « مقومات الأمة » فهو يقول : « المراد بالمقومات مابه قوام الأمة من صفاتها التى تفضلها على غيرها ، كمقومات الفصل لأنواع الجنس فى اصطلاح المنطق ، وقد سبقتُ إلى استعمال هذا الاصطلاح فى شئون الأمم هنا وفى المنار فيما أعلم ، ثم استعمله الكتاب [3] » .

ومن الكلمات التى سبق إليها أيضا كلمة « الاعتماد على النفس » فقد كتب فى مجلة « المنار » عدد أول المحرم سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩م) مقالة بهذا العنوان ، فقال أحمد فتحى زغلول وقتئذ : إننى استعملت

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٥٥٣ ، ٧٤٧ و ٧٩٧ و ٦٦٦ .
(٢) المنار ، المجلد ٩ ص ٨٧٨ .
(٣) تفسير المنار ، ج ١ ص ٣١١ .

هذه الكلمة فى ترجمة كتاب « سر تقدم الإنكليز » الذى يطبع الآن ، وأراك سبقتنى إلى استعمالها .

يقول رشيد متواضعا : « ثم كثر استعمال هذه الكلمة بانتشار هذا الكتاب لابمقالتى [1] » .

ولقد سبق لى فى كتاب « أمير البيان شكيب أرسلان » أن ذكرت عن شكيب أنه أسهم منذ زمن متقدم فى وضع المصطلحات والكلمات العربية فى مقابل الكلمات الأفرنجية ، وأوردت مجموعة من هذه الكلمات وما يقابلها ، ثم قلت إنى لا أجزم بأن أمير البيان هو أول من دعا إلى استعمال هذه الكلمات فى هذه المواطن ، فقد يكون سابقا فى بعضها ، وقد يكون غيره شاركه أو سبقه فى الدعوة إليها ، وتحديد هذا كله يحتاج إلى بحث مستقل [2] .

وهنا أقول مثل هذا ، ولكن حسب رشيد رضا أنه بكر إلى استعمال هذه المفردات ، وحاول إشاعتها عن طريق الاستعمال لها والدعوة إلى استعمالها .

* * *

فرائد اللغة العربية :

لايبعد عن هذا المجال ماصنعه رشيد فيما سماه « فرائد اللغة العربية » فقد وجد فى اللغة « فرائد كفرائد اللآل ، قد أهملت على جدارتها

(١) المنار ، المجلد ١٧ ص ٤٧٦ .

(٢) أمير البيان ج ١ ص ٤٦٩ و ٤٧٠ .

بالاستعمال .» ، ومن بينها مفردات يؤدى الواحد منها معنى جملة ، فشرع فى جمع هذه الكلمات قبل أن يهاجر إلى مصر ، وكتب منها أوراقا من حرفى الهمزة والباء ، رأيتها بين ماعثرتُ عليه من أوراق رشيد، ولكنه لم يواصل هذا البحث المفيد ، واكتفى بأن نشر من هذه الكلمات ما يزيد عن أربعين كلمة فى مجلة « المنار » فى المجلد العاشر ، وأكتفى بنشر أمثلة من هذه الفرائد :

١ ــ التجديذ : أن تستتبع القوم فلا يتبعك أحد .

٢ ــ الأوشاب : أخلاط الناس المتفرقون ، ومثلها (الأوزاع)

٣ ــ المتنفج : الذى يفتخر بأكثر مما عنده .

٤ ــ الوهين : الرجل يكون مع الأجير يحثه على العمل .

٥ ــ التنصى : التزوج من أشراف القوم [1] .

٦ ــ أبدأ الصبى : خرجت أسنانه بعد ظهورها .

٧ ــ البدئ : البئر التى حفرت فى الإسلام .

٨ ــ القليب : البئر التى لايعرف لها رب ولا حافر .

٩ ــ البراء : أول ليلة من الشهر [2] .

لو أن رشيدا واصل جهده فى هذا المجال لخرج لنا بمجموعة كبيرة من هذه الألفاظ التى يعطى كل منها معنى جملة من الجمل .

---

(١) المنار ، المجلد ١٠ ص ٢٩١ و ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

لكنه مما ينبغى أن أذكره هنا أن صديقا جليلا لرشيد هو أحمد تيمور باشا قد حاول المحاولة التى أرادها رشيد ، وخطا فيها خطوات أوسع من خطوات رشيد . وأحمد تيمور هو ابن إسماعيل باشا تيمور ، وهو من أصل كردى ، وقد ولد بالقاهرة فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٨٨ ﻫ (نوفمبر سنة ١٨٧١ م) .

وأراد له والده أن يتعلم فى مدرسة فرنسية ، ولكن نفسه مالت بعد ذلك إلى دراسة العلوم العربية فبرع فيها ، وتلقى عن المشايخ : رضوان محمد المخللاتى ، وحسن الطويل ، ومحمد محمود الشنقيطى ، وحضر دروس الشيخ محمد عبده ، وصادق الشيخ طاهر الجزائرى ، وكان له غرام عجيب بجمع النفائس من الكتب العربية ، حتى جمع عشرين ألف مجلد ، وكان يطلع فيها ، ويعلق عليها ، ويستخرج منها.

وكان عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، والمجمع العلمى المصرى ، وله كتب أغلبها فى علوم اللغة والتاريخ ، وقد نشر عدد منها فى حياته ، وعنيت لجنة نشر المؤلفات التيمورية بنشر باقيها بعد وفاته .

وقد توفى بالسكتة القلبية فى ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٤٨ ﻫ (إبريل سنة ١٩٣٠ م)[1] .

وكان أحمد تيمور صديقا لرشيد رضا ، وبدأت الصداقة عقب هجرة رشيد إلى مصر ، وعاون عليها اتصال الرجلين بالشيخ محمد عبده

(١) تراجع ترجمته فى كتاب « ذكرى أحمد تيمور » وكتاب « لعب العرب » وكتاب « مصادر الدراسة الأدبية » والمنار ، المجلد ٣٠ .

واتفاق مشربهما الدينى واللغوى ، وكان تيمور يحضر دروس رشيد فى المسجد الحسينى بالقاهرة ، ويقول عنه رشيد : « صديقنا وأخونا فى الله عز وجل الأستاذ العالم المؤرخ الأديب السلفى أحمد تيمور باشا[1] »

ومحاولة تيمور التى أشرنا إليها تظهر فى كتابه « البرقيات للرسالة والمقالة » ، وقد جمع فيه أكثر من مائتين وخمسين كلمة من الكلمات التى يستغنى الإنسان بالكلمة فيها عن جملة أو جمل ، والظاهر أن رشيدا لم يعلم بهذه المحاولة من صديقه ، لأنه لم يشر إليها فى رثائه لتيمور ، ولأنه لم يذكر هذا الكتاب بين ماذكره من مؤلفاته ، وكذلك لم يذكر كتابُ « مصادر الدراسة الأدبية » هذا الكتاب حين ترجم لتيمور[2].

وقد طبع كتاب « البرقيات » لأول مرة سنة ١٩٤٩ ، وأذكر فيما يلى نماذج من الكلمات الواردة فيه :

١ ـ أكى : كرمى ، استوثق من غريمه بالشهود .

٢ ـ تألقت المرأة : شمرت للخصومة ، واستعدت للشر ، ورفعت رأسها .

٣ ـ التناهد : إخراج كل واحد من الرفقة نفقة على قدر نفقة صاحبه .

---

(١) المنار ، المجلد ٣٠ ص ٧٨٤ .

(٢) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٥ . ومن أخطاء هذا الكتاب أنه حكم فى سنة ١٩٥٦ على محمود تيمور بالوفاة ، وعلى شقيقه محمد تيمور بالحياة ، والواقع هو العكس . انظر ٢٣٢ .

٤ — التاثر : المداوم على العمل بعد فتور .

٥ — جردب : وضع يده على الطعام يكون بين يديه على الخوان ، لئلا يتناوله غيره .

٦ — تخازر : ضيق جفنه ليحدد النظر .

٧ — زوقل : زوقل فلان عمامته أرخى طرفيها من ناحيتي رأسه .

٨ — طهفل : أكل خبز الذرة ، وداوم عليه لعدم غيره .

٩ — كمهل : جمع ثيابه وحزمها للسفر .

١٠ — المباءشة : أن تأخذ صاحبك فتصرعه ، ولا يصنع هو شيئا .

١١ — الترويق : أن تبيع سلعة وتشترى أجود منها [١] .

إن هناك تشابها بين عمل رشيد وعمل تيمور ، وقد تقاربا فى الزمن وإن كان يغلب على الظن أن عمل رشيد سبق عمل صاحبه بقليل ، وقد نشر نماذج منه وسط عام ١٩٠٧ ، ولم يطبع كتاب تيمور كما عرفنا إلا سنة ١٩٤٩ .

ولو أن العملين تماثلا فى الزمن ، وعرف كل من الرجلين بعمل صاحبه لما غض ذلك من جهد أحدهما ، فكل منهما خدم بعمله لغة القرآن وأدب العرب ، وليتنا نجد من يخلفهما فيكمل عملهما فى هذا الباب .

(١) البرقيات ، ص ٣ و ٤ و ٧ و ٩ و ١٣ و ٢٠ و ٣٠ و ٣٩ و ٥٣ و ٦١ (على التوالى).

إحياء مفردات غريبة :

إذا كان السيد محمد رشيد رضا قد أسهم بجهده المشكور فى حركة الإحياء اللغوى ، بالغيرة على العربية ، والحث على تعلمها ، والدفاع عنها ، والتنقيب عن المصطلحات فيها ، واستخراج فرائدها ، فإنه مع هذا قد حاول إحياء طائفة من المفردات العربية الغريبة النادرة الاستعمال ، وقد تتبعت هذه المفردات فى كتابات رشيد الواسعة الضخمة ، فجمعت منها قدرا صالحا للتدليل على شغفه بإحياء ماانـدثر أو انطوى من درر هذه اللغة العربية المقدسة . وأذكر فيما يلى هذه المفردات مع استكمالى شرح ما لم يشرحه رشيد منها :

تبيغ دمه — أى ثار فى جسمه ، والبيغ ثوران الدم

صيرها — الصِّير — بكسر الصاد — شق الباب ، وهو حيث يلتقى الرتاج والعضادة .

الكلام المعسلط — الذى لانظام له .

رس — يقال سمعت رسا من خبر ، أى طرفا منه .

يتذقح — يدعى عليه الجرم باطلا .

اللغم — الإخبار بالشى من غير يقين .

اللماج — أدنى مايؤكل .

السمول — ثوب خلق .

الأرشية — جمع رشاء ، وهو حبل الدلو .

أنفجانى — متكبر بما ليس عنده .

أوغطارى — الرجل لاخير عنده ولا شر .

الإداد — جمع إد ، وهو المنكر والداهية .

الفسكل — الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل .

الجالعة — المرأة المتبرجة .

الصفاصف — الأرض السهلة المستوية [١] .

انبعق — انفتح بشدة .

أرضك — أغمض عينيه وفتحهما .

مُقْهل — أقهل الرجل تكلف مالا يعنيه ، ودنس نفسه .

الروائم — الأثافى ، أى أحجار القدر .

المُقْنِس — المدعى شرفا وهو خسيس ، من أقنس إذا ادعى إلى أصل شريف وهو خسيس .

الأثابى — الجماعات .

الصواكم — النوائب [٢] .

التعار — تكلم الإنسان فى يقظة خفيفة من نومه ، ثم يأخذه النوم [٣] .

التحوت — الأراذل السفلة [٤] .

---

(١) هذه الكلمات السابقة وردت فى المنار ، المجلد الأول ، ص ٤٤ و ٩٣ و ١٢٦ و ١٣٦ و ٢٠٠ و ٢٠٣ و ٢١٧ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٤ و ٣٨٠ و ٣٠٣ و ٣٠٥ (على التوالى) .

(٢) هذه الكمات وردت فى المنار ، المجلد الثانى ، ص ٣٩ و ١٨٧ و١٨٨ و١٨٩ (على التوالى) .

(٣) هذه الكلمة وردت فى المنار المجلد ٣ ص ٢٤١ . (٤) المنار، المجلد ١٢ ص ١١ .

الفَنَع — مصدر فنع الرجل إذا كثر ماله ونما ، والكرم والعطاء ، والجود الواسع ، والفضل الكبير [١] .

تتايعت — التتايع بالمثناة التحتية بمعنى التتابع بالباء الموحدة ، إلا أن التتايع خاص بالشر [٢] .

أصوار — جمع صور ، وهو البوق ، أى القرن ينفخ فيه [٣] .

الحلاحل — السيد الشجاع ،أو الضخم الكثير المروءة .

المتهوكون — المتهوك المتحير ، والساقط فى هوة الردى .

شناخيب — جمع شنخوب أو شنخاب وهو أعلى الجبل. ،

التهاشيب — النبذ المتفرقة من العشب .

الانملاص — الانفلات ، وانملص : انفلت .

الغيدار — الذى يسىء الظن فيصيب .

حمزت — لذعت ، وحمز الشراب اللسان : لذعه .

حلس الفراش — هو حلس بيته ، إذا لم يبرح مكانه .

حكشة — جماعة ، الحَكْشُ — بفتح فسكون — تجمع الشىء .

الطارقة — سرير صغير .

---

(١) المنار ، المجلد ١٥ ص ٤٥٠ .

(٢) المنار ، المجلد ١٧ ص ٦٧٠ .

(٣) المنار ، المجلد ٣٥ ص ١٣٦ .

أردمت – أردمت الحمى دامت[1] .

تتناوح – تتقابل ، والتناوح : التقابل[2] .

لعل بعض هذه الكلمات لم يكتب لها من اتصال الاستعمال ماأراد رشيد ، ولعله كان يتعمد البحث عن الكلمة الغريبة ليستعملها ، فيكون هناك لون من التكلف فى استعمالها ، ولكن هذا المجهود من رشيد محمود على كل حال ، وهو قد أدى فى هذا المجال مارآه واجبا عليه ، ولو أن كل قادر على مثل هذا أدار على لهاته أو شباته قدرا من الكلمات الغريبة أو المهجورة ، وحرص السامع أو القارئ على أن يستعمل هذه الكلمات فى مناسبتها ، لتضاعفت الثمرات المرجوة من وراء حركة الإحياء للغة العربية .

* * *

(١) الكلمات السابقة فى كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣١٤ و ٣١٥ و ٣٤٤ و ٣٦٠ و ٣٨٧ ٤٣٥ و ٤٥٢ و ٤٨٢ و ٤٩٦ و ٥٢١ و ٧٧٨ ، ٧٩٧ و ٥٢٦ .

(٢) فتاوى مهمة ، ص ١٦ .

ملاحظات لغوية على رشيد

أذكر فيما يلى طائفة من الملاحظات اللغوية التى لاحظتها على رشيد رضا ، وأذكر عقب كل ملاحظة منها رأيى فيها :

١ — استعمل رشيد كلمة « توفر » بمعنى وجود الشىء بوفرة ، فجاء فى كلامه قوله : « لعدم توفر دواعى النجاح [١] » . وقوله : « فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى مايحصل بالحس والعقل [٢] » وقوله عن حفل عقد قرانه — وقد سبق هذا القول — : « وتوفرت فيه أسباب السرور » .

والصواب أن يقول : « توافر » ، لأن كتب اللغة تقول : توفر عليه ، أى رعى حرماته ، وتوفر فلان على فلان ببره ، وتوفر على كذا إذا كان مصروف الهمة إليه ؛ ويقال : هم متوافرون ، أى فيهم كثرة ، أوهم كثير ، وقيل : وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون [٣] .

٢ — واستعمل رشيد كلمة « قاصرة » بمعنى « مقصورة » ، فقال عن جمال الدين ومحمد عبده : « لم تكن خدمة الشيخين للإسلام فى أوربة قاصرة على الوعظ والإرشاد » . وقال : « فصارت قاصرة

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٧٢ .
(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ٦٩ .
(٣) لسان العرب ، ج ٥ ص ٢٧٧ . وترتيب القاموس، ج ٤ ص ٥٧٤ ، وأساس البلاغة ، ج ٢ ص ٥١٩ ، وأمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ص ٤٥٨ .

على مايصل إليه علم الأُميين » . وقال : « فلو كان شرح ابن أبى الحديد قاصرا على تفسير غريبه » . وقال : « فقلما تكون رذائلهم قاصرة عليهم » . وقال : « وقد يجيزه له إذا كان قاصرا عليه » ، وقال : « زعموا أن نص القرآن قاصر عليها تعبدا [1] » .

والصواب أن يقول : مقصورة أو مقصور ، لأنه اسم مفعول من قصره على كذا ، بمعنى حبسه عليه لا يتعداه ، وقد جاء فى لسان العرب : «وناقة مقصورة على العيال : يشربون لبنها » ، وجاء فى « أساس البلاغة » : « وقصرت هذه اللقحة [2] على عيالى وعلى فرسى ، ولهم ، إذا جعل درها لهم » و « قصرت نفسى على هذا الأمر إذا لم تطمح إلى غيره ، وقصرت طرفى : لم أرفعه إلى مالا ينبغى » . وفى « النهاية : » يقال : قصرت نفسى على الشيء إذا حبستها عليه وألزمتها إياه ... وفى الحديث : وليقصرنه على الحق قصرا ... وفى حديث ابن عباس : قُصر الرجال على أربع ، أى منعوا عن نكاح أكثر من أربع [3] » .

٣ — ويقول رشيد رضا : « فهل من العدل ترجيح يوم أحد عشر مليونا ونيف من أهلها أم ترجيح يوم من أيام الملل التى يتألف منها بقية المصريين » . ويقول : « ولا أدرى هل أجد فى مذكراته مايحدث لى أملا فى المؤتمر أم لا » . ويقول « وهل يكون هذا التصدير طويلا أم قصيرا » ويقول : « هل غاية طلب العلم تحصيل ملكة الفهم أم

---

(١) المنار ، المجلد ٨ ص ٤٥٦ . والمجلد ١٠ ص ٨٥٥ . والمجلد ١٤ ص ٨٦٨ وتفسيرالمنار ص ٦٠ و ٦٨ و ٨٠ .

(٢) اللقحة — بكسر فسكون — الناقة الحلوب .

(٣) لسان العرب ، ج ٥ ص ٩٨ وأساس البلاغة ، ج ٢ ص ٢٥٦ والنهاية ج ٢ ص ٢٥٧ وأمير البيان شكيب أرسلان ج ٢ ص ٤٥٤ .

تحصيل ملكة العلم ... هل يطلب من علماء الدين معرفة علوم الكون ولو إلماما أم لا ؟ هل يجيب على علماء الكلام استبدال الرد على فلاسفة هذا العصر ومبتدعته بالرد على قدماء الفلاسفة والمبتدعة أم لا ؟ هل انتشر الدين الإسلامى بكونه حقاً يلائم حال البشر أم بالقوة والسيف ؟ هل أفادت الجرائد البلاد العربية أم أضرت بها ؟ هل نفع الشرقيين دخول الأجانب بلاد الشرق أم أضربهم ؟ (١) » .

وقد ذكرت فى كتاب « أمير البيان » أن أكثر علماء النحو على أن (هل) لايؤتى معها بمعادل ، وفى كتاب شرح السعد فى البلاغة جاء هذا النص : « هل يتنبه أم لا : أم هذه منقطعة على ماهو تحقيقه ، فما قيل : الصواب أيتنبه أم لا ، ليس بصواب ، على أن أم المتصلة تجىء مع هل على قلة كما فى الرضى (٢) » .

وفى الكتاب أيضاً عند الكلام على (أم) :

« تقرر فى كتب النحو أن (هل) لايؤتى لها بمعادل ، على أن ابن مالك جوز وقوعها موقع الهمزة ، فيؤتى لها بمعادل (٣) » .

وكان الأجدر برشيد أن يتبع الأصل ، وأن يتابع جمهرة النحاة .

٤ — ويقول رشيد : « إزالة المنكرات وعمل المعروف بواسطة التعليم ، لابواسطة الجبر والإلزام » . ويقول : « هذا الاقتراح حتى بواسطتنا (٤) » .

---

(١) المسلمون والقبط ، ص ٦٦ والسيد رشيد رضا ، ص ٣٣٥ و ٦٠٦ والمنار والأزهر ص ٢٣٩ و ٢٤٠ . (٢) شرح السعد ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، وانظر أمير البيان شكيب أرسلان ، ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤) المنار ، المجلد الأول ، ص ٤٧ . والمجلد ٣ ص ٦٧ .

والصواب أن يستعمل « الوساطة » مكان « الواسطة » ، لأن الواسطة — كما يقول القاموس — هى مقدم الكور ، وجاء أيضاً فى القاموس : « توسط بينهم ، عمل الوساطة وأخذ الوسط بين الجيد والردئ » ، وجاء فى « مفردات القرآن » للأصفهانى : « كان فى واسطة قومه وأرفعهم محلا[1] » . وقد ذكر رشيد أنه جارى العلماء فى هذا الاستعمال ، ولكن هل تصلح هذه المجاراة حجة له إذا كان من يجاريهم ليسوا من الذين يحتج بكلامهم[2] ؟ .

ورشيد نفسه قد استعمل كلمة « الوساطة » فى قوله : « فإن لم يجئنا بيان له فسأكتب إليك بوساطة جريدة البيان إن شاء الله تعالى[3] » .

٥ — ويقول رشيد : « . . . أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية[4] » فجعل كلمة « الأنانية » نسبة إلى كلمة « أنا » .

وهذه النسبة غير صحيحة ، لأن كلمة « الأنانية » كلمة مولدة ، وكلمة « أنا » ينطق بها أكثر العرب فى حالة الوصل دون ألف ، ويختمونها بالألف فى الوقف ، وقد يقفون عليها بهاء السكت ، فيقولون : أنه ، وبنو تميم يثبتون فيها الألف وصلا ووقفا .

---

(١) مفرادات القرآن ، ص ٥٤٤ .

(٢) انظر السيد رشيد رضا ، ص ٤٠٤ . وأمير البيان ، ج ١ ص ٤٥٧ .

(٣) السيد رشيد رضا ، ص ٤٦١ .

(٤) خلاصة السيرة المحمدية ، ص ٧ .

ولهذا اختلف النحاة فى كلمة « أنا » فقال البصريون إنها ثنائية ، مؤلفة من الهمزة والنون فحسب ، والألف تجتلب لبيان الحركة فى الوقف ، كهاء السكت ، وقال الكوفيون إن الكلمة ثلاثية ، وسقوط الألف عند الوصل إنما هو للاستخفاف .

يقول الشيخ محمد على النجار : « ويختلف النظر فى النسب إلى (أنا) باختلاف المذهبين السالفين : فإذا نسب إليها على أنها ثنائية كان ذلك كالنسب إلى نحو هل وكم ، والمعروف أن يقال فى النسب إلى كم : الكمى والكمية ، ويجيز بعضهم أن يقال : الكَمِية بتخفيف الميم — وبالقياس على هذا يقال فى النسب إلى (أنا) الأنيه والأنيّه ، بتخفيف النون وتشديدها .

فأما على القول بأن الكلمة ثلاثية فعلى لغة أكثر العرب — وهى حذف ألفها وصلا[1] — تكون مثل يد وغد ، مما حذفت لامه اعتباطا لغير علة . وترى الثالث المحذوف لايرد فى التثنية ولاجمعى التصحيح . ومثل هذا فى قياس النحو يجوز فيه الرد وعدمه ، فتقول على هذا : أنى وأنوى ، كما يقال فى النسب إلى غد : غدى وغدوى .

وعلى ذلك فالوجه أن يقال : الأنوية والأنية والأنية ، فهذه الصيغ الثلاث هى الجارية على المنهاج النحوى ، فأما الأنانية فهى مجافية لهذا المنهاج ، ولم ترد هذه الصيغة فيما شذ من صيغ النسب فتقبل[2] » .

---

(١) فى الأصل : « وهى حذفها أصلا » . والمناسب ماذكرته .

(٢) لغويات ، ج ٢ ص ٥٦ .

٦ – ويقول رشيد : « . . . لأجل إرجاعهم إلى الإسلام » ويقول : « إذا كنتم فى علمكم هذا قد أرجعتم جميع العناصر التى تألفت منها مادة الكون إلى شىء واحد » . ويقول : « وما كان لى أن أطمع بإرجاعه عما يبغيه من الكسب بشعره[1] » .

فأتى بالفعل « أرجع » متعديا ، وجاء بالمصدر منه فقال « إرجاع » ، مع أن الفعل الثلاثى « رجع » يستعمل متعديا ولازما ، فإن كان بمعنى الإعادة كان متعديا ، والمصدر منه « الرَّجْع » وإن كان بمعنى العودة فهو لازم ، والمصدر منه الرجوع ، وفى « مفردات القرآن » للأصفهانى : « الرجوع العودة ، والرجع الإعادة[2] » .

ويقول اللغوى ابن مكى الصقلى : « لايقال أرجع ، فى شىء ، إلا فى قولهم : ارجع يده فى كمه ، وماسوى ذلك فإنما يقال فيه : رَجَعه ، قال الله تعالى (يرجع بعضهم إلى بعض القول) . وفى الحديث (إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه) . وقد أجازبعضهم : ما أرجعت إليه كلمة . والأول أحسن[3] » .

واستعمال فعل « رجع » الثلاثى متعديا من أسلوب القرآن الكريم الذى يتخذه رشيد مثلا أعلى له فى التعبير . ففى سورة التوبة : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم » .

(١) خلاصة السيرة المحمدية ، ص ٥٨ . وتفسير المنار ، ج ٣ ص ٢٧ والمنار ، المجلد ٣٥ ص ٧٦ .

(٢) مفردات القرآن ، ص ١٨٧ .

(٣) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، ص ١٥٣ . وقد جاء فى هامشه أن شرح أشعار الهذليين للسكرى ذكر أن لغة هذيل : أرجعته .

وفى سورة طه : « فرجعناك إلى أمك » .

وفى سورة سبأ : « يرجع بعضهم إلى بعض القول » .

وفى سورة الواقعة : « ترجعونها إن كنتم صادقين » .

وفى سورة الممتحنة : « فلا ترجعوهن إلى الكفار » .

وفى سورة الملك : « فارجع البصر » .

وفى سورة الطارق : « إنه على رجعه لقادر » .

ورشيد نفسه تعرض لتفسير قوله تعالى : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم » فقال : « فعل (رجع) يستعمل لازما كقوله تعالى : (فرجع موسى إلى قومه) وقوله : (فلما رجعوا إلى أبيهم) ومصدره الرجوع ، ويستعمل متعديا كهذه الآية ، وقوله : (فرجعناك إلى أمك) ومصدره الرجع [1] » .

٧ — ويقول رشيد وقد خطب خطبة لم يطل فيها : « ثم اعتذرت عن الإطالة بذهاب الوقت المعين ، وبما ألم بالحاضرين من الجوع والسآمة [2] » . والصواب أن يقول : « ثم اعتذرت عن عدم الإطالة » لأنه لم يطل ، فكيف يعتذر عن شىء لم يفعله ؟ .

وقد استقام تعبير رشيد فى مثل هذا فى موطن آخر حيث قال : « أرجو العذر فى عدم الاستيفاء [3] » .

(١) تفسير المنار ، ج ١٠ ص ٦٦١ .

(٢) المنار ، المجلد ١١ ص ٦٣٢ .

(٣) مناسك الحج ، ص ٥٤ .

٨ – ويقول رشيد : « ألم تر أن المسيحيين الغيورين[1] ، فجمع كلمة « غيور » على « غيورين » ، مع أن من شروط جمع الكلمة على صورة جمع المذكر السالم أن لايستوى فى الوصف بالكلمة المذكر والمؤنث كصبور وغيور وجريح ، فإنه يقال فيها : رجل صبور ، وغيور ، وجريح ، وامرأة صبور ، وغيور ، وجريح ؛ وقد نص على ذلك محمد بن على الصبان فى حاشيته على شرح على بن محمد الأشمونى لألفية ابن مالك[2] .

وجاء فى حديث أم سلمة : « إن لى بنتا وأنا غيور » . وهو فعول من الغيرة ، وهى الحمية والأنفة . ويقال : رجل غيور وامرأة غيور بلاهاء ، لأن فعولا يشترك فيه الذكر والأنثى[3] .

وجاء فى « لسان العرب » أن جمع غيور هو : غُيُر – بضمتين ؛ يقال : رجال غُيُر ، ونساء غُيُر[4] .

٩ – واستعمل رشيد كلمة « قرفت » بمعنى ضجرت وسئمت ؛ وهذا استعمال غير معروف فى اللغة ، ففى « النهاية » : قرف على نفسه ذنوبا ، أى اقترفها ، وقرف الذنب واقترفه إذا عمله ، وقارف الذنب وغيره إذا داناه ، والقرف – بفتح القاف والراء – ملابسة الداء ومداناة المرض والتلف والهلاك ، وفى الحديث أن قوما شكوا إلى رسول الله صلى

---

(١) المسلمون والقبط ، ص ٦٣ .
(٢) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ، ج ١ ص ٨١ طبعة الحلبى .
(٣) النهاية لابن الأثير ، ج ٣ ص ١٧٩ .
(٤) لسان العرب ، ج ٥ ص ٤٢ . .

الله عليه وسلم وباء أرضهم ، فقال لهم : « تحولوا فإن من القرف التلف »[١] .

وقد آخذ شكيب أرسلان رشيدا على هذا الاستعمال وقال عنه : « هو استعمال عامى لاأصل له من اللغة[٢] » .

١٠ — نشر رشيد قصيدة للكاظمى فى الفخر ، ومنها قوله :

يخالون أن الطود يؤلمه الحصا   وأن السبنتى بالنباح يروع

ثم علق رشيد على كلمة « السبنتى » بقوله : « لم أجد هذه الكلمة : ولا أذكر أننى رأيتها فى غير هذه القصيدة ، والمسبنتى والمسبنتأ : من كان رأسه طويلا[٣] » .

وهذا عجيب ، لأن الكلمة موجودة فى « القاموس المحيط » ، وهو يقول : « السبنتى » : الجرىء ، والنمر ، وجمعه سبائت[٤] » .

وفى « لسان العرب » عبارة طويلة عن « السبنتى » تكاد تبلغ عمودا من أعمدة الكتاب فى طبعته البيروتية ، وفى هذه العبارة أن السبنتى هو الجرىء المقدم من كل شىء ، والياء للالحاق لاللتأنيث ، وأن السبنتى هو النمر ، ويشبه أن يكون سمى به لجرأته ، وقيل السبنتى : الأسد ، وذكر قول الشاعر :

وما كنت أخشى أن تكون وفاته   بكفى سبنتى أزرق العين مطرق[٥]

---

(١) النهاية لابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٤٥

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٣٥٧

(٣) المنار ، المجلد ٣ ص ٣٧٦

(٤) ترتيب القاموس ، ج ٢ ص ٤٦٩

(٥) لسان العرب ، المجلد الثانى ، ص ٣٩

وفى « معجم مقاييس اللغة » أن السُبنتى النمر ، وكذلك « السبنداة » ، واستشهد بالبيت السابق ، وهو للشماخ وإن لم يرد فى ديوانه ، فقد جاء منسوبا إليه فى مقطوعة له فى كتاب الحماسة »[١] .

فكيف غاب هذا عن رشيد ؟ . وكيف تعجل فقال ماقال ؟ .

١١ — يقول رشيد : « إن الناموس يطلق على شريعة موسى الأدبية والطقسية والسياسية ثم يقول : « وأما الناموس الطقسى — أو ناموس الشعائر الدينية — فكان دستور العبادة العامة والخاصة ، وبه تعرف كيفية الذبائح والتطهير والصلاة والأعياد »[٢] .

وكلمة « الطقس » هذه لم أجدها فى أساس البلاغة ، ولا فى القاموس المحيط ، ولا فى لسان العرب ، ولا فى النهاية ، ولا فى معجم مقاييس اللغة ، ولا فى التذكرة التيمورية ، فمن أين جاء بها رشيد ؟ .

١٢ — فى رسالة من رشيد إلى أخيه حسين وصفى رضا كتبها فى جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ هـ يقول : « تذكرت عبارة رأيتك تستعملها ، وربما صححت مثلها فى كلامى عندما كنت فى سورية ، وهى استعمال فعل : كاد يكاد ، مع النفى . أنا أقدم حرف النفى على الفعل فأقول : ماكاد يفعل ، ولم يكد يفعل ، وأنت تعكس ، وكنت إذا رأيت مثل هذا أنوى مراجعتك فيه ، ثم أنسى ، وما أدرى من أين جئت به » ؟ .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، ج ٣ ص ١٦١ وهامش ص ١٦٢

(٢) المسلمون والقبط ، ص ٥١

يقول رشيد هذا ، ولو رجعنا إلى كتاب « مفردات القرآن » للأصفهانى مثلا لوجدناه يقول مانصه : « ووُضع كاد لمقاربة الفعل . يقال : كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل ؛ وإذا كان معه حرف نفى يكون لما قد وقع ويكون قريبا من أن لايكون ، نحو قوله تعالى : لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا — وإن كادوا — تكاد السموات — يكاد البرق — يكادون يسطون — إن كدت لتردين . ولا فرق بين أن يكون حرف النفى متقدما عليه ، أو متأخرا عنه ، نحو : وما كادوا يفعلون — لايكادون يفقهون حديثاً . . . [1] » .

ولو رجعنا أيضاً إلى « لسان العرب » لوجدنا فيه مايفيد أن « كاد » وضعت لمقاربة الشىء فُعل أو لم يُفعل ، وهى تنبىء عن نفى الفعل إذا كانت مجردة ، وتنبىءُ عن وقوعه إذا كانت مقرونة بنفى ، ومعنى « كاد » هم وقارب ولم يفعل ، ولم يكد يفعل : أى قد فعل بعدشدة . قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب قاربت الفعل ولم أفعل ؛ وماكدت أفعل معناه فعلت بعد إبطاء ، وشاهده قوله تعالى : «فذبحوها وماكادوايفعلون » أى فعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم [2] .

١٣ — ويقول رشيد عن نكبات الحرب العالمية الأولى فى الشام ، والجوع الذى أصاب الشعب فزلزل النفوس والأخلاق : « فكانت أعراض النساء عروض تجارة ، وأبضا عهن بضائع ربح ، وكانت الحرة تموت ولا تأكل بثدييها ، وفاقا للمثل العربى [3] . » .

---

(١) مفردات القرآن، ص٤٥٩ (٢) لسان العرب ، مجلد ٣ ص٣٨٢— ٣٨٥

(٣) المنار ، المجلد ٢١ ص ٥٠٣

والظاهر هنا أن رشيدا أراد من الأكل بالثديين معنى بذل العرض في سبيل المال ، ومورد المثل لايشجع على هذا الاستعمال ، فقد روى الميداني في « معجم الأمثال » هذا المثل بروايتين أولاهما : « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » ، والأخرى : « تجوع الحرة ولاتأكل ثدييها » . وقال في تفسيره : « أي لاتكون ظئرا وإن آذاها الجوع » والظئر هي المرضع ، فالمعنى هو أن الحرة تفضل الجوع على أن تجعل نفسها مرضعة بالأجرة لغير ولدها .

وقد قال هذا المثل الحارث بن سليل الأسدي للزباء بنت علقمة بن خصفة الطائي ، حينما تزوجها ، وكان كبير السن ، فلم يعجبها ، فقد كانت تفضل زواج الشباب على الشيوخ .

وبينما علقمة جالس بفناء قومه ، والزباء إلى جانبه ، إذ أقبل إليه شاب من بني أسد ، فبدأ التأثر على الزباء وبكت فقال : ما يبكيك ؟ قالت : مالي وللشيوخ الناهضين كالفروخ . فقال لها : ثكلتك أمك تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .

وقال الميداني إن معنى ذلك هو : لا تأكل أجرة ثدييها ، أو لاتعيش بسبب ثدييها وبما يغلان عليها[١] .

١٤ — يقول رشيد عن مجلتين دينيتين : « ويرى القارىء لهما في كل منهما فوائد كثيرة من تفسير السور الصغيرة التي تقرأ في الصلاة[٢] » .

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ، ج ١ ص ١٢٢
(٢) المنار ، المجلد ٣٢ ص ٦٣٥

والأليق بمكانة القرآن المجيد أن تستعمل كلمة « القصيرة » بدل « الصغيرة »، لأن القصر يستعمل فى مقابلة الطول، وهو يريد السور التى لم تطل آياتها ولم تكثر، وأما الصغر فهو — كما فى القاموس — خلاف العظم ومادة الصغر — كما فى أساس البلاغة — فيها معنى الرضا بالضيم، ويقال : تصاغرت إليه نفسه، صارت صغيرة الشأن ذلا ومهانة، ويقال : هو صغير القدر، وصغير فى العلم . . . إلخ .

١٥ — ويذكر رشيد قصيدة غزلية للشريف الرضى أولها :

من معيد لى أيامى بجزع السمرات

ويشير فيها إلى النساء الراميات للجمرات، وفيها يقول :

نظر يشغل عنا كل عين بقذاة
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة

ثم يعلق رشيد على هذا بقوله : « المهاة البقرة الوحشية تشبه بها المرأة النجلاء، لسعة عينيها وحسنهما، وأشار بغزال ومهاة إلى فتيان الهوى والفتيات اللاتى وصف موقفهن عند الوداع كما علم من ذكره النفر هنا وهو الدفع من منى [1] ».

ولم يؤلف فى الأدب العربى إطلاق الغزال على أحد الرجال، اللهم إلا عند المنحرفين الشواذ.

جاء فى « معجم مقاييس اللغة » أن الغزال معروف، والأنثى غزالة ولعل اسم الشمس مستعار من هذا [2] .

---

(١) المنار، المجلد ٢٠ ص ٣٢١ .
(٢) معجم مقاييس اللغة، ج ٤ ص ٤٢٢ .

وجاء فى القاموس : والغزال كسحاب : الشادن حين يتحرك ويمشى أو من حين يولد إلى أن يبلغ أشد الإحضار ، والشادن هو الظبى حين يستغنى عن أمه .

وفى « لسان العرب » أن الغزال من الظباء الشادن ، وتشبه به الجارية فى التشبيب ، فيذكر النعت والفعل على تذكير التشبيه [١] .

والشريف الرضى نفسه قد استعمل « الغزال » بمعنى المحبوبة ، فقال :

يا غزال الرمل قلبى لك منقاد الجنيب

ويقول :

أين الغزال الماطل بعدك يا منازل؟[٢]

وما المانع أن نفهم من قول الشريف: « من غزال ومهاة » أنه أراد أن هؤلاء النساء متنوعات الحسن ، فمنهن من تشبه الغزال ،ومنهن من تشبه المهاة ، وهى البقرة الوحشية والشمس ،والبلورة كما جاء فى القاموس المحيط ؟ . أو لعله أراد أن هؤلاء الحسناوات منهن الشواب الفواهد اللواتى يشبهن الغزلان ،ومنهن السيدات اللواتى يشبهن المهوات[٣]

١٦ — يقول رشيد عن « يوم التروية » — وهو اليوم الثامن من ذى الحجة — إن العوام فى مصر والشام يسمونه « يوم العرفة[٤] »

(١) لسان العرب ، المجلد ١١ ص ٤٩٢

(٢) ديوان الشريف الرضى ، ج ١ ص ٥٧ وج ٢ ص ١٣٥

(٣) تجمع المهاة على المها والمهوات والمهيات . (القاموس) .

(٤) مناسك الحج ، ص ٢١

والذى أعرفه أن العوام فى مصر يسمونه « يوم الوقفة الصغيرة » ، ويسمون يوم عرفة — وهو اليوم التاسع — « يوم الوقفة » أو « يوم الوقفة الكبيرة » .

١٧ — اضطرب موقف رشيد من إعراب الأعلام ، فتارة يظهر عليها حركات الإعراب مثل قوله : « رأيت أستاذنا الشهير الشيخ حسينا الجسر مشتركا فى المقتطف [١] » وتارة لا يظهرها مثل قوله : « وأمرت السيد عاصم أن يحرر لك حساب الكتب [٢] » وقوله : « حتى أن الشيخ قاسم إبراهيم قطع اشتراكه » . وقوله : « فراجعت رئيس النظار حسين رشدى باشا [٣] » وقوله : «وألزمت السيدعاصم أن يكتب لك الحساب [٤] »

والأكثر فى كتابة رشيد هو عدم إظهار الإعراب على أمثال هذ الأعلام .

أيكون رشيد قد رأى جواز الأمرين : إظهار الإعراب وتقديره؟ ه. وإذا كان الإظهارجاريا على سنن العربية المأثور فليته ذكر مايعتمد عليه فى تسويغ التقدير.

وهذا الموضوع قد شغل مجمع اللغة العربية بالقاهرة ردحاطويلا من الزمن. ويمكن أن أركز خلاصة لبحث المجمع فى هذا الموضوع بالكلمات التالية :

---

(١) المنار ، المجلد ١٩ ص ١١٢

(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٧٤١

(٣) المنار ، المجلد ١٨ ص ٣١٣

(٤) السيد رشيد رضا : ص ٦٧٣

فى آخر سنة ١٩٥٥ تقدم الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى المجمع ببحث يتضمن الميل إلى تسكين الأعلام فى مثل : « سافر محمدعلى حسن » ، ورجا الأستاذ رئيس المجمع أن يبحث هذا الاقتراح :

« إذا اجتمعت أسماء الابن والأب والجد فى جملة ،اجتماع نسبة جاز أن يحذف من بينها لفظ (ابن) ، وأن يجر اسما الأب والجد بالإضافة ، أو تسكن الأسماء الثلاثة على الحكاية [(١)] » .

وعرض هذا الاقتراح على « لجنة الأصول » فى المجمع . فلم تمل إلى إقرار التسكين ،ومال الدكتور طه حسين إلى طريقة التسكين ؛ وقال الأستاذ عباس محمود العقاد إنه يمكن تخريج التسكين على الحكاية .

وعارض فى ذلك الأستاذ إبراهيم مصطفى ، وعاد الأستاذ العقاد يقترح الاجتزاء بالإسكان فى إعراب الأعلام وحدها ؛وقال الدكتور طه : إن الحروف الساكنة فى أول السور أسماء لها ؛ وهى ساكنة ، فإذا قال قائل : أقيس عليها سرد الأعلام ؛ فلا ضير عليه . .

وقال الأستاذ زكى المهندس :إن الواقع المستقر أننا نسكن، وسيستمر التسكين حتى يجد اللغويون تخرجا لما ألفه الناس ، ولكن الأستاذ أحمد عمار علق على هذا بقوله : « هذا أول العامية » .

وقال الأستاذ إبراهيم مصطفى :إذا أردتم الإسكان فليكن تقريرا لأسلوب عامى شاع على الألسن ، فسجلته الضرورة.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ١٢ ص ٦١ — ٦٤.

وقال الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن هناك قراءة أثبتها الزمخشرى تقول : « تبت يدا أبولهب » بدلا من : « أبى لهب » ، وهذا على الحكاية .

وأضاف الأستاذ العقاد : إن الناس يقولون : « بنى سويف » فى جميع الأحوال ، ولا سبيل إلى حمل الناس على إعرابها.

وعاد الدكتور طه يقول مؤكدا : إن التسكين لا غبار عليه ، ولا مخالفة فيه لأصل من أصول اللغة[1] .

وانتهت لجنة الأصول فيما بعد إلى قرار عارضه فريق منها ، وهذا القرار هو :

« يجوز الوقوف بالسكون عند تتابع الأعلام فى مثل : (سافر محمد على حسن) ، مع حذف (ابن) تيسيرا على القراء والكتاب ، وتخلصا من صعوبة الإعراب » .

وفى السابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٦٥ ــ أى بعد عشر سنوات ــ أعيد بحث الموضوع فى مؤتمر المجمع.

وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن بعض ثقات المتقدمين يرى أن وظيفة الإعراب لاتعد وأن تكون لوصل الكلمات بعضها ببعض فى الكلام المتصل ، ولذلك جاز سقوطها فى الوقف، وأبو عمرو بن العلاء قرأ بتسكين أواخر الكلمات فى عشرات من الآيات فى غير الوقف .

واستنكر الدكتور أن يستكثر مستكثر جواز الإسكان عند سرد بعض الأعلام .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، ص ٦٥ ؛ ٦٩ .

وعارض الشيخ محمد على إلنجار هذا الاتجاه ، ولكنه ذكر أن الوصل قد يجرى مجرى الوقف ، وإن كان ذلك قليلا فى النثر ؛ وعارض الشيخ التسامح فى ترك الإعراب.

وناقش الأستاذ أمين الخولى فى بحث له آراء الأعضاء ، ثم رأى تسكين هذه الأعلام ، إجراء للوصل مجرى الوقف ، أو وصلا على نية الوقف ، واستند فى ذلك إلى قول ابن مالك :

وربما أعطى لفظ الوقف ما   للوقف نثرا ، فشا منتظما

ثم قال : «وإذا كان التسكين عند الوصل قاعدة نحوية ، وقراءة فى القرآن تاج العربية ومعجزتها البلاغية ، فهل بقى بعد ذلك قول لقائل ، أو احتياط لمحتاط[1] » ؟

وعارض الشيخ عبد الرحمن تاج فى بحث له فكرة التسكين ، وقال إن الإعراب هو عماد اللغة[2] .

ومازال باب البحث فى تسكين هذه الأعلام مفتوحا . . .

وأرى أن إباحة التسكين هنا فيها مراعاة للاستعمال الفاشى ، وتيسير فى الكتابة والقراءة ، وهى لا تعم دليلا تستند إليه ، وإن اختلف فيه المختلفون ، وهى فى الوقت نفسه لا تخلو من مخالفة للمأثور عن أهل العربية الأوائل ، ولكن التيسير يستجيز هذه الإباحة وما أكثر ما استجاز .

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٢٠ ص ١١٩ — ١٣١

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٣ — ١٥٤

١٨ ـ يكثر رشيد من إدخال حرف الباء على كلمة « دون[١] » ، وهى ظرف ، وهى نقيض « فوق » ، ويقال : هذا دون ذلك أى أقرب منه .

والأفصح استعمالها دون الباء ، لأن هذا هو الشائع عند جمهرة العرب ، ولذلك ذكر ابن منظور أن الأخفش هو الذى أدخل على هذه الكلمة الباء[٢] ، وقال الفيروز ابادى فى القاموس : « ويدخل على (دون) من الباء قليلا » ، كما ذكر صاحب اللسان أن كلمة « دون » قد تكون اسما فيدخل عليه حرف الجر فيقال : « هذا من دونك » .

١٩ ـ جمع رشيد كلمة « مشكلة » على مشاكل[٣] » وكرر ذلك مع أن فعل الكلمة رباعى ، وهو « أشكل » بمعنى التبس ، وفى « معجم مقاييس اللغة » أن إشكال الأمر هو التباسه ، وأنه يقال : هذا أمر مشكل[٤] وفى أساس البلاغة أيضا : أشكل الأمر[٥] .

وقد لاحظ الأمير شكيب أرسلان على رشيد هذا الاستعمال ، ولكن رشيدا اعتذر بأن كلمة « مشاكل » قد ذكرها الزبيدى فى « تاج العروس » ، وأن جمع التكسير يكثر فيه الشذوذ ، وأن شيخه ـ وهو الشيخ محمد عبده ـ قد استعملها فى بعض مقالات « العروة الوثقى » فأخذها رشيد عنه[٦] .

---

(١) انظر مثلا المنار ، والأزهر ، ص ١٨٠ و ١٩٣ . والسيد رشيد رضا ، ص٤٠٥ و ٤٧٣ و ٦٧٩ والمنار ، المجلد ١٣ ص ١٣١

(٢) انظر لسان العرب ، مادة « دون » .

(٣) المنار ، المجلد الأول ، ص ١٨٢

(٤) معجم مقاييس اللغة ، ج ٤ ص ٢٠٤

(٥) أساس البلاغة ، ج ١ ص ٥٠١

(٦) السيد رشيد رضا ، ص ٦٨٥

ولكن الخاضع للقاعدة أفضل من الشاذ ، فالأحسن أن تستعمل « مشكلات » .

٢٠ –ويقول رشيد عن سورة الفاتحة « وهى المثانى التى يثنونها دائما فى صلاتهم ، وفى بدء أورادهم القرآنية المسماة بالختمات[1] » .

وهذا التفسير لا يخلو من قصور ، لأنه يوهم أن كلمة « المثانى » مختصة بسورة الفاتحة ، مع أن الكلمة مختلف فيها ، فقيل إنها الفاتحة وقيل إنها السور السبع الطوال من البقرة إلى الأنفال مع التوبة ، وقيل إنها القرآن كله[2] .

ثم إن قوله « يثنونها » غير موضح ، لأنه تفسير للكلمة ببعض ما يشتق من مادتها اللغوية ، فقد يسأل سائل : وما معنى « يثنونها » ؟

ولقد قال ابن الأثير عن الفاتحة : « هى السبع المثانى ، سميت بذلك لأنها تثنى فى كل صلاة ، أى تعاد ، وقيل : المثانى السور التى تقصر عن المئين، وتزيد عن المفصل ، كأن المئين جعلت مبادئ ، والتى تليها مثانى[3] » .

وقال ابن فارس : « والمثناة ما قرئ من الكتاب وكرر ، وقال الله تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) أراد أن قراءتها تثنى وتكرر[4] »

وقال الأصفهانى : « وسميت سور القرآن مثانى فى قوله عز وجل : (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) لأنها تثنى على مرور الأوقات وتكرر ،

---

(١) تفسير المنار ، ج ١ ص ٥٧ .
(٢) الجامع الأحكام القرآن للقرطبى ، ج ١ ص ٥٤ طبعة دار الكتب المصرية .
(٣) النهاية لابن الأثير ، ج ١ ص١٣٦ .
(٤) معجم مقاييس اللغة ، ج ١ ص ٣٩٢ .

فلا تدرس ولا تنقطع دروس سائر الأشياء التى تضمحل وتبطل على مرور الأيام ، وعلى ذلك قوله تعالى :(الله أنزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى).

ويصح أنه قيل للقرآن مثانى لما يثنى ويتجدد حالا فحالا من فوائده كما روى فى الخبر فى صفته : لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضى عجائبه .

ويصح أن يكون ذلك من الثناء ، تنبيها على أنه أبدا يظهر منه ما يدعو إلى الثناء عليه ، وعلى من يتلوه ويعلمه ويعمل به [١] » .

فابن الأثير وابن فارس والأصفهانى لم يقتصروا كما اقتصر رشيد بقوله : « المثانى التى يثنونها » بل أوضحوا معنى التثنية هنا ، وهو الإعادة والتكرار .

كما أن قول رشيد فى جملته السابقة « . . وفى بدء أورادهم القرآنية المسماة بالختمات » قد يوهم أنهم يكررون قراءة الفاتحة عند افتتاحهم قراءة المصحف ليمضوا إلى آخره فتتم ختمه ، وما أظن ذلك شيئا مشروعا أو منصوصا عليه .

كما أن قوله هذا يوهم أن « الأوراد » هى « الختمات » ، ويفهم من هذا أن « الورد » هو « الختمة » ، والورد غير الختمة ، لأن الختمة من الختم ، وهو بلوغ آخر الشيء ، وكل عمل ختمته فقد أتممته وفرغت منه ؛ ويقال : ختمت القرآن ، إذا انتهيت إلى آخره [٢] .

---

(١) مفردات القرآن ، ص ٨١ أ

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٢٤٥ ومفردات القرآن ص ١٤٢ وأساس البلاغة ج ١ ص ٢١٥ .

وأما الورد فهو الجزءُ من القرآن الكريم[١]. وقد جاء فى كتاب « النهاية فى غريب الحديث » ما نصه : « كان الحسن وابن سيرين يقرآن القرآن من أوله إلى آخره ، ويكرهان الأوراد ؛ الأوراد جمع ورد وهو بالكسر الجزء ، ويقال : قرأت وردى ؛ وكانوا قد جعلوا القرآن أجزاء ، كل جزء منها فيه صور مختلفة على غير التأليف ، حتى يعدلوا بين الأجزاء ويسوروها ، وكانوا يسمونها الأوراد[٢] » .

٢١ – ويقول رشيد فى مقدمة كتابه « السنة والشيعة » عن عبد الله بن سبأ : « وسبب ذلك ما كان من العداوة والقتال بين قومه اليهود وبين النبى صلوات الله وسلامه عليه[٣] »

والصواب أن يقول : « بين قومه اليهود والنبى . . » الخ ، لأن كلمة « بين » هنا ظرف ، وهى تفيد معنى « وسط و خلال » ، كما تقول : جلست بين القوم أى وسطهم . ولا يصح أن يقال إن العداوة كانت وسط اليهود ، وكانت وسط النبى ، ولذلك جاء فى « لسان العرب » أن هذا الظرف – وهو بين – لا يضاف من الأسماء إلا لما يدل على أكثر من الواحد ، أو ما عطف عليه غيره بالواو دون سائر حروف العطف[٤] .

وإنما كان ذلك لتفيد الكلمة معنى : وسط وخلال .

---

(١) ترتيب القاموس ، ج ٤ ص ٥٣٧
(٢) النهاية ، ج ٤ ص ٢٠٤
(٣) السنة والشيعة ص ٤
(٤) لسان العرب ، المجلد ١٣ ص ٦٥

٢٢ – تقع من رشيد هفوات أغلب الظن أنها بسبب السهو أو السرعة أو سبق القلم ، ولكن رشيدا قد آخذ على مثلها ابنته « نُعمَى » فى رسالة منه إليها بتاريخ ٢٢ من ربيع الأول سنة ١٣٤٩ : وقد قالت له فى رسالة : « حتى لم نكتفى » فرد عليها قائلا إن الصواب هو : « لم نكتف » بحذف حرف العلة لدخول الجازم على الفعل.

ومن الهنوات[١] التى وقع فيها رشيد ما يلى :

(ا) قال « إننا لا نسلم أنكم سكان البلاد الأصليين » . والصواب : الأصليون.

(ب) وقال : « ورأيت المسلمون على غير ذلك » . والصواب : المسلمين.

(جـ) وقال : « وليس فيما قاله القبط فى مؤتمرهم وما يكررونه كثيرا فى جرائدهم أمرا ذا بال[٢] ». والصواب أمر ذو بال.

(د) وقال : « ومن علامات هؤلاء السفهاء أن لهم فى كل مجلس لسان ». والصواب : لسانا.

(هـ) وقال : « وأرسلت حكومة جدة معهم جنديان عربيان[٣] ». والصواب : جنديين عربيين.

(و) وقال : « وكان عندى فى مدرسة الدعوة والإرشاد أفرادا منهم » والصواب : أفراد .

---

(١) الهنوات : جمع هنة ؛ بفتحتين – وأصلها هنوة ؛ بفتح فسكون ؛ أى شىء يسير . (ترتيب القاموس) . (٢) المسلمون والقبط ، ص ٧٢ و ٨٠ و ١١٨ .

(٣) المنار المجلد ٨ ص ٦٣١ والمجلد ٢٠ ص ١٠٨ .

(ز) وقال : « وعفا الله عن السيد عاصم فإن إقامته فى القلمون وطرابلس فى هذه الأيام أضاع على ثلاثة أرباع عملى[1] » . والصواب : أضاعت.

(ح) وقال : فى رسالة بتاريخ ٧ من شوال سنة ١٣٢٧ إلى أخيه حسين وصفى رضا : « هذا معنى البرقيتان ». والصواب : البرقيتين. إلا أن يقال إنه ممن يُلْزِم المثنى الألف ، وهو تأويل بعيد الاحتمال.

(ط) وقال فى رسالة بتاريخ ٢٤ من ذى القعدة سنة ١٣٢٧ إلى أخيه أيضا : « أخذت كتابك الأول ، وكتاب رفيق بك فى مساء يوم الجمعة ، وكتابك الثانى مع كراسة التفسير ، وكتاباً من فتحى باشا فى ضحوة يوم السبت ، وكذلك الكتابان اللذان أرسلهما الرفيق إلى قريبه ». والسياق يشير إلى أن الصواب هو : وكذلك الكتابين اللذين.

وكذلك يوجد فى الرسالة نفسها : « إذا كان يوجد نسخ من الموافقات فأرسل إلى « نسختان ». والصواب : نسختين.

(ى) وقال فى رسالة بتاريخ ٤ من ذى الحجة سنة ١٣٢٧ إلى أخيه أيضا : « فإنما العبرة بالغيرة والعمل مع الإخلاص ، لا بالتيجان الثلاث : الأسود للشباب ، والأشمط الكهولة ، والأبيض للشيخوخة ، وتعبر عنها العرب بالتاج الأول والثانى والثالث والصواب : بالتيجان الثلاثة.

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٥١٣ و ٧٧٦

(ك) وقال فى رسالة بتاريخ ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٤٦ إلى ولديه نعمى وشفيع : « وصل منكما فى الأسبوع الماضى كتابين متواليين ». والصواب : كتابان متواليان.

وكذلك فى رسالة بتاريخ ١٣ من ربيع الأول من السنة نفسها يقول : « وصل أمس كتاباكما المؤرخين ». والصواب : المؤرخان .

وفى الرسالة نفسها يقول : « قبل فتح المدارس بيومين أو ثلاث » والصواب : أو ثلاثة .

وفى رسالة بتاريخ ٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٧ ﻫ إلى نُعمى يقول : « وصلت إلى الدار فى الرمل بعد تعب خمسة ساعات ». والصواب : خمس ساعات.

* * *

إن رشيدا لا يغيب عنه إدراك هذه الأخطاء ، ولكنه السهو أو السرعة ، وهو يعترف بأنه يقع فى كثير من الغلط فى كتابته ، ولا سيما المكتوبات الشخصية ، بسبب سبق القلم ، ولكن الغلط يندر حين يصحح كلامه ولا سيما وقت طبعه [1].

ولقد يقع رشيد فى خطإ لغوى ثم يعود فيلحظه بعد حين ويصححه فقد أنكر مثلا وجود كلمة « تفزع » فى معاجم اللغة ، ثم عاد فذكر أنه وجدها فى القاموس المحيط فى مادة : « روع » حيث جاء فيه : « وتروع تفزع [2] ».

---

(١) السيد رشيد رضا ص ٦١٦ (٢) انظر المنار المجلد ٧ ص ٨٢٦ والمجلد ٨ ص ٦٣٨

واستعمل كلمة : « توفقتم » فى رسالة كتبها سنة ١٣٠٤ ﻫ ، ثم نشر هذه الرسالة سنة ١٣١٦ ﻫ ، ولما جاءت هذه الكلمة قال بعدها : « والصواب : وفقتم[١] » .

إن رشيدا يؤكد أن علة هذا الغلط هى السهو العارض أو السرعة والعجلة ، أو ضيق الوقت عن المراجعة ، ويؤكد أنه لم ير أحدا من كتاب عصره سلم من مثل هذا الغلط[٢] .

وجلَّ المعصوم من الخطإ والزلل .

* * *

(١) المنار ، المجلد الأول ، ص ٩٤١ .

(٢) المنار ، المجلد ٩ ص ٥٢٩ .

تقويم

كتابات عن رشيد

تقويم كتابات عن رشيد رضا

من الكاتبين عن السيد محمد رشيد رضا من وقع فى هفوات أو أخطاء ، ولا يتسع نطاق البحث هنا لإحصاء كل ماكتبوه ، أو استقصاء مافيه ، ولذلك أكتفى بتقويم ماجاء فى كتابين ، أحدهما ألف فى حياة رشيد ، وهو كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » تأليف تشارلز آدمس ، وترجمة عباس محمود ، والآخر ألف بعد وفاة رشيد ، وهو كتاب «مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر.

إن كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » قد ألفه صاحبه فى حياة رشيد رضا ، وظهر سنة ١٩٣٢ م ، وقد نشره صاحبه بالإنجليزية ، ومعنى هذا أنه نقل إلى قراء هذه اللغة معلومات عن رشيد رضا يجب أن تكون صحيحة سليمة ، ثم تُرجم هذا الكتاب إلى العربية ونُشرت ترجمته سنة ١٩٣٥ م ، ومعنى هذا أن الكتاب قد ازداد ذيوعا وأن قراء العربية طالعوه ويطالعونه ، فيجب أن تكون معلوماته أمامهم صحيحة ، والمترجم لم يلتزم تصحيح كل ماوقع فيه المؤلف من أخطاء .

والكتاب فى أصله « رسالة دكتوراه » وقد أجيزت هذه الرسالة ، وبذلك أصبحت فى حكم مجيزيها على الأقل — مرجعاً معتمدا فى الموضوع ، وقد قدم لترجمة الكتاب العربية الشيخ مصطفى عبدالرازق ، وأشار إلى أن بعض الهنوات التاريخية وغيرالتاريخية موجودة فى الكتاب ، ولكنه لم يبينها ، فظلت فى حاجة إلى تبيان .

والكتاب – أخيرا – يتخذه الباحثون العرب وغيرهم مرجعاً عند الكتابة عن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ، فيجب أن يكونوا على بصيرة مما فيه .

لهذا كله رأيت من الواجب أن أحاول تقويم ما فى الكتاب من أخطاء أو آراء . واقتصرت هنا على تتبع الملاحظات المتعلقة برشيد رضا ، وإن كان فى الكتاب ملاحظات غيرها تتعلق بأمور أخرى ، لأن موضوع البحث الرئيسى هنا هو رشيد رضا ، وتركت طائفة من الهفوات وقع فيها المؤلف ، وعلق عليها المترجم ، وهذه هى الملاحظات :

١ – يقول مؤلف كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » فى صفحة (١٧٠) إن رشيدا « أخذ يعلِّم القرآن للعامة من أهل قريته » . وقد يفهم من هذه العبارة أن رشيدا كان مقرئاً للقرآن الكريم ، كالعرِّيف فى « الكُتَّاب » . وهذا غير صحيح ، لأنه كان يعظ الناس ، ويدرس تعاليم الدين ، والعقائد ، وأحكام الطهارة والعبادات ، كما أخبر هو عن نفسه[1] .

٢ – يقول المؤلف فى صفحة (١٧٢) من الكتاب عن مجلة المنار : « وليس لدينا ما نعرف منه مقدار انتشاره فى السنوات الأخيرة » .

والواقع أنه كان لدى المؤلف ما يستطيع أن يعرف به مقدار هذا الانتشار ، لأن رشيدا كان يتكلم كثيرا عن هذه الناحية فى مقالاته بالمنار . وفى افتتاحيات سنواته بصفة خاصة وفى خواتم

(١) المنار والأزهر ، ص ١٧٧ .

مجلداته بصفة أخص ، حيث يشير إلى هذه الناحية بتفصيل يفهم منه الباحث صورة تقريبية — على الأقل — عن هذا الموضوع ، ومن أمثلة ذلك ماذكره رشيد رضا فى خاتمة المجلد التاسع والعشرين ن « المنار » ، وكذلك فى خاتمة المجلد الحادى والثلاثين ، وكذلك تعرض لهذا فى المجلد الثانى والثلاثين [(١)] ، والمجلد الثالث والثلاثين [(٢)]

٣ — وفى صفحة (١٧٧) يقول المؤلف عن رشيد رضا : « الوقائع تنطق أحيانا بأن صاحب المنار محافظ من المحافظين ، فهو فى تفكيره كله يعتمد العسر فى اتباع القرآن والسنة وسائر أحكام الشرع ، والأخذ بأضيق المعانى والوجوه » .

قال المؤلف ذلك ، ولم يقدم على قوله شواهد أو أدلة ، ولو أرادها لما استطاع ، لأن هذه دعوى عريضة يعوزها الدليل ، فلم يكن رشيد محافظا من المحافظين ، بل كان منطلقا مع المتحررين ، فهو يدعو إلى الاجتهاد ، وهو يوسع الدعوة إلى التسامح فى الدين ، وهو يتجه إلى إجازة بعض صور الربا ، كما يبدو من كتابه « الربا فى الإسلام » ، وهو فى « تفسير المنار » يعتمد كثيرا على العقل ، حتى عيب عليه ذلك فى كثير من الأحيان .

والمؤلف نفسه قد ذكر فى مواطن أخرى شواهد تدل على تحرر رشيد رضا تبعا لأستاذه الشيخ محمد عبده ؛ كتقريره أن هناك تخريجا لإباحة التماثيل ، وأن تشييد المدارس خير من إنشاء المساجد (٣) .

(١) المنار ، المجلد ٣٢ ص ٨١ و ٧٩٨ .
(٢) المنار ، المجلد ٣٣ ص ٧٨ و ٨٠ و ٢٣٤ و ٧٩٩ و ٨٠٠ .
(٣) الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ١٨٤ و ١٨٦ .

فكيف يقال بعد هذا وغيره إن رشيدا فى تفكيره الدينى يعتمد العسر ، ويأخذ بأضيق المعانى والوجوه ؟ ! .

٤ ـ فى صفحة (١٧٧) يقول المؤلف : «لقد تكلمنا فيما سبق عن الوطنيين فى مصر وتركية . ورأينا أن المنار يرميهم جميعا بالإلحاد والمروق ، لأن الدين ليس من مقومات آرائهم فى الوطنية » .

إن هذا القول فيه إسراف وظلم ، فرشيد لم يكفر الوطنيين جميعا كما زعم المؤلف بل لم يكن من ديدنه التكفير وكان يكرر القول بتحريم التكفير لأهل القبلة . وإذا استثنينا شدة رشيد مع مثل على عبد الرازق بسبب كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ، وطه حسين بسبب كتابه « فى الشعر الجاهلى » فإننا نجد رشيدا يجادل بالحسنى وإذا وجد شيئا مخالفا لأصول الإسلام ومبادئه فى كلام شخص أو عمله ، احتاط رشيد فى الحكم عليه وذكر أنه إذا اعتقد ذلك الشخص ماقاله مما يخالف أصول الإسلام وعقائده ، بلاتأول ، فإنه لا يكون من المسلمين .

والمؤلف نفسه قد نقل عن رشيد فى صفحة (١٧٨) مايفيد أن رشيدا يرى أن من أنكر نصا فى القرآن قطعى الدلالة غير متأول فليس من المسلمين .

ولما كان المؤلف فيما نقله عن رشيد فى هذا الموضوع لم يلتزم الدقة فى النقل فإنى أورد هنا نص رشيد ، قال :

« إن من يعتقد اعتقادا مخالفا لنص القرآن القطعى الدلالة ، عالما غير متأول ، بحيث يعتقد أن خبر القرآن غير حق، فلا شك فى أنه

لايعد من جماعة المسلمين ، فمن أنكر وجود آدم أو إبراهيم وإسماعيل فهو كافر ، لأنه مكذب لكلام الله تعالى . لامن تأول قصة آدم فى معصيته وتوبته وسجود الملائكة له إلا إبليس وماورد فى شأن إبليس من التخاطب مع الرب عز وجل ، فقال إن كل خطاب فيها تكوينى لاتكليفى ، وإنها تمثيل لسنن الله تعالى فى النشأة الآدمية البشرية .

فمن يقول بهذا – وقدقال به بعض علماء المسلمين كما نراه فى تفسيرنا – لايعد مكذبا للقرآن كمنكر وجود آدم وإبراهيم وإسماعيل بشبهة عدم ثبوت وجودهم بدليل علمى ، فإنه ليس من شأن قواعد العلم العقلى أو الطبيعى إثبات وجود زيد وعمرو أو نفيه (١) .

ولقد كان لرشيد كثير من الأصدقاء الوطنيين ، وكان يقدرهم ويثنى عليهم ، ولم يرمهم « جميعا » كما زعم المؤلف بالكفر .

٥ – فى صفحة (١٨٨) يقول المؤلف إن مدرسة دار الدعوة والإرشاد التى أنشأها رشيد « تعطلت عند نشوب الحرب العظمى » ، ولم تفتح أبوابها مرة أخرى .

وهذا التعبير يفيد أن المدرسة وقفت عن عملها عند ابتداء الحرب العالمية الأولى ، وهذا غير صحيح ، لأن المدرسة ظلت تقاوم مدة بعد نشوب هذه الحرب ، ثم وقفت .

يدل على ذلك قول رشيد نفسه عن المدرسة ، فقد قال : « حتى إذا ما اشتدت سيطرة الإنجليز على مصر ، فى عهد الحرب الكبرى ، كادوا

---

(١) المنار ، المجلد ٢٨ ص ٥٨١

للمدرسة كيدهم ، وأوعز عميدهم إلى وزير الأوقاف إبراهيم فتحى باشا — وكان من صنائعه — فقطع الإعانة التى كانت قررت لمدرسة الدعوة والإرشاد، وتعذر عودة الخديو إلى مصر : فاضطررت بعد صبر جميل إلى تعطيلها[1] »

وقوله : « بعد صبر جميل » يفيد أن المدرسة ظلت بعد قيام الحرب ردحا من الزمن .

ويقول الأستاذ عبد السميع البطل — وهو أحد تلاميذ هذه المدرسة — :

« مضى على إنشاء المدرسة ثلاث سنين إلا قليلا ، ثم اشتعلت نار الحرب الكبرى ، وكانت أيامها النحسات ، فأبعد الخديو وكان لها عضدا ، فغلت الأيدى إلى الأعناق ، وجمدت الأكف عن العطاء ، وأعطت الأوقاف قليلا وأكدت ، ثم شحت بالصبابة واعتذرت.

عندئذ اضطرت المدرسة أن تكتفى بمن فيها من الطلبة ، ولم تقبل جديدا ، وألجأتها الضرورة الملحة أخيرا ألا تلتزم ما كانت تلتزمه من نفقة المأكل والكتب ، وظلت تجاهد هذا العنت فى وناء وضعف سنتين ، ثم ودعت الحياة[2] » .

٦ — فى صفحة (١٨٩) يقول المؤلف عن « جزء عم » ما نصه : « وأوله سورة الفاتحة وقوله تعالى : عم يتساءلون ».

وهذا غير صحيح ، لأن سورة الفاتحة هى أول القرآن الكريم ، ولذلك تأتى فى طليعة المصحف الشريف وليست من جزء عم » .

---

(١) المنار : ٣٥ ص ١١

(٢) المنار ، المجلد ٣٥ ص ١٩٧ ، بتاريخ ٨ من المحرم سنة ١٣٥٥هـ — ٣١ مارس سنة ١٩٣٦

٧ـ فى صفحة (١٨٩) أيضا يقول عن تفسير المنار إن رشيدا « شرع ينشر هذا التفسير ابتداء من المجلد الثالث (١٩٠٠) بعنوان : تفسير الشيخ محمد عبده » .

ورشيد لم يجعل عنوان التفسير ـ كما زعم المؤلف ـ جملة : « تفسير الشيخ محمد عبده » بل كان العنوان أولا هو : « تفسير القرآن العزيز[1] » ، ثم جعله رشيد : « تفسير القرآن العظيم[2] » ، ثم جعل يستعمل لفظ « العظيم » تارة ولفظ «العزيز » تارات ، وكان يضع تحت هذا العنوان الجملة التالية : « مما أملاه فى الأزهر مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية » .

٨ـ فى صفحة (١٩٠) يقول المؤلف عن تفسير المنار : « وكان كثير مما كتب من التفسير فى حياة الإمام من وضع رشيد رضا نفسه ، وإن كان قد عزاه إلى أستاذه » .

هذه العبارة توحى بأن رشيدا تعمد أن ينسب إلى الشيخ محمد عبده أكثر ما فى تفسير المنار ، مع أنه من كتابة رشيد ؛ وهذا قول يحتاج إلى نظر ومراجعة ، فرشيد له جهد فى التفسير دون شك ، ولكن الأساس للشيخ محمد عبده فى القدر المنسوب إليه من هذا التفسير ، وقد بينتُ عند حديثى عن : « تفسير المنار » أن رشيدا كان يحاول إلى حد ما أن يفرق بين كلامه وكلام أستاذه ، وكان إذا فاته شىءٌ من عبارة شيخه أتى بمعناها قدر طاقته وأشار إلى ذلك غالبا.

---

(١) انظر المنار ، المجلد ٣ صفحة ١٣٠ و ١٨٢ و ٢٠٧

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧١

٩ ـ فى صفحة (١٩٣) يقول المؤلف أن الغزالى قد أثر فى كتابة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا « وكذلك فى الروح التى تطغى على تصورهم للحياة الدنيا كلها ، وتجعلها شيئا نفسانيا . أو أمرا من أمور القلب » .

هذه العبارة تفهم أن هؤلاء الثلاثة كانوا على منهج الغزالى فى زهدياته و تصويره لمتاع الحياة وتنفيره منها بعد تصوفه بوجه خاص ، وذلك غير صحيح ، فرشيد[١] لم يكن معرضا عن الحياة ولا زاهدا فيها بالصورة التى عرضها الغزالى فى كتابه : « الإحياء » ، وإذا كان رشيد قد تأثر بهذا الكتاب فى فتوته من ناحية التصوف . فليس معنى هذا أنه كان سلبيا أمام الحياة ، أو معرضا عنها ، أو مستخفا بشأنها ، فقد أخذ حظه من الاستمتاع الطيب بها ، وقد ذكرت فى سيرة رشيد وحياته طرفا من ذلك.

ورشيد كان يدعو إلى قوة الحياة فى الناحيتين المادية والروحية ، وكان يؤمن بوجوب الأخذ بأسباب المدنية والحضارة مالم يعارض ذلك أمرا من أمور الدين ، وطالما كتب رشيد داعيا إلى تحقيق القوة الاقتصادية والحربية الاجتماعية والمادية ، ولكن الغزالى ـ عليه رضوان الله تعالى ـ توسع فى الدعوة إلى الزهد ، فبين منهجى الرجلين من هذه الناحية فرق كبير .

١٠ ـ وفى صفحة (١٩٤) ذكر المؤلف أن الناس قالوا عن رشيد « إنه وهابى عندما كان يعترض على بعض العبادات الشائعة » .

(١) اقتصرت على بيان موقف رشيد لأن البحث هنا يدور حوله .

وقد يفهم فاهم من قوله : « يعترض على بعض العبادات الشائعة » أن هناك عبادات دينية عرفها المسلمون وذاعت بينهم واعترض عليها رشيد ، وهذا غير صحيح ، ولو أن المؤلف قال إن رشيدا حارب البدع والخرافات المنسوبة إلى الدين ، أو قاوم بعض ما يفعله المسلمون على أنه من الإسلام وليس من الإسلام فى شىء ، لكان قوله صحيحا .

ولقد ذكر المؤلف فى هذا الموطن أنه استمد ذلك من المجلد الأول من المنار ، (صفحة ٤٢٥). ولقد رجعت إلى هذه الصفحة ، فلم أجد رشيدا يعترض على شىء من العبادات المشهورة عند المسلمين ، بل هو ينتقد ما تعوده بعض المسلمين من محاولتهم دفع البلايا والخطوب بقراءة « صحيح البخارى » مثلا ، وينتقد ما يفعله بعضهم من إهمال الإعداد والاستعداد للجهاد ، ويقولون إن « الولى الفلانى » الذى مات سيدفع عنهم عدوان الأعداء .

ولا شك أن هذه الأعمال ليست من الإسلام ولا من العبادات فى شىء .

١١ — فى صفحة (٢٢٢) يشير المؤلف إلى حديث « تفسير المنار » عن تعدد الزوجات وسوء استخدامه ، ثم يقول : إن رأى هذا التفسير هو أنه : « لا بد إذن من إصلاح هذه الأحوال وأن تعدل الشريعة إذا لزم الأمر ، وليس من شك فى أن توفير سبل التعليم للمرأة يهيئها لا حتلال مكانها الذى خصها به الدين الإسلامى ».

وكلمة « تعديل الشريعة » تفيد معنى تغييرها ، وهذا مالم يصرح به « تفسير المنار » فى الموطنين اللذين ذكر المؤلف أنه اعتمد عليهما

فى ذكر ما قال ، ففى الموطن الأول يقول تفسير المنار بعد تعداد مآسى لسوء استخدام التعدد فى الزوجات عند الكثيرين :

« فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن ، بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة ، لما كان هناك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وإنما يكون ضرره قاصرا[1] عليهن فى الغالب.

أما والأمر على ماترى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة ، خصوص الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر ، وعلى مذهبهم الحكم[2] ، فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك فى وجوب تَغَيُّر الحكم ، وتطبيقه على الحالة الحاضرة ، يعنى على قاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . قال : وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف « من عدم العدل[3] » .

ليس المقام هنا مقام أن أفصل بالرأى فى موضوع تعدد الزوجات من ناحية الإطلاق أو التقييد ، ولكن الذى يمكن أن يقال إن هذا الرأى ليس معناه الخروج على الشريعة ، بل معناه ملاحظة « تغير الأحكام » بتغير الظروف والأحوال ، مع بقاء هذه الأحكام مستمدة من الشريعة

---

(١) هكذا فى الأصل ، والصواب « مقصورا » .

(٢) يقصد ما كان موجودا حينئذ من اقتصار المحاكم الشرعية على القضاء بمذهب الحنفية .

(٣) تفسير المنار ، ج ٤ ص ٣٤٩ . ورشيد هنا ينقل رأى الشيخ محمد عبده .

نفسها ، وخاضعة لمبادئها ، ولذلك أحال التفسير الموضوع إلى أهل الاختصاص . وهم العلماء ، وطالب بمنع الضرر والضرار ، وهذا أصل من أصول الشريعة ، لا تغيير لها ؛ وأشار إلى قاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وهى قاعدة من قواعد التشريع ، وانتهى إلى تحريم التعدد عند الخوف من عدم العدل بين الزوجات ، وهذا هو نص القرآن الكريم : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وفى الموطن الثانى يقول تفسير المنار بعد كلام طويل فى بيان الحكمة لتعدد الزوجات : « ذلك ما قلناه فى وجه الحاجة تارة ، والضرورة تارة ، إلى تعدد الزوجات ، ويزاد عليه ما علم منه ضمنا من كثرة النسل المطلوب شرعا وطبعا ، فإذا كان منع التعدد — لا سيما فى أعقاب الحروب وكثرة النساء — يفضى إلى كثرة الزنى ، وهو مما يقلل النسل ، كان مما يليق بالشريعة الاجتماعية المرغبة فى كثرة النسل ، والمشددة فى منع الزنى ، أن تبيح التعدد عند الحاجة إليه لأجل ذلك ، مع التشديد فى منع مضراته .

وقد صرح بعض علماء أوربة بأن تعدد الزوجات من جملة أسباب انتشار الإسلام فى أفريقية وغيرها وكثرة المسلمين .

ومهما كان من ضرر تعدد الزوجات فهو لا يبلغ ضرر قلة النسل الذى منيت به فرنسا بانتشار الزنى وقلة الزواج ، وستتبعها إنكلترة وغيرها من الأمم التى على شاكلتهما فى التساهل فى الفسق .

أما منع تعدد الزوجات — إذا فشا ضرره وكثرت مفاسده ، وثبت عند أولى الأمر أن الجمهور لا يعدلون فيه فى بعض البلاد لعدم الحاجة

إليه ، بله الضرورة — فقد يمكن أن يوجد له وجه فى الشريعة الإسلامية السمحة ، إذا كان هناك حكومة إسلامية ، فإن للإمام أن يمنع المباح الذى يترتب عليه مفسدة ، ما دامت المفسدة قائمة به والمصلحة بخلافه ، بل منع عمر (رض) فى عام الرمادة أن يحد سارق ، ولذلك نظائر أخرى ليس هذا محل بيانها ، وللأستاذ الإمام فتوى فى ذلك ذكرناها فى الجزء الأول من تاريخه[1] » .

هذا هو نص كلام التفسير ، وليس فيه تصريح بدعوة إلى تغيير الشريعة ، حتى يستنبط المؤلف منه أن قائله يذهب إلى أنه « لابد من تغيير الشريعة » .

إن التفسير قد دافع عن تعدد الزوجات بقوة ، ثم تحدث عن سوء الاستعمال ، ولم يقل بتغيير شىء من الشريعة ، بل أرشد إلى البحث عن علاج لسوء الاستعمال من الشريعة نفسها ، وذكر حق الإمام فى منع المباح إذا ترتب عليه مفسدة ، فليس فى نص الكلام ولا فى روحه دعوة سافرة إلى « حتمية تغيير الشريعة » كما حاول المؤلف لنا أن نفهم .

١٢ — فى صفحة (٢٢٣) يذكر المؤلف أنه حينما ظهر كتابا قاسم أمين « تحرير المرأة » سنة ١٩٠٠ م ، و « المرأة الجديدة » بعد ذلك بنحو عامين ، هاجمه الناس من جميع النواحى باسم الدين ، ثم يقول عن رأى المنار فى قاسم أمين : « وكان حكم المنار عليه أنه إلى رجال الفكر أقرب منه إلى رجال العمل ، وله نظرات فى الدين والاجتماع هى أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة » .

---

(١) تفسير المنار ، ج ٤ ص ٣٦٢ و ٣٦٣

والقارئ لهذه العبارة فى موطنها من حديث المؤلف يفهم منها أن مجلة « المنار » قد هاجمت قاسم أمين بسبب دعوته إلى تحرير المرأة ، وهذا غير صحيح .

وقد ذكر المؤلف أنه أخذ حكم المنار على قاسم أمين من المجلد الحادى عشر من مجلة « المنار »، وبالرجوع إلى هذا المرجع يتبين أن العبارة التى وردت فيه تتعلق بأدب قاسم أمين ، لا بدعوته إلى تحرير المرأة[1] .

وفوق هذا نجد رشيدا قد قرظ كتاب « المرأة الجديدة » فى المجلدين الثالث والرابع من مجلة المنار ، وكذلك كتاب « تحرير المرأة » ودافع عنهما[2] .

ومن مظاهر تأييد السيد محمد رشيد رضا لقاسم أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة أنه نشر فى مجلته « المنار » قصيدة لحافظ إبراهيم تضمنت تأييدا لقاسم أمين ، وذلك حيث يقول :

أقاسم ، إن القوم ماتت قلوبهم ... ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبه

إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم ... فمن ذا تناديه؟ ومن ذا تخاطبه؟

فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم ... لوضع نقاب لاستقامت رغائبه

ولو خطرت فى مصر حواء أمنا ... يلوح محياها لنا ونراقبه

وفى يدها (العذراء) يسفر وجهها ... تصافح منا من ترى وتخاطبه

---

(١) المنار ، المجلد ١١ ص ٢٢٧ .

(٢) المنار ، المجلد ٣ ص ٨٥٠ . والمجلد ٤ ص ٢٦ و ٣٠ .

وخلفهما موسى وعيسى وأحمد   وجيش من الأملاك ماجت مواكبه
وقالوا لنا : رفع الحجاب محلل   لقلنا : نعم حق ، ولكن نجانبه[1]

إن كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » لتشارلز آدمز بحث له حسناته ومكانته ، وقد حاول مؤلفه أن يكون منصفا ، ولكن الكتاب مع هذا يتضمن كثيرا من الأشياء التى تحتاج إلى مراجعة وتصحيح .

* * *

وينتقل بنا الحديث إلى الكتاب الآخر الذى تحدث عن رشيد رضا وهو كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » للأستاذ يوسف أسعد داغر ، وهو مجلد ضخم فى التراجم ، بذل فيه صاحبه جهدًا كبيرًا ، وإن وقعت فيه أخطاء وأخطاء .

وهذا الكتاب شبيه بكتاب « الأعلام » لخير الدين الزركلى وغيره من الكتب التى تورد عن كل علم من الأعلام ترجمة مختصرة تسعف الباحث بعجالة عن صاحبها ، وتفتح أمامه أبواب البحث عنه ، بما تذكر من مراجع أو تضع على الطريق من علامات ، ولذلك يجب أول ما يجب فيها أن تكون معلوماتها دقيقة وصحيحة ووافية ، وخاصة إذا كان الكتاب يتوسع فى التراجم إلى حد ما فى كتاب « مصادر الدراسة الأدبية ».

ولقد عقد صاحب هذا الكتاب فصلا عن رشيد رضا[2] فى أكثر من خمس صفحات ، ألاحظ عليه ما يلى :

---

(١) المنار ، المجلد ٤ ص ٤٠ ، عدد ٢٠ يناير سنة ١٩٠١ .

(٢) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٣٩٦ — ٤٠١ .

١ – لم ينص المؤلف على التاريخ الهجرى لمولد رشيد ، ولا لوفاته ، مع أنه فعل ذلك مع كثير ممن ترجم لهم ، ورشيد رضا أحق بذلك ، وقد ولد رشيد فى ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ ﻫ وتوفى يوم ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ ﻫ . وقد حققت ذلك فى بحثى عن حياة رشيد .

٢ – ذكر المؤلف أن رشيدا ولد فى ١٨ من أكتوبر سنة ١٨٦٥ والصحيح أنه ولد فى ٢٣ من سبتمبر سنة ١٨٦٥م كما حققت ذلك أيضا .

٣ – ذكر الكتاب أن شيوخ رشيد هم حسين الجسر وعبد الغنى الرافعى ومحمد القاوقجى ومحمد عبده ، وفاته أن يذكر منهم الشيخ محمود نشابة ، كما لم يشر إلى أن رشيدا قد تتلمذ لجمال الدين ، وإن لم يره ، عن طريق قراءته آثار جمال الدين وتتبعه لأحواله .

٤ – جاء فى هذا الكتاب أن رشيدا واصل إصدار مجلته « المنار » أربعين سنة ، وهذا غير صحيح ، لأن المجلة صدرت فى أواخر سنة ١٨٩٨م ووقفت عن الصدور فى وسط سنة ١٩٣٥ م ، وهذه المدة أقل من أربعين سنة ، ولم يصدر من المجلة سوى أربعة وثلاثين مجلدا وعددين من المجلد الخامس والثلاثين .

ثم إن قول المؤلف « وواصل ظهورها[1] أربعين سنة » يفيد أن المجلة ظلت منتظمة الصدور خلال هذه المدة ، مع أنها انقطعت عن الصدور أكثر من مرة ، خلال هذه المدة.

(١) هكذا فى الأصل ، والصواب أن يقول : « إظهارها » .

٥ ـ يقول الكتاب عن رشيد: « وهو فى دعوته إلى الهدى والإصلاح بالكلام أقل من الإمامين الحكيمين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده » ولم يبين المراد بالأقل هنا. أيقصد أن كلام رشيد أقل من كلامهما ؟. إن هذا غير صحيح : فتراث رشيد الكلامى أضعاف ما تركه محمد عبده وجمال الدين .

أم يريد أن يقول إن دعوة رشيد أقل فى الأثر من دعوتهما ؟. فلم إذن ذكر كلمة « بالكلام » ؟.

٦ ـ قال الكتاب عن رشيد : « قام برحلات كثيرة فى مختلف أقطار العالم الإسلامى ». ولكنه لم يشر إلى رحلة رشيد الأوربية ، وهى مهمة جدا ، وقد تحدثت عنها حينما تحدثت عن رحلات رشيد.

٧ ـ ذكر الكتاب أن رشيدا له كتاب من مؤلفاته عنوانه : « تفسير الفاتحة وست سور من الخواتم ». وهذا القول يحتاج إلى مراجعة من جهتين : الأولى أن عنوان الكتاب المضبوط هو : « تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ».

والأخرى أنه كان ينبغى للمؤلف أن يشير إلى أن الكتاب ليس من تأليف رشيد وحده ، ففيه تفسير لسورة العصر للشيخ محمد عبده وحده ، وفيه كذلك للشيخ محمد عبده خمسة فصول : الأولى عن التوسل ، والثانى عن أفعال العباد ، والثالث عن مسألة الغرانيق ، والرابع عن مسألة زيد وزينب ، والخامس محاضرة للأستاذ الإمام عن العلم والتعليم[1] .

(١) انظر كتاب تفسير الفاتحة ، ص ٥ و ١٠ .

٨ـ ذكر المؤلف أن كتاب « تفسير سورة يوسف » من تأليف رشيد رضا ، وكان ينبغى له أن يشير إلى أن الكتاب ليس من تأليف رشيد وحده ، فقد شاركه فيه الشيخ محمد بهجة البيطار ، إذ كتب منه نحو ثلاثين صفحة ، بسبب وفاة رشيد قبل تكملته الكتاب (١) .

٩ـ وضع المؤلف كتاب « إنجيل برنابا » ضمن القائمة الخاصة بمؤلفات رشيد، وهذا خطأ ، لأن هذا الكتاب ليس من مؤلفات رشيد ، بل هو من مطبوعاته ، فكان يجب أن يضعه المؤلف فى قائمة مطبوعات رشيد ومنشوراته.

وهذا الإنجيل قد ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة ، ثم طبعه رشيد بالاشتراك مع المترجم ، بعد أن نشر فصولا منه فى المنار (٢) .

١٠ـ ذكر المؤلف أن رشيدا له كتاب عنوانه : « الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين » ، وهذا غير صحيح ، فليس لرشيد كتاب بهذا العنوان ، ولا فى هذا الموضوع ، وهذا الكتاب الذى ذكره المؤلف ليس من تأليف السيد محمد رشيد رضا ، بل هو من تأليف الأستاذ محمد رضا الذى كان أمينا لمكتبة جامعة القاهرة ، وهو شخص آخر غير رشيد رضا.

---

(١) انظر مقدمة كتاب « تفسير سورة يوسف » وص ١٣٠ منه .

(٢) المنار ، المجلد ١٠ ، ص ٣٨٦ .

١١ ـ ذكر المؤلف أيضاً أن رشيداً له كتاب بعنوان : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وهذا الكتاب ليس من مؤلفات السيد محمد رشيد رضا ، بل هو من تأليف الأستاذ محمد رضا .

١٢ ـ ذكر المؤلف كذلك أن رشيداً له كتاب بعنوان « الفاروق عمر ابن الخطاب » ، والصحيح أنه من تأليف الأستاذ محمد رضا ، وليس من تأليف السيد محمد رشيد رضا.

١٣ ـ ذكر المؤلف أنه قد ظهر من مجلة المنار خمسة وثلاثون مجلدا ، وهذا يحتاج إلى تصحيح ، لأن الذى صدر بالفعل هو أربعة وثلاثون مجلدا ، ولم يصدر بعد ذلك إلا عددان ، تم صدور الأخير منهما بعد وفاة رشيد رضا.

١٤ ـ ذكر المؤلف من كتب رشيد كتابا بعنوان « نداء الجنس اللطيف » ، ثم عاد بعد ذلك فذكر له كتابا بعنوان « حقوق النساء فى الإسلام » ، وهذا يوهم أن الكتابين مختلفان ، مع أنهما كتاب واحد ، وإن اختلف العنوانان.

١٥ ـ ذكر بعض مطبوعات رشيد ومنشوراته ، ولكنه ترك باقيها مثل : مدارج السالكين لابن القيم ، والآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى ، والاعتصام للشاطبى ، والكلام المنتقى لابن حجى ، والقول السديد لابن المقدسى ، وغيرها .

١٦ ـ ترك الكتاب من مؤلفات رشيد رضا كتاب « مناسك الحج » ، وكتاب « السنة والشيعة » .

١٧ – قال إن من المقالات التى كتبت عن رشيد رضا مقالة للشيخ أحمد محمد شاكر ، وذكر أن هذه المقالة موجودة فى المجلد الحادى والثلاثين من مجلة المنار ، وفى الصفحة الثالثة .

وبرجوعى إلى هذا المجلد لم أجد مقالا فى هذا الموضع الذى ذكره ، ولا فى موضع آخر من المجلد ، وكل ماجاء للشيخ أحمد محمد شاكر فى هذا المجلد هو تعليقه على رواية أحد الأحاديث النبوية ، وقد جاء هذا التعليق فى الصفحة الثالثة والعشرين والستمائة [1] لا فى الصفحة الثالثة .

الحق أن كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » يحتاج إلى كثير من التمحيص والضبط ، إذ اشتمل على كثير من الأخطاء ، وإن كنت لا أجحد ما بذله فيه مؤلفه من مجهود كبير .

* * *

(١) المنار ، المجلد ٣١ ص ٦٢٣ ، وينظر فهرس هذا المجلد ، ص ١١ .

نتائج البحث

١ ـ قدمت دراسة وافية عن مجلة المنار ، وفى خلالها تحدثت عن رشيد الصحفى ومكانته فى عالم الصحافة ، .

٢ ـ كشفت النقابَ لأول مرة عن الأصل الكامل لمقصورة رشيد ، وهو أصل لم ينشر من قبل ، وضبطت هذا النص وحققته وعلقت عليه ، وقدمت له بمقدمة عن المقصورة فى الأدب العربى أضفت بها كثيرا من المعلومات إلى ماتقدم من بحث عن المقصورة .

٣ ـ تحدثت عن « تفسير المنار » ، وبينت الأسس التى نهض عليها ، وتعرضت بتفصيل لاستخدام العقل فى تفسير المنار ، وصلة ذلك بالناحية الأدبية ، ثم أوضحت اسراف هذا التفسير فى استخدام العقل أحيانا ، والمآخذ التى تؤْخذ على هذا التفسير ، مثل الاستطراد الطويل ، والنزعة الخطابية ، وعدم الاستمرار فى التفسير ، والعجلة فى الكتابة ، والاضطراب بين الإيجاز والإسهاب .

٤ ـ درست شاعرية رشيد وشعره ، واستعرضت آراءه فى شعراء عصره وقومت هذه الآراء .

٥ ـ درست الجانب اللغوى فى شخصية رشيد رضا ، فشرحت عنايته باللغة العربية ، وغيرته عليها ، وآراءه فيها ، وأوضحت اتساع أفقه فى مناصرة الفصحى وفى أفكاره اللغوية وتعرضت لمساجلاته اللغوية مع شكيب أرسلان ، ومحمد محمود الشنقيطى ، وجبر ضومط ، وغيرهم . وتحدثت عن وضعه المصطلحات اللغوية ، وتنقيبه عن مجموعة

من الكلمات كل كلمة منها تؤدى معنى جملة ، وقد سماها « فرائد اللغة العربية » ، وقارنت بين عمله وعمل غيره فى هذا الباب .

ثم تعقبت رشيدا فى ملاحظات لغوية ، فذكرت أكثر من عشرين ملاحظة مؤيدة بالأدلة والشواهد .

٦ — نشرت فى البحث لأول مرة رسائل مخطوطة للشيخ محمد عبده ومحمد كرد على ، وأحمد الكاشف ، ويوسف الدجوى ، ومحمد بهجت البيطار ، وشكيب أرسلان ، وأحمد فتحى زغلول ، وغيرهم ، وعلقت على هذه الرسائل .

٧ — ذكرت آراء كثيرة للدكتور طه حسين فى مواطن مختلفة من البحث ، وقد أخذت هذه الآراء مشافهة من الدكتور طه ، ولم يسبق نشرها .

٨ — أحصيت جميع التراجم الموجودة فى مجلدات « المنار » للأدباء والشعراء والأعلام ، وصنعت لها قائمة تفيد كثيرا فى مجال الكتابة للتراجم .

٩ — أحصيت جميع المفردات والمصطلحات اللغوية التى نقب عنها رشيد وسبق إلى استعمالها .

١٠ — نبهت إلى موضوعات تصلح لدراسات أو بحوث مثل ، « أثر الجملة القرآنية فى الأدب العربى » و « أثر مجلة المنار » .

١١ — صححت الأخطاء الواقعة فى كتاب « رشيد رضا الإمام المجاهد » للدكتور إبراهيم العدوى وكتاب « الموسوعة العربية الميسرة » ،

وكتاب « التجديد والإسلام فى مصر » لتشارلز آدمز ، وكتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر .

١٢ ـ قدمت مقترحات مختلفة بشأن مايصنع من أجل مجلة « المنار » ومن أجل « تفسير المنار » .

١٣ ـ صححت المفهوم الذى ينبغى أن يفهم من كلمة « الأدب الإسلامى » ، إذ لاينبغى أن نجعل هذا العنوان مقصورا على الأدب الذى كان فى صدر الإسلام على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، بل نطلق كلمة « الأدب الإسلامى » على كل مايدور حول موضوعات إسلامية فى أى عصر من العصور ، أو يتصل بالإسلام من قرب أو من بعد .

١٤ ـ استطعت أن أصور شخصية الإمام السيد محمد رشيد رضا على أنه رجل قد عاش عصره وأثر فيه ، واتصل بأغلب أعلامه وأحداثه ، وأنه متعدد الجوانب والمواهب ، فهو عربى يبكر فى الاشتغال بالقضايا العربية ، ويسهم فى مناصرتها بالفكرة والكلمة والمشاركة العملية وهو مفكر إسلامى ، فيه روح الداعية إلى الله تعالى ، الغيور على دينه وتعاليمه الساعى لحسن الجمع بين عروبته وإسلامه ، وهو صحفى يسبق إلى الاشتغال بالصحافة ، وهو مفسر للقرآن الكريم بأسلوب عصرى ، وهو محدث روى الكثير من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويسندها ويخرجها ، وهو ثائر يكتب عشرات الآلاف من الصفحات ، وهو شاعر يقول الشعر وينقده ، وهو لغوى يعنى باللغة العربية ويدافع

عنها ويبحث فيها ، وهو خطيب يتردد صوته على منابر الدين والسياسة والإصلاح .

١٥ – استطعت بضم هذه الدراسة إلى دراستى عن « أمير البيان شكيب أرسلان » أن أسهم فى تجلية ملامح المدرسة الكبرى التى نهضت بجهود جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، على الجميع رضوان الله تبارك وتعالى .

* * *

المصادر والمراجع[1]

١ ـ الأئمة الأربعة : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى ، مطبعة دار الهلال بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م . الطبعة الأولى .

٢ ـ الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث : تأليف أنيس الخورى المقدسى . من منشورات كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأمريكية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٢ م ـ ١٣٧٢ هـ . جزءان .

٣ ـ أحمد زكى الملقب بشيخ العروبة : تأليف الأستاذ أنور الجندى ، سلسلة أعلام العرب ، مطبعة مصر بالقاهرة ، ٧ مايو سنة ١٩٦٤ .

٤ ـ أحمد فارس الشدياق : تأليف الأستاذ محمد أحمد خلف الله ، طبع طبعة الرسالة بالقاهرة ، سنة ١٩٥٥ م ـ ١٣٧٥ هـ .

٥ ـ أحمد فارس الشدياق : تأليف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن سلسلة أعلام العرب . طبع دار مصر للطباعة بالقاهرة ، ٧ فبراير سنة ١٩٦٦ م ـ ١٣٨٦ هـ .

٦ ـ أحمد لطفى السيد : مجموعة الكلمات التى ألقيت فى الذكرى الأولى لوفاته بمدينة المنصورة (فى ٢٨ و ٢٩ مارس سنة ١٩٦٤) . طبع دار مطابع الشعب بالقاهرة ، سنة ١٩٦٤ ـ ١٣٨٤ هـ .

---

(١) جريت هنا على ذكر اسم الكتاب ، فالمؤلف دون لقب ، فالمطبعة ، فرقم الطبعة ، فسنة الطبع ، فالأجزاء إن وجدت . ورتبت المصادر والمراجع حسب الحروف الهجائية ، وأسقطت فى الترتيب (أل) التى للتعريف ، وإذا كانت سنة الطبع المذكورة سنة هجرية قابلتها بالسنة الميلادية ، وإذا كانت السنة المذكورة ميلادية ذكرت بعدها السنة الهجرية .

٧ ـ الأخبار : جريدة يومية صباحية ـ أسست سنة ١٩٥٢ ، تصدر بالقاهرة .

٨ ـ الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف . تأليف الأمير شكيب أرسلان ، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، عام ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م .

٩ ـ أساس البلاغة : تأليف جاد الله محمود بن عمر الزمخشرى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٢م . جزآن .

١٠ ـ الإسلام بين العلم والمدنية : تأليف الإمام محمد عبده ، تحقيق وتعليق الأستاذ طاهر الطناحى ، مطبعة دار الهلال بالقاهرة ، سبتمبر سنة ١٩٦٠ م ـ ١٣٨٠ هـ .

١١ ـ الإسلام والنصرانية : تأليف الإمام محمد عبده ، مطبعة دار المنار بالقاهرة ، الطبعة السابعة سنة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٧ م .

١٢ ـ الإسلام فى القرن العشرين : تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد ، مطبعة دار التأليف بالقاهرة . ليس على الكتاب سنة الطبع .

١٣ ـ الإسلام والتجديد فى مصر : تأليف تشارلز آدمز ، ترجمة الأستاذ عباس محمود ، مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، سنة ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٥ م .

١٤ ـ أطباق الذهب : تأليف شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربى الأصفهانى ، مطبعة المعاهد بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م .

١٥ ــ الأعلام : تأليف الأستاذ خير الدين الزركلى ، مطبعة كوستاتوماس وشركاه بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٤ م . عشرة أجزاء .

١٦ ــ أعمال مجلس إدارة الأزهر : كتبه الشيخ عبد الكريم سلمان ، طبع بمصر سنة ١٣٢٣ هـ ــ ١٩٠٥ م وليس عليه اسم المطبعة .

١٧ ــ الأغانى تأليف أبى الفرج الأصفهانى ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ظهر الجزء الأول سنة ١٣٤٧ هـ ــ ١٩٢٧ م . وظهر من هذه الطبعة ستة عشر جزءا .

١٨ ــ أمير البيان شكيب أرسلان : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى ، مطبعة دار الكتب العربى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٣م . جزءان .

١٩ ــ أنا : تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد ، مطبعة دار الهلال بالقاهرة ، يوليه سنة ١٩٦٤م ــ ١٣٨٤ هـ .

٢٠ ــ أناتول فرانس فى مباذله : تأليف جان جاك بروسون ، ترجمة وتعليق الأمير شكيب أرسلان ، المطبعة العصرية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، لم تذكر سنة الطبع ، ولكنها سنة ١٣٤٥ هـ ــ ١٩٢٦ م .

٢١ ــ الأهرام ، جريدة يومية صباحية تصدر بالقاهرة ، أسسها سليم وبشارة تقلا سنة ١٨٧٥ م .

٢٢ ــ الإيضاح فى علوم البلاغة : لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى ، وشرح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، المطبعة الفاروقية الحديثة بالقاهرة ، سنة ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م ستة أجزاء .

٢٣ – البرقيات للرسالة والمقالة : تأليف أحمد تيمور ، مطبعة دار التأليف بالقاهرة ، سنة الطبع غير موجودة ، ويظهر أنها سنة ١٩٤٩ م .

٢٤ – بديع الزمان الهمذانى : تأليف الدكتور مصطفى الشكعة ، طبع دار الحمامى للطباعة بالقاهرة ، سنة ١٩٥٩ م – ١٣٧٩ هـ .

٢٥ – البرهان فى علوم القرآن : لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م . أربعة أجزاء .

٢٦ – تاريخ الأستاذ الإمام : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الجزء الأول سنة ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١م. والجزء الثانى ، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ – ١٩٣٣ م والجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٧ م .

٢٧ – تثقيف اللسان وتلقيح الجنان ، لابن مكى الصقلى ، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر ، طبع دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٦ هـ – ١٩٦٦ م .

٢٨ – تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر : لابن أبى الإصبع المصرى . تقديم وتحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية بالقاهرة ، سنة ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٣ م .

٢٩ – تذكرة الحفاظ : للذهبى ، طبعة حيدر آباد الركن بالهند ، سنة ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٧ م .

٣٠ – ترجمة القرآن وما فيها من المفاسد : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٤ هـ – ١٩٢٦ م .

٣١ – ترتيب القاموس المحيط : عمل الشيخ طاهر أحمد الزاوى ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٩ م – ١٣٧٩ هـ . أربعة أجزاء .

٣٢ – تفسير جزء تبارك : تأليف الشيخ عبد القادر المغربى ، صححه وعلق عليه الشيخ على حسب الله ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م .

٣٣ – تفسير جز عم : تأليف الإمام محمد عبده ، مطابع الشعب بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، ليس عليه ذكر لسنة الطبع .

٣٤ – تفسير سورة الفاتحة : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٧ م .

٣٥ – تفسير سورة يوسف : تأليف السيد محمد رشيد رضا وفى آخره صفحات بقلم الشيخ محمد بهجة البيطار ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م .

٣٦ – تفسير المنار : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، على طريقة الإمام محمد عبده ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٧ م .

٣٧ – تقويم دار العلوم : تأليف الأستاذ محمد عبد الجواد ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٥٢ م – ١٣٧٢ هـ .

٣٨ – تقويم الفكر الديني وصلته بالقومية العربية : تأليف الأستاذ محمود الشرقاوى ، مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة ، سنة ١٩٦٠ م – ١٣٨٠ هـ .

٣٩ – تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر : تأليف الأستاذ محمد سعيد البانى ، طبع دمشق ، سنة ١٣٣٩ هـ – ١٩٢٠ م .

٤٠ – الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي بالقاهرة ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م . جزءان .

٤١ – الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، سنة ١٣٥٩ هـ – ١٩٤٠م – الجزء العاشر .

٤٢ – جمال الدين القاسمى : تأليف الأستاذ ظافر القاسمى ، نشر مكتبة أطلس ، طبع المطبعة الهاشمية بدمشق ، سنة ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م .

٤٣ – الجواهر الغوالى : من رسائل أبى حامد الغزالى ، نشر محيي الدين الكردى ، المطبعة العصرية بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٣ – ١٩٢٥ م .

٤٤ – حاشية الصبان على شرح الأشمونى : تأليف محمد بن على الصبان ، مطبعة إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، لاتوجد سنة الطبع أربعة أجزاء .

٤٥ – حاضر العالم الإسلامى : تأليف لوثروب ستودارت الأمريكى ، ترجمة الأستاذ عجاج نويهض ، تعليق الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة

عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م . أربعة أجزاء .

٤٦ — الحديث والمحدثون : تأليف الشيخ محمد محمد أبو زهو ، مطبعة مصر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م .

٤٧ — الحرية الدينية فى الإسلام : تأليف الشيخ عبدالمتعال الصعيدى مطبعة الاعتماد بالقاهرة الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

٤٨ — حفنى ناصف : تأليف الأستاذ محمود غنيم ، سلسلة أعلام العرب ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ، نوفمبر سنة ١٩٦٥م

٤٩ — حياة حافظ إبراهيم : تأليف الأستاذ أحمد محفوظ ، طبع مطابع الناشر العربى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ليس على الكتاب سنة الطبع .

٥٠ — خلاصة السيرة المحمدية : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

٥١ — الخلافة أو الإمامة العظمى : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م .

٥٢ — دراسات نقدية فى ضوء المنهج الواقعى : تأليف الأستاذ حسين مروة المطبعة التجارية ببيروت — الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥ م — ١٣٨٥هـ.

٥٣ — دروس من القرآن الكريم : تأليف الإمام محمد عبده ، تقديم الأستاذ طاهر الطناحى ، مطبعة دار الهلال بالقاهرة ، مارس سنة ١٩٥٩ م — ١٣٧٩ هـ .

٥٤ – ديوان أحمد الكاشف : شعر الأستاذ أحمد الكاشف .

٥٥ – الرابطة الشرقية ، تاريخها ، قانونها ، أعمالها : يظهر أنها من أعمال الرابطة ، مطبعة أحمد شفيق باشا بمصر ، سنة ١٩٢٨ م – ١٣٤٧ هـ .

٥٦ – رسائل إلى رشيد رضا : مجموعة من الرسائل الخطية التى بعث بها إلى رشيد كثير من الأدباء والعلماء ورجال العروبة والإسلام . موجودة لدى .

٥٧ – رسائل رشيد رضا : مجموعة من الرسائل الخطية ، كتبها رشيد إلى كثيرين من رجال العروبة والإسلام ، موجودة لدى .

٥٨ – رسائل الصابى والشريف الرضى : للصابى والشريف الرضى ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ، مطبعة حكومة الكويت بالكويت ، سنة ١٩٦١ م – ١٣٨١ هـ .

٥٩ – رسائل شكيب أرسلان : مجموعة من الرسائل الخطية أرسلها الأمير شكيب أرسلان إلى صديقه السيد محمد رشيد رضا ، موجودة لدى .

٦٠ – الرسالة : مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، صاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات ، صدر العدد الأول منها يوم ١٨ رمضان ١٣٥١ هـ – ١٥ يناير ١٩٣٣ م .

٦١ – رسالة التوحيد : تأليف الإمام محمد عبده ، تعليق السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة دار المنار بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٨ م .

٦٢ – رشيد رضا الإمام المجاهد : تأليف الدكتور إبراهيم أحمد العدوى ، سلسلة أعلام العرب ، مطبعة مصر بالقاهرة ، سنة ١٩٦٤ م – ١٣٨٤ هـ .

٦٣ – زكى مبارك : تأليف الأستاذ أنور الجندى ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م – ١٣٨٣ هـ .

٦٤ – زهر الآداب : لأبى إسحاق الحصرى ، تعليق الدكتور زكى مبارك ، المطبعة الرحمانية بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٩ هـ – ١٩٢٩ م . أربعة أجزاء .

٦٥ – السنة والشيعة : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة دار المنار بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م . جزءان .

٦٦ – السيد رشيد رضا : تأليف الأمير شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧ م .

٦٧ – شعراء مصر : تأليف عباس محمود العقاد ، مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٩٥٠ م – ١٣٧٠ هـ .

٦٨ – شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى ، سلسلة أعلام العرب ، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، مطبعة مصر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، صدرت فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٦٣ (١٣٨٣ هـ) .

٦٩ – الشهاب : مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة ، صاحبها الشيخ حسن البنا ، بدأت الصدور فى غرة المحرم سنة ١٣٦٧ هـ – ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

٧٠ـ الشوقيات : نظم أحمد شوقى ، الجزء الأول طبع مطبعة مصر بالقاهرة ، ليس عليه تاريخ الطبع ، والجزء الثالث مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م .

٧١ـ الشيخ إبراهيم الحورانى : تأليف الأستاذ كمال اليازجى ، من منشورات معهد الدراسات العربية العالمية ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ، سنة ١٩٦١ م ـ ١٣٨١ هـ .

٧٢ـ الصحافة والأدب فى مصر : تأليف الدكتور عبد اللطيف حمزة من منشورات معهد الدراسات العربية العالمية ، طبع مطبعة البرلمان بالقاهرة ، سنة ١٩٥٥ م ـ ١٣٧٥ هـ .

٧٣ـ ظلمات أبى رية : تأليف الأستاذ محمد عبد القادر حمزة : المطبعة السلفية بالقاهرة ، سنة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م .

٧٤ـ عبد العزيز جاويش : تأليف الأستاذ حسن الشيخة ، مطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة ، سنة ١٩٦١ م ـ ١٣٨١ هـ .

٧٥ـ فجر الثورة : تأليف الأستاذ على الغاياتى ، نشر الأستاذ حسنين محمود حسنين (كنارى) طبع دار النشر بالإسكندرية ، سنة ١٩٦٢ م ، ١٣٨٢ هـ .

٧٦ـ فضل العرب على أوربا : تأليف سيجريد هونكه ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ، سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .

٧٧ – فقه اللغة وسر العربية : تأليف أبى منصور الثعالبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م .

٧٨ – فلسفة اللغة العربية وتطورها ، تأليف الأستاذ جبر ضومط : مطبعة المقتطف والمقطم ، سنة ١٩٢٩ م – ١٣٤٨ هـ .

٧٩ – فن الجناس : تأليف الأستاذ على الجندى ، مطبعة الاعتماد بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٤ م – ١٣٧٤ هـ .

٨٠ – فى بيتى : تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد ، سلسلة اقرأ ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، أغسطس سنة ١٩٤٥ م – ١٣٦٥ هـ .

٨١ – القاموس المحيط : لمجد الدين الفيروز ابادى ، المطبعة المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٣ هـ – ١٩٣٥ م .

٨٢ – قصة الإيمان : تأليف الشيخ نديم الجسر ، مطبعة دار أحد البحيرى إخوان ببيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٠ هـ – ١٩٦١ م .

٨٣ – قصة التفسير : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى ، سلسلة المكتبة الثقافية ، مطابع دار القلم بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، أول فبراير سنة ١٩٦٢ م – ١٣٨٢ هـ .

٨٤ – كشف الظنون ، لحاجى خليفة . طبعة درب سعادة ، سنة ١٣١٠ هـ الطبعة الأولى ، مجلدان .

٨٥ – لسان العرب : لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى المصرى ، طبعة دار صادر للطباعة والنشر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ، ببيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥ م – ١٣٧٤ هـ

٨٦ — اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، تأليف الأستاذ أنور الجندى ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة الطبع غير موجودة ، ولكنها سنة ١٩٦٣ — ١٣٨٣ هـ .

٨٧ — لغويات ، تأليف محمد على النجار ، مطبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة ، ليس عليه سنة الطبع .

٨٨ — المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق الدكتور أحمد الحوفى والدكتور بدوى طبانة ، مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩ م .

٨٩ — المجددون فى الإسلام : تأليف الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، المطبعة النموذجية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ليس على الكتاب سنة الطبع .

٩٠ — مجلة الأزهر : مجلة شهرية تصدر عن مشيخة الأزهر الشريف فى أول كل شهر عربى .

٩١ — مجلة المنار : صاحبها السيد محمد رشيد رضا ، صدرت فى القاهرة سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٨ م ووقفت عن الصدور سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

٩٢ — مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابورى الميدانى ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ، سنة ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م جزءان .

٩٣ — مجمع اللغة فى ثلاثين عاما : الجزء الأول بقلم الدكتور إبراهيم مدكور ، والجزء الثانى بقلم الدكتور محمد مهدى علام ، طبع المطابع الأميرية القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م جزءان .

٩٤ — مجموعة : تضم لامية العرب للشنفرى ، وشرحها للزمخشرى ، وشرح مقصورة ابن دريد ، وديوان الوردى ، وديوان الخشاب ، مطبعة الجوائب فى القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ — ١٨٨٢ م .

٩٥ — محاضرات عن حفنى ناصف : تأليف الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة ، سنة ١٩٦١ م — ١٣٨١ هـ .

٩٦ — محاورات المصلح والمقلد : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م .

٩٧ — مذكرات الإمام محمد عبده : عرض وتعليق الأستاذ طاهر الطناحى ، مطبعة دار الهلال بالقاهرة ، سنة ١٩٦١ م — ١٣٨١ هـ .

٩٨ — مذكرات واعظ أسير : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى ، مطبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة ، سنة ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م .

٩٩ — مذكراتى فى نصف قرن : تأليف أحمد شفيق باشا ، مطبعة مصر بالقاهرة ، سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م .

١٠٠ — مروج الذهب ومعادن الجوهر : تأليف أبى الحسن على ابن الحسين بن على المسعودى ، مطبعة دار الأندلس للطباعة والنشر ببيروت ، سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م أربعة أجزاء .

١٠١ — المسامير : تأليف عبد الله النديم ، الجزء الأول ، على غلافه أنه عنى بطبعه الشريف : ى . ن ، هـ ، م . وليس عليه اسم المطبعة ولا سنة الطبع .

١٠٢ـ المسلمون والإسلام : تأليف الإمام محمد عبده ، تقديم الأستاذ طاهر الطناحى ، مطبعة دار الهلال بالقاهرة ، سنة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م .

١٠٣ ـ مصابيح على الطريق : تأليف الأستاذ محمود الشرقاوى ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر ، بالقاهرة ، سنة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م

١٠٤ ـ مصادر الدراسة الأدبية : تأليف الأستاذ يوسف أسعد داغر ، طبع مطابع لبنان ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ م ـ ١٣٧٦ هـ الجزء الثانى .

١٠٥ ـ معجم الأدباء : لياقوت الحموى ، مطبعة دار المأمون بالقاهرة ، عشرون جزءا .

١٠٦ ـ معجم البلدان : لأبى عبد الله بن ياقوت الحموى الرومى البغدادى ، طبعة دار صادر ودار بيروت ، ببيروت ، سنة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م .

١٠٧ ـ معجم المؤلفين : تأليف الأستاذ عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى بدمشق ، سنة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م .

١٠٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٤ م .

١٠٩ ـ معجم مقاييس اللغة : تأليف أبى الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا المتوفى سنة ١٣٩٥ هـ ، تحقيق وضبط الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، بالقاهرة الطبعة الأولى ، بدىء فى طبعه سنة ١٣٦٦ هـ ـ وتم سنة ١٣٧١ هـ .

١١٠ ـ مفردات القرآن : تأليف أبى القاسم الحسين بن الفضل الراغب الأصفهانى ، المطبعة الميمنية بالقاهرة ، سنة ١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م .

١١١ ـ مقررات المؤتمر الإسلامى العام : مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس .

١١٢ ـ المقصورة الرشيدية : نظم السيد محمد رشيد رضا ، فى عشر صفحات ، ليس عليها اسم المطبعة ولا سنة الطبع ، ولكن يظهر أنها مطبوعة فى دمشق وأنها طبعت سنة ١٩٣٧ م .

١١٣ ـ المقصورة فى الأدب العربى ومقصورة رشيد رضا : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى ، مطبعة الرسالة ، سنة ١٩٧٠ م .

١١٤ ـ المقطم : جريدة سياسية يومية مسائية ، كانت تصدر بالقاهرة .

١١٥ ـ مناسك الحج : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، ومعها مناسك الحج لابن تيمية ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٨ م .

١١٦ ـ منبر الإسلام : مجلة شهرية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة فى أول كل شهر عربى ، رئيس تحريرها الأستاذ محمد توفيق عويضة .

١١٧ ـ منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم : تأليف الدكتور عبد الله محمود شحاتة ، طبع دار مطابع الشعب بالقاهرة : سنة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م .

١١٨ ــ مهرجان شوقى : مقتطفات من أقوال الكتاب والشعراء فى تكريم أحمد شوقى سنة ١٩٢٧ م ، عمل الحاج أحمد شفيق باشا . مطبعة مصر بالقاهرة ، سنة ١٩٤٠ م ــ ١٣٥٩ هـ .

١١٩ ــ الموسوعة العربية الميسرة : وضع لجنة من العلماء بإشراف الدكتور محمد شفيق غربال ، نشر مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، مطبعة دار القلم بالقاهرة ، سنة ١٩٦٥ م ــ ١٣٨٥ هـ .

١٢٠ ــ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى : تأليف الدكتور زكى مبارك ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٧ م . جزءان .

١٢١ ــ النصوص الأدبية : تأليف الأستاذ عبد الغنى إسماعيل ، مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ، ليس عليه سنة الطبع .

١٢٢ ــ نفح الطيب : لأحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٤٩ م عشرة أجزاء .

١٢٣ ــ النقود العربية : نشر الأب أنستاس مارى الكرملى ، المطبعة العصرية بالقاهرة ، سنة ١٩٣٩ م ــ ١٣٥٨ هـ .

١٢٤ ــ الهلال : مجلة شهرية تصدر بالقاهرة أنشأها جورجى زيدان .

١٢٥ ــ وجهة الإسلام : تأليف المستشرقين : جب ، وماسينيون ، وكامبفماير ، وبرج ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، المطبعة الإسلامية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٤ م .

١٢٦ — **الوحى المحمدى** : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، **الطبعة الثالثة** ، سنة ١٣٦٧هـ — ١٩٤٧ م .

١٢٧ — **وسائل تقدم المسلمين** : تأليف الدكتور أحمد الشرباصى مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة نشر مؤسسة المطبوعات الحديثة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٩ هـ — ١٩٥٩ م .

١٢٨ — **يسر الإسلام** : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ، سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م .

* * *

فهرس الكتاب

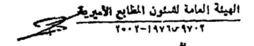
الموضوع	الصفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤٩٩٢



مليم جنيه

الثمن ٦٤٠ ١

Bibliotheca Alexandrina
0438206